النظام السياسي

في الإســــــــلام

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق

جامعة الأزهر

مؤسسة الرسالة

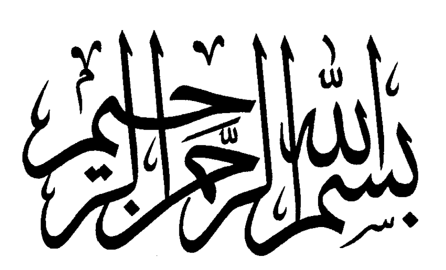
النظام السياسي
في الإسلام

الطبعة الثانية
١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع ١٩٥٥٦ /٢٠٠٤
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 17 - 1843 - 6

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ،

فها هي الطبعة الثانية لكتابي " **النظام السياسي في الإسلام** " أقدمها بعد نفاذ الطبعة الأولى بفضل الله تعالى، وهذه الطبعة تحافظ على جوهر الطبعة الأولى، و لم أزد عليها إلا بشيء من التنقيح وبخاصة في الفضل الرابع، وموضوعه " **فقه الخلافة** " لأني أردت إحاطة القارئ بمنهج الإسلام في إقامة الحكم الرشيد، وإظهار ما في تشريع الإسلام السياسي من دقة وسبق، وبخاصة في طرق اختيار القادة، ووضع مواصفات لمن يتولى العمل العام، وتحديد المسئوليات والاختصاصات في كل مجال .

ولعلي بذلك أذكر المسلمين بما في دينهم من نظام يمكنهم إذا أخذوا به أن ينهضوا مرة أخرى ويكونوا في مقدمة الأمم والشعوب .

إن أمر الحياة لن يصلح إلا بما صلح به أولها، وكما أقام السلف الصالح دولة الإسلام بخصائصها، وأهدافها تقوم أمة معاصرة وتنهض بنفس المنهج والطريق .

ولا يليق بمسلم أن يرى غير المسلمين يستفيدون بمنهجية الإسلام في العدل، والحكم، والعمل ... وبينما هو محروم منها.

إن المنطق يحتم التمسك بكل مفيد نافع، وترك كل ضار سيء، فهل يعي المسلم ذلك ؟؟ ويسارع إلى الخير، ويعمل لله، ويسعد مع تعاليم الإسلام في حياته وفى نشاطه وسائر عمله .

هذا ما آمله وأدعو الله ..... والله ولي التوفيق .

أ.د / أحمد أحمد غلوش

مدينة نصر في { ٢٣ رمضان ١٤٢٥
٦ نوفمبر ٢٠٠٤ م

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فلقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ بالإسلام، وجعله خاتماً للرسل والرسالات، وجعل دينه عاماً دائماً إلى يوم القيامة، صالحاً للناس أجمعين، يحقق الهدى، وينشر السلام، ويملأ الحياة بالخير والرشاد.

ولقد عاش السلف الصالح بالإسلام كله، بلا تفريط أو مبالغة فتحقق لهم ما أرادوا، وسعدوا بإسلامهم في الدنيا، وإنهم في الآخرة به لمنتصرون.

إن السلف الصالح عاشوا الإسلام كلا متكاملاً، فعرفوا حق الله تعالى فعبدوه بقلوبهم وجوارحهم وسلوكهم وأخلاقهم، وتيقنوا — بحق — أن العبادة تعني أن يكون المسلم عبداً ربانياً، بكيانه كله، فالتزموا بما آمنوا، فرضي الله عنهم ورضوا عنه، وتركوا لمن وراءهم تراثاً خالداً، ينطق بالحق، ويهدي من أراد لنفسه الهدى، ويشد أزر من هو على صراط مستقيم.

وبعد العصور الأولى أصبح الناس يحتاجون في فهم الإسلام إلى معارف عديدة، وإلى جهود مديدة بسبب قلة العلم، وشيوع العجمة، وكثرة المذاهب والاتجاهات وأدرك العلماء والمربون أن تطبيق الإسلام يحتاج إلى الفهم العلمي مع التدرج العملي في إطار إسلامي محدد المعالم، مع استمرارية المرشدين والدعاة في العمل والتوجيه، وحرص الخاصة على الأخذ بيد العامة من باب التعاون على البر والتقوى.

ومن أجل بقاء الإسلام بينا، واضحاً اهتم العلماء المسلمون بوضع مجموعة من العلوم والمعارف للتعريف بالإسلام بحيث يتناول كل منها جزءاً يوضحه، ويشرحه، ويضعه في قوالب منهجية تحدد المعالم، وتضع الأسس، وتقرر المسار الصحيح الذي يرغبه المؤمنون الصادقون كسباً لرضى الله والناس .

إن وضع الإسلام في أطر منهجية واضحة يساعد على العلم والفهم، وييسر العمل والتطبيق، ولذا كانت أهمية هذا العمل لوضع القواعد المنظمة، وتحديد المبادئ التي يتبعها المسلم وهو يعيش الحياة .

ومن الدراسات الهامة التي يحتاجها المسلمون اليوم دراسة " النظم الإسلامية " لأنها تهتم بإبراز الإسلام قادراً على صياغة الحياة السعيدة، وصناعة الحضارة الراقية والمحافظة على كافة الحقوق والواجبات للفرد والجماعة، وتقديم الحلول الشاملة لكل ما يحتاجه الناس في كافة الأمور ومختلف الجوانب.

إن النظم الإسلامية تشمل الإسلام كله، لأن النظام في مجمله مفهوم يجمع جزئيات الموضوع الواحد، ويرتبه ترتيباً منطقياً، منسقاً، واضحاً، ويدلل عليه، ويظهر فائدته، ويحدد المسارات العملية التي تحقق الهدف المطلوب لكل موضوع .

وبهذا المفهوم يمكن تقديم الإسلام كله من خلال دراسة مجموعة من النظم تشمل نظام العقيدة ونظام الشريعة ونظام الأخلاق باعتبارها نظماً إسلامية كبرى، كما يمكن تقسيم النظم الكلية إلى نظم فرعية عديدة .

وبهذا يمكن تصور الإسلام مجموعة من النظم مثل نظام الصلاة ونظام الحج ونظام التجارة، ونظام الزواج ونظام الميراث، وهكذا في سائر جزئيات الإسلام التي قدمها الفقهاء والعلماء في شكل كتب وأبواب وفصول .

ومن زاوية أخرى يمكن دراسة سائر النظم الحديثة التي اصطلح عليها علماء الدراسات الإنسانية مثل النظام التربوي، والاجتماعي، والإداري، والقضائي، والسياسي، والاقتصادي، من منظور إسلامي خالص، وبذلك تكون دراسة هذه النظم دراسة تفصيلية للإسلام من زاوية معاصرة، ورؤية تتعامل مع الواقع .

ومع أن النظم الإسلامية مستقلة بذاتها، وخصائصها عن النظم الأخرى إلا أن ذلك لا يمنع من تقديم النظم الإسلامية بلغة المصطلحات الحديثة، كالعلاقات العامة، والنظم الاتصالية، ونظام العمل، والتكوين الاجتماعي.... وهكذا .... ما دامت تلتزم بالتعاليم الإسلامية، وتعمل لصياغة الفرد والجماعة بالصيغة الإسلامية الخالصة.

إن معالجة الحق للواقع بلغة تناسبه يؤدي إلى الاقتناع به، ويجعله منهجاً يحقق المصلحة، والخير، كما أن تعريف النظم بمصطلحات العصر يقربها للأفهام، ويبرز مزاياها وفوائدها، وأيضاً فإن التعامل مع الحياة يحتاج إلى فهم الأحياء، والتوجه إليهم حيث هم مع التركيز على جوانب الإقناع والتأثير.

إن دراسة النظم الإسلامية أمر مهم في العصر الحديث، للتعريف بفضلها، وبيان شمولها، وشرح أهميتها في المحافظة على الحياة العصرية بمنهج الله وتفصيل دورها فى المحافظة على المصلحة في كل مجالات الحياة، مع الفرد والجماعة وفى مجال العلاقات الدولية، وفى وقت الحرب والسلم معاً.

إن دراسة النظم الإسلامية بلغة الواقع من مهمات الدعاة في العصر الحديث لمواجهة الشكوك التي توجه الإسلام من أعدائه الحاقدين، وأبنائه الجاهلين .

وتعود هذه الأهمية للرد على العلمانيين الذين يعبثون في ساحة خالية، ويستغلون غيبة الوعي عند المسلمين ، ويعتمدون على قوى البغي والفساد، ويذهبون إلى القول بعدم صلاحية النظم الإسلامية لإصلاح الحياة، وعجزها عن تحقيق الخير للناس مستدلين بحالة الشعوب الإسلامية وما وصلت إليه من ضعف وتدهور وانحطاط، زاعمين أن النظم الإسلامية لا تلائم العصر، وأنها عبارة عن توجيهات عامة يصعب صياغتها في إطار علمي وعملي منظم.

إن توضيح حقيقة النظم الإسلامية مجردة عن واقع المسلمين المؤلم، يبين أن الانحطاط حل بالمسلمين بسبب بعدهم عن الإسلام، وإهمالهم النظم الإسلامية، والتشبه بغير المسلمين في كل أمور حياتهم وأغلب نظمهم.

إن الأمة الإسلامية يوم أن عاشت بدينها، وطبقت تعاليم ربها ارتقت إلى أوج باسق، وأقامت حضارة راقية ... ويوم أن أهملت تعاليم الإسلام وأخذت نظامها .. من هنا .. ومن هنا وطبقت غير شرع الله تعالى حاق بها ما تستحقه، وعاشت الضعف والانحطاط والفقر ... والتاريخ شاهد عدل على ذلك .

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: **من الغريب أن المسلمين في الزمن الأخير صاروا تبعاً للأوربيين، يقلدونهم ويتخلقون بأخلاقهم حتى أخذت فلسفة الحياة الأوربية تسري في عروقهم كما تسري الكهرباء في الأسلاك، تراهم يتهافتون على الشهوات، ويتنافسون على الجاه والسلطان، ويؤثرون المصلحة الشخصية على الأخلاق والمبادئ وصارت حياتهم في أغلبها كأنها حياة من لا يؤمن بكتاب، ولا يصدق بنبي، ولا يرجوا معاداً، ولا يخشى حساباً .. وهكذا**[١].

فالعيب في المسلمين، وليس في الإسلام ونظمه، وصدق في المسلمين قول الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا

إن النظم الإسلامية تلائم الإنسان في كل زمان ومكان، والعلماء المسلمون قادرون على تقديمها في صورة كاملة، قابلة للتطبيق والتنفيذ وبخاصة أن هذه النظم عاشت بين المسلمين تجربة طويلة أثبتت صلاحيتها، وهي مدونة في المؤلفات القديمة والحديثة التي تستمد فكرها من القرآن الكريم، والسنة النبوية.

لقد قام العلماء المسلمون بجهد واضح في إبراز حقيقة النظم، وألفوا في هذا المجال عديداً من الكتب الأمر الذي أجبر أعداء الإسلام إلى الاعتراف بفضل النظم الإسلامية، والإقرار بدورها في الحياة الإسلامية خلال العصور الأولى، ورأوا إمكانية الاستفادة بها في العصر الحديث إلا أنهم يحاولون إلباسها ثوب غيرها وخلطها بالنظم الوضعية، لاستخراج نظم منها ومن الإسلام وسموها ديموقراطية الإسلام أو اشتراكية الإسلام ... وهكذا ...

وهذا أمر لا يجوز لأن هذا الخلط يؤدي إلى تشويه النظام الإسلامي، ويشير إلى وجود نقص في الإسلام يحتاج إلى من يتممه ويكمله.

إن الإسلام نزل تاماً شاملاً واستطاع بنظمه وتعاليمه إقامة مجتمع طيب، وأمة راقية لم تحتج في حركتها وحياتها لغير تعاليم الله أبداً.

هذا الواقع يحتم ضرورة معرفة النظم الإسلامية لتبقي نقية، صافية بمصـــادرها وحقائقها، وتميزها عن غيرها.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين صـــ٣٧٣ بتصرف ط الاتحاد الإسلامي.

والحياة الإيمانية الصادقة تحتاج إلى النظم الإسلامية مطبقة في عالم الواقع حتى لا تتأثر القيم سلباً حين تترك أو تهمل، أو يظن ظان أنها شيء والحياة العملية شيء آخر، **وحتى لا يتساءل لئيم ويقول: أين هي النظم الإسلامية؟!.**

إن جوهر الإيمان لا يحسن إلا بأداء العبادات، والعبادات بدورها تحتاج إلى علاقات أخوية بين الناس في المجتمع الواحد، وبذلك يرتبط الإيمان بالتربية الفردية والنظم الاجتماعية، والعلاقات المتنوعة في المجتمع الواحد.

إن استقرار المجتمع المسلم يحتاج إلى حكومة ودولة، كما يحتاج إلى نظام للمال، وللتقاضي، وللتشريع، لأن ذلك يصون الإسلام ويحميه ... ولو ترك الأمر للعلمانيين لوضعوا النظم والقوانين لحماية كل ما هو غير إسلامي، ومحاولة القضاء على ما عداه، كما رأيناه في أي بلد تمكنوا منه.

ولذلك كان الاهتمام بالنظم الإسلامية، وإقامتها في عالم الواقع صيانة لحركة الإسلام، وحفاظاً لجوهر الإيمان وصفائه، وتلك مسئولية الولاة والعلماء والمسلمين أجمعين .

إن النظام السياسي الإسلامي في قمة النظم الإسلامية الكبرى لما له من تأثير على كل أفراد المجتمع، ولدوره في الإشراف العام على سائر النظم، ولشدة الحاجة إليه في العصر الحديث الذي تتباهى فيه الأمم بنظمها، ومذاهبها، وقوتها، ولأنه يقدم صورة الإسلام مطبقاً أمام غير المسلمين حين يتعامل معهم، الأمر الذي يعرفهم بالإسلام، ويبين لهم أنه دين الناس أجمعين.

إن النظام السياسي في الإسلام شامل دقيق، يشرفني الكتابة فيه مع الاعتزاز بالحقائق التي توصلت إليها وأهمها :

- النظام السياسي جزء من الإسلام وهو مع سائر النظم يقدم الإسلام كما أنزله الله تعالى.

- مصادر الإسلام معلومة محددة تمكن كل دارس من المعرفة، والعلم وتسهل لكل مسلم العمل والتطبيق وهى بفضل الله ثابتة محفوظة.

– ترك العلماء المسلمون تراثاً رائعاً يفصل كل جوانب الإسلام، ويحدد الأسس والمبادئ، ويوضح مناهج العمل، ويفصل صور التطبيق ... وهذا يغني كل مفكر وكل مسلم عن الرجوع إلى أفكار غير المسلمين لأن عنده ما يكفيه، وفيه الغناء، وفيه السبق والتميز.

– المسلمون في العصر الأول، طبقوا الإسلام بصورة تلقائية سهلة لاعتنائهم بتطبيق ما يفهمون، ومسارعتهم للعمل والالتزام أولا بأول إذ كان العمل ملازماً للعلم، وظهر التطبيق العملي مع نزول الوحي والتشريع.

– عاش المسلمون الإسلام كله بلا حرج أو مشقة بسبب أنهم جميعاً كانوا معاً في الإيمان والعمل، وبذلك رأوا الإسلام في كل مجالاتهم، رأوه في بيوتهم، وفى أعمالهم، وأثناء حركتهم، وسائر أنشطتهم، وكانت المخالفة شذوذاً يرفضها الجميع، ولا يقبلها أحد وأدى هذا التكامل الإيماني إلى سهولة العمل والتطبيق .

– تعود صعوبة التطبيق الإسلامي في عالم اليوم إلى تعدد منابع التوجيه، وتنوع جهات التلقي مع تعارضها وتناقضها ... حيث نرى البناء والهدم، والإصلاح والإفساد، والاستقامة والمجون كل ذلك في وقت واحد، وفى مجتمع واحد ... ومن هنا كانت المشقة في العمل الإسلامي الخالص ... الأمر الذي يحتم ضرورة توحد الجهود، والتعاون بين الجميع في إطار يخدم الناس بشرع الله تعالى .

وإني إذ أكتب في النظام السياسي لا أدعي التفرد أو السبق وإنما أحاول ان أضيف شيئاً للمكتبة الإسلامية يذكر بالحق، وينادي إلى سواء السبيل ويعين المحبين لله على تجاوز مشاق الطريق، ويدفعهم إلى التحمل والصبر حتى يتحقق لدين الله الانتصار في أرض الله سبحانه وتعالى، وفى حياة الناس .

وأسأل الله أن يوفقني لما يحب ويرضى ... إنه نعم المولى ونعم النصير

أ.د / أحمد أحمد غلوش

مدينة نصر في { غرة رجب ١٤٢٣هـ
٨ سبتمبر ٢٠٠٢ م }

الفصل الأول

أساسيات النظام السياسي في الإسلام

ويشـــمـل :-

المبحث الأول: المفهوم العام للنظام السياسي الإسلامي .

المبحث الثاني: أهميـــة النظـــام الســـياســـي .

المبحث الثالث: مقومات النظام السياسي في الإسلام .

المبحث الرابع : الإســـــلام دين ودولـــــة .

تمهيد:

الدراسة العلمية دائماً تبدأ بتحديد مجال الدراسة ليتضح الموضوع وتعرف أهميته، وتظهر الغاية من دراسته، ويحتاج كذلك إلى معرفة الجذور والأساسيات التي ينطلق منها، والمنهج المتبع في البحث والدراسة.

والنظام السياسي من أهم النظم وأخطرها لما له من تأثير في سائر النظم، والناس في أي مجتمع يحتاجون إليه، وسائر المذاهب والفلسفات تباهي بنظامها الذي تنظم من خلاله حركة الحياة والناس .

وللإسلام نظامه السياسي الخاص به، المتميز بمصدريته الثابتة، وتطبيقاته المعلومة، وغاياته السامية لأنه شرع من الله تعالى، الذي أودع الدقة والحسن والجمال في كل ما خلق وشرع.

ومع تعرض النظم الإسلامية جميعاً للهجوم، رأينا من يدعي أن الإسلام خال من النظام السياسي بدعوى أن الرسول ﷺ كان داعية فقط، وأن سلطته على أصحابه ﷺ جاءت من خاصية الولاء بين المؤمنين ورسولهم، فهي ولاية الرسالة لا صلة لها بالحكم والسياسة.

وهذا كلام واه لا صحة له بالأدلة النظرية، وبالتطبيقات العملية في حياة المسلمين خلال عصر رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

إن رسول الله ﷺ أقام دولة، ووضع أسس الحكم ومبادئه، وكان له مستشاروه، ووزراؤه، وقواده، ووجدت الشورى في عهده ﷺ وتم اختيار الخلفاء الراشدين على أساسها، ويمكن للباحث المنصف أن يعرف ذلك نظرياً من خلال تفهمه للنصوص الإسلامية التي تحدد أسس الحكم والسياسة، ويمكنه أن يراه واقعياً بمراجعة تاريخ الإسلام في الصدر الأول.

إن الدراسة في هذا الفصل ستكون في القراءة النظرية للنظام السياسي في الإسلام، حيث تعرف القراءة بالمفهوم العام للنظام السياسي الإسلامي، وتبين مقومات النظام السياسي التي يعتمد عليها ويقوم على جوانبها، وهي مقومات ترتبط

بالعقل والضمير، كما تتلاقى مع العمل والسلوك، ولذلك فهي مقومات عقدية إيمانية ومقومات اجتماعية عملية، وبعدها يكون الحديث عن دور الإسلام في قيام الدولة لننتهي في نهاية الفصل إلى تقرير الحقيقة الثابتة، وهي أن الإسلام دين ودولة، وأن له نظامه السياسي المدعم بالمقومات التي أشرت إليها.

وفى هذا الفصل سأتناول الأسس النظرية للنظام السياسي في الإسلام ببيان مفهومه، وتوضيح أهميته، وتحديد مقوماته العقدية، والدستورية لينتهي الفصل بتأكيد أن الإسلام دين يشمل على نظام سياسي سبق به سائر النظم المعاصرة.

وسبق الإسلام لسائر النظم مسألة لابد من ظهورها بوضوح لأن العالم يوم أن جاءه الإسلام كان يعيش ظروفاً لاحق فيها لإنسان، ولا فائدة لبشر إذ كان العالم كله يخضع لنظم تؤله الحاكم، وتقدس السلطان وتجعله كل شيء في الحياة، فرأيه هو الرأي، ولا راد لحكمه وأمره .

في هذا الوقت جاء الإسلام بنظمه من عند الله تعالى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وسوف يجيء هذا الفصل بإذن الله تعالى، مشتملاً على المباحث التالية:-

المبحث الأول: المفهوم العام للنظام السياسي الإسلامي.

المبحث الثاني: أهمية النظام السياسي الإسلامي .

المبحث الثالث: مقومات النظام السياسي في الإسلام.

المبحث الرابع: الإسلام دين ودولة.

وسوف ترد هذه المباحث مرتبة فيما يلي بإذن الله تعالى ...

المبحث الأول

المفهوم العام للنظام السياسي الإسلامي

معرفة أي شيء على حقيقته يحتاج إلى تصور معناه وفهم مفرداته ولذلك كان التصديق فرعاً عن التصور، فإن كان هذا الشيء مركباً لزم تصور كل جزء فيه وإن كان مفرداً يكفي معرفته وحده وهذا هو التصور، وبعد ذلك نحتاج إلى معرفة النسبة بين المفردات بعدما تكون مصطلحاً مركباً وهذا هو التصديق، ولذلك كان التصور أساساً للتصديق .

ومصطلح " النظام السياسي الإسلامي " مركب من ثلاث كلمات نبدأ بتعريف كل منها لنصل بعد ذلك إلى وضع المفهوم العام للنظام السياسي الإسلامي.

والنظام مصدر فعله نظم، ومعناه جمع أجزاء الشيء الواحد، وتنسيقها، وترتيبها، لتقدم شيئاً متآلفاً، مفيداً، وهذا الجمع للجزئيات يشمل الماديات والمعنويات ويدور في الأرض والسماء، ويكون مع الإنسان ومع سائر المخلوقات، فقصيدة الشعر نظمت من كلمات، وعقد اللؤلؤ تكون من حبات، والنجوم نظام في السماء، وتوزع التلال والجبال والأنهار نظام يملأ الأرض والحياة .

إن الشيء الجميل المرتب نظام بديع، ولذلك يقال بيت منظم، وأسرة منظمة وإنسان منظم، وهكذا في كل شئون الحياة.

ويعرف كل نظام بما أضيف إليه، أو وصف به، كقولنا نظام الأسرة، أو نظام أسرى فبالوصف أو بالإضافة يعرف النظام المقصود.

وإذا خلا أمر من التنسيق والتلاؤم، وشاع فيه الخلل وعدم التناسق وعدم التوافق، يقال له: ليس لهذا الأمر نظام[١].

والسياسة: تعني حسن التصرف ودقة التدبير في الإشراف على شئون الخلق، وحماية الدين، وهي فن قيادة الناس، وإصلاح شئونهم، وقضاء مصالحهم، والنهوض بالمجتمع، وتنظيم علاقات الأفراد والجماعات وفق منهج محدد معروف له أصوله الفنية

---

(١) انظر كتب اللغة مادة " ساس ".

والتشريعية، جاء في المنجد (**أن السياسة هي استصلاح أمور الخلق بإرشادهم إلى طريق النجاة، وهي فن الحكم وإدارة شئون الدولة في الداخل والخارج**) [١] .

والإسلام : هو دين الله تعالى الذي جاء به محمد ﷺ وهو الدين الثابت الخالد إلى يوم القيامة بثبات مصدريه القرآن الكريم والسنة النبوية وهو مشتمل على عقيدة وشريعة وأخلاق.

وعلى هذا ....

فإن النظام السياسي الإسلامي يعرف بأنه " المنهج الكامل المستمد من التعاليم الإلهية الخاصة بحسن تدبير شئون الناس، وإرشادهم إلى طريق الخير والسعادة، وحماية الحقوق، وتحديد الواجبات، وحماية الدين والدولة في إطار سلطة حاكمة، وجماعة محكومة وفق هذه التعاليم.

وهذا المفهوم للنظام السياسي يتضمن الملامح التالية :

أولاً: هو نظام إلهي يعتمد على ما جاء من عند الله من قرآن، وسنة وعلى اجتهاد العلماء المسلمين وفق القواعد الدينية المأخوذة من الكتاب والسنة، يقول المزني: (**الفقهاء من عصر رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا استعملوا القياس في أمر الدين، وأجمعوا بأن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، فلا يصح إلغاء القياس**) [٢] ومع القياس توجد سائر الأدلة الشرعية لأن الأخذ بها بشروطها الأصولية يعد أخذاً من القرآن الكريم والسنة النبوية .

والاجتهاد بكل صوره له أهميته مع النظم الإسلامية، لأن آيات القرآن الكريم، وأحاديث رسول الله ﷺ لم تتناول كل الجزئيات التي تجد للناس ، ولم تتحدث عن وقائع كافة العصور وأحداث جميع المجتمعات لأن ذلك أمر لا ينتهي ... وإنما اكتفت بوضع القواعد الكلية، والمبادئ العامة، وذلك سهل للعلماء إدراج الجزئيات المحدثة تحت القواعد الكلية متسمة بشرع الله وتعاليمه، واستفادوا بذلك من كافة الأدلة الشرعية، وهكذا كان استمداد النظم من المصادر الإسلامية .

وقد اهتم علماء السياسة الشرعية في استخلاص نظام إسلامي متكامل في السياسة، وتدبير

---

(١) المنجد ص ٣٦٢ ط ٣٤ .

(٢) مختصر المزني على الأم جـ٩ صـ٥٢٣.

شئون الناس، ووضعوا له صورة متكاملة في مؤلفاتهم، وكتبهم فحددوا مسئولية الحاكم، وواجبات الرعية، ووضحوا طرق نشر الحق والعدل، وأساليب تحقيق الأمن والاستقرار.

إن اعتماد النظام السياسي على المصادر الإسلامية يؤكد ثبات النظام واستمراريته على الزمن كله، وهذا يؤدي إلى الطمأنينة والازدهار، لأن من المقرر أن المصادر الإسلامية ثابتة بحفظ الله لها، واجتهادات العلماء في إطار أمور معلومة.

ولعل كثرة ما استحدث في النظام السياسي الحديث من وجود أحزاب، وتنوع صور الحكم، وتعدد الديموقراطيات، وشيوع الشعارات ادعى إلى اجتهاد العلماء والفقهاء لتحديد نظام الإسلام السياسي، وتميزه عن غيره.

ثانيا: النظام السياسي في الإسلام يأخذ الأمة إلى الله ويدعوها إلى طاعة أولى الأمر، وهي طاعة لا تكون في معصية أبدا، وإنما هي دائماً في الحق والخير وفى طاعة الله تعالى، لأنه يعتمد المنهج الإسلامي في الحركة والتوجيه، ويحدد مسار الراعي والرعية بالإطار الإسلامي.

فللإمام حق الطاعة يقول الله تعالى ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ** ﴾ [1] إنها طاعة للحياة والخير، يقول الله تعالى ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ** ﴾ [2].

ويقول النبي ﷺ : (**على المرء المسلم السمع والطاعة، فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**) [3].

وعن عبادة بن الوليد بن عبادة عن أبيه عن جده قال : **بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الحق لومة لائم**) [4]

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٤ .

(٣) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب وجوب طاعة الأمير جـ١٢ صـ٢٢٦ .

(٤) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب وجوب طاعة الأمير جـ١٢ صـ٢٢٨.

وتلك أمور تجعل المسلم يعيش في كنف الله، ويلتزم بدينه وشرعه، وتوجهه إلى الارتباط التام بخالقه سبحانه وتعالى .

إن النظام الإسلامي يحكم مسار الجميع ويربط المخلوق بالخالق ويحدد لكل حقه وواجبه فللراعي حق الطاعة، وللرعية حق الرعاية والحماية يقول النبي ﷺ (**ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته**) [١]

إن النظام السياسي في الإسلام يقيم دولة الله في الأرض، بين الناس بالحق والعدل **وعلى هذا ....**

فالنظم الإسلامية ربانية المنبع، ربانية الصورة، ربانية الهدف والغاية .

وأي نظام سياسي غير مستمد من تعاليم الإسلام لا يكون إسلامياً، وإنما الواجب أن ينسب إلى مصدره، ومنبعه .

وأي نظام يبعد الناس عن الإسلام، ويعمل على نشر قيم يرفضها الإسلام بعيد عن النظام الإسلامي مهما كان وضعه، ومسماه .

وأي نظام ينتج صورة اجتماعية تتعارض مع الإسلام وتعاليمه لا يكون إسلامياً لأنها نتاج غيره وأثر غريب عنه.

وأي نظام يخلط في الاستمداد بمعنى أن يأخذ من الإسلام، ومن غيره ويؤدى إلى تغيير في المنهج والغاية لا يكون إسلامياً.

وأي نظام يبدو شاذاً في إطار نظم الإسلام لا يكون إسلامياً خالصاً.

أما استفادة المسلمين بشيء من النظم الأخرى، كطريقة التنفيذ، أو كيفية اختيار أهل الشورى، أو تنظيم الولايات، أو توزيع اختصاصات العمل، أو في شرح المسمى الإسلامي بحيث لا يترتب عليه تغيير في حقيقته الإسلامية فهو اجتهاد مقبول .

إن العبرة بالتطبيق الصحيح للإسلام بعيداً عن الأشخاص، والهيئات فإذا ما تحقق الإسلام تحقق المأمول، والناس لا يحاسبون عند الله بأنسابهم وأحسابهم وأسمائهم وإنما يحاسبهم الله بإيمانهم وأعمالهم.

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب فضيلة الإمام العادل جـ١٢ صـ٢١٣ .

ولما كان الإسلام دين الحق، والعدل، وحامي كرامة الإنسان، والمتصف بالطهر، والنظافة، والعفة، والخلق النبيل، وقيمه هي قيم الخير والسلام... لما كان الأمر كذلك صار نظام الإسلام مسئولاً عن تحقيق هذه المبادئ، في واقع الحياة، ولذا وجب أن يؤدي النظام السياسي في الدولة الإسلامية إلى تحقيق الصفات التي يتميز بها الإسلام.

وفى حالة عجز النظام عن تحقيق هذه الأمور، فالواجب أن تعرف الأسباب المؤدية إلى هذا الخلل لعلاجها، حتى يعيش المسلمون سعداء بشرع الله تعالى. .

وتمسك المسلمين بالنظام ضرورة حياتية، لأن الله خلق كل شيء منظماً، وجعل دينه منظماً، وأبدع الكون كله منظماً .... وفى ذلك توجيه نحو أهمية التنسيق والنظام.

إن النظام أساس إصلاح الحياة، وسبب تحقيق الأهداف، وهو طريق الوصول للغايات المأمولة، والفطرة تتلاءم معه وترضى به، وقد خلق الله الكون كله منظماً بديعاً، وأنزل دينه متسقاً مع النظام الكوني، فتكاملا سوياً حتى أن المرء ليحار في أيهما الأجمل والأحسن .

والنظام السياسي يتكامل مع سائر النظم لأن تنشئة الفرد وتربيته نظام يسعى إلى إيجاد الإنسان الصالح الذي يصير عضواً في نظام اجتماعي سليم، ويتمكن من المشاركة والمساهمة في سائر النظم في المجتمع الإسلامي .

ولذلك نجد النظام السياسي يقوم بالإشراف على سائر النظم الفردية والجماعية، الأمر الذي يجعل مسارها وفق شرع الله تعالى .

ومن هنا رأينا أن تطبيق أي جزئية إسلامية يعد مساهمة في البناء الإسلامي كله.

المبحث الثاني

أهمية النظام السياسي

أودع الله الدقة والنظام في الإسلام كله، حيث نراه منظماً جميلاً تتكامل عناصره، وتتعاون كلها في تقديم الإسلام.

فالعقيدة نظام يقوم على الفهم والاقتناع والإيمان، حيث البراهين والآيات، ومع الإيمان طاعات وعبادة ... هكذا في كل أركان العقيدة بلا خلل أو اضطراب.

والشريعة الإسلامية مجموعة من النظم، ففيها نظام العبادات، ونظام المعاملات، ونظام الشركات، والمزارعة، والإيجار، والجهاد، والأحوال الشخصية والميراث .. إلخ، حيث نراها شاملة وعامة وعادلة لكل جوانب الحياة والأحياء.

والأخلاق الإسلامية منظمة هي الأخرى في جانبيها النظري والعملي، فكل ما خلق الله وأنزله منسق، متآلف، مرتب الأجزاء يحقق الغاية بيسر لا مشقة فيه، ففى كون الله ودينه ﴿ كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾.

ويمكن تقسيم النظم إلى قسمين :

أحدهما نظم كلية كثيرة العناصر، عديدة الجوانب.

والأخرى نظم فرعية تندرج في إطار نظام كلي .

ومن النظم الكلية في الشريعة الإسلامية النظام السياسي لما له من أهمية عظمى في تنظيم حياة الناس حيث يظهر في أعمال الراعي، والرعية، ويحدد مسار الحاكم والمحكوم، وبدونه تعم الفوضى وتضيع مصالح البلاد والعباد كما أنه يشتمل على مجموعة من النظم الفرعية .

إن النظام السياسي في الإسلام يحدد صفات الحاكم قبل توليته ليكون قادراً على تحمل مسئولية الحكم الثقيلة، فهو ليس شخصاً عادياً، وليست مهمته سهلة، إنه مسئول عن الأمة كلها، يحقق لها الأمن، ويراعى الحقوق، ويوجه حركة الحياة، ويشرف على التعليم والزراعة، والصناعة ... ولذلك وجب أن يتصف بصفات تعينه على مسئولياته الجسام .

إن الحاكم مكلف بأن يحافظ لرعيته على الضرورات التي جاءت الشريعة لتحقيقها، وعليه أن ينشئ المدارس، والمستشفيات، ويشيد البنايات والكباري، ويشق الطرق، والترع، والأنهار ويحقق الأمن والسلام، ويصون الدين، ويحمي الشريعة ويعمل لتوجيه الحياة كلها بمنهج الله تعالى فيعطي كل ذي حق حقه، ويأخذ من كل ما عنده من حقوق غيره، ويقضي بين الناس بالعدل، فيستريح الناس وينصرف كل لأداء ما عليه من واجب .

والحاكم مسئول عن تطبيق شرع الله تعالى، وتبليغ الإسلام للناس، وإعداد العدة لتنظيم التعامل مع العالم الخارجي بعزة وتكريم .

أما إذا انعدم الحكم الصحيح، وأهمل الدين تدب الفوضى، ويأكل القوى الضعيف، ويتحول أمر الناس إلى حياة الغابة المليئة بالوحوش، والحمد لله أن الأمر لم يكن في شرع الله فوضى، بل كان الرسول ﷺ حاكماً في الناس بشرع الله، ومن بعده كان خلفاؤه الذين تولوا الأمر، وساروا في الناس سيرة رسول الله ﷺ في الحكم .

إن تحقيق نظام الإسلام السياسي في عالم الواقع يحقق فوائد عديدة من أهمها:-

١) تسهيل أعمال الناس :

يسهل النظام السياسي لكل إنسان أن يقوم بواجبه المنوط به حيث يجد الإنسان كل ما يحتاج إليه تلقائياً، ومن المعلوم أن الإنسان يحتاج لعمل غيره، ولا يستطيع أي فرد أن يعيش لنفسه فقط، فالمدرس يحتاج لمن يطعمه، وينقله، ويعد له ملبساً، ويبني له مسكناً، وعلى نمطه سائر الناس وأرباب جميع الحرف، فالإنسان مدني بطبعه، وكل فرد يحتاج لغيره، ولذلك كانت ضرورة النظام السياسي لتحديد حقوق وواجبات كل الأفراد، والهيئات والمؤسسات، وبذلك يعيش الناس حسن التعاون، وطيب التعامل، وقوة الترابط، ومداومة الألفة، وهدوء الرضى، وما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط .

والنظام السياسي هو الذي ييسر الأعمال لأصحابها ويضبطها بالرقابة والمتابعة كما يقوم بتنظيم الأسواق، والإشراف على حركة البيع والشراء ... وسائر أنشطة

الناس، وبذلك لا يبغي إنسان على غيره، ولا يستغل فرد سواه بل الكل يأخذ ويعطي، ويفيد ويستفيد.

٢) تطبيق الأحكام الشرعية :

يضع النظام الإسلامي أسس المعاملات بين الناس، ويقضي فيهم بتنظيم أحكام العقود، والتصرفات العملية، ويجرى القصاص والحدود إذا حدث ما يستوجبها، كما يشرف الحاكم المسلم على معاملات الأفراد، ومبادلاتهم من بيع وإيجار، ورهن، وشركة ونكاح، وإرث ... وهكذا .

وهكذا تمتد مسئولية الحاكم المسلم على كل شئون الأفراد، والجماعات فينظمها وفق شرع الله، ويشرف على حسن الأداء، وحسن العمل.

والإنسان المسلم مع واليه يطيعه ما دام يأمره بشرع الله، وينصحه به، ويعيش معه على الخير والفلاح وبذلك تستقيم الحياة، ويقوم كل فرد بما عليه في سهولة ويسر .

ولو تخيلنا حكماً فوضوياً، يقوم على الاستعلاء، والتحكم، والظلم، ولا يحكم بشرع الله، لو تخيلنا ذلك لتصورنا انعكاساً لحركة الحياة يضر ولا يفيد.

- حيث يسود الثأر بدل القصاص.
- ويعم الغش والكذب بدل الأمانة والصدق.
- ويعلو شأن الفساد والفسق والفجور، ويخبو الصلاح وتضيع الأمانة.
- ولا تجد عملاً ناضجاً، أو مشروعاً مربحاً.
- وترى انتشار كل أمر مناقض لدين الله تعالى.

وسبب هذا سوء الحكم، وفساد الرعية، وانتشار المحسوبية والفوضى التي تخيلناها.

ولذلك قلنا: إن الحاكم العادل يوجه رعيته نحو الخير، ويمكن كل إنسان من أداء واجبه في سهولة وراحة في نطاق شرع الله تعالى .

٣) تحقيق الاستقرار العام :

يحقق النظام السياسي الإسلامي استقرار المجتمع، وينشر الرضى بين سائر الناس لأن حقوق الإنسان معه مصانة، وواجبه معروف، وهو ملتزم به، والكل يراقب الله تعالى في عمله، ويخشاه وحده ويتقيه.

وصدق من قال:

لو أنصف الناس لاستراح القاضي   وبات كل عن أخيه راضي

إن المؤمن يعلم أن الله لا يقبل إلا الحق، ولا يرفع إلا العمل الصالح، وهو سبحانه محيط بكل شيء يقول الله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [1] فعزة المسلم في التزام الحق، ومداومة الطاعة والانقياد التام لحكم الله تعالى، فقدرة الله غالبة، وعلمه شامل، وأعمال الناس صاعدة إليه، ولا يقبل سبحانه وتعالى منها إلا ما كان خالصاً من قول طيب أو عمل صالح، أو خلق كريم، ولذلك لا يصح معه مكر، أو لؤم، أو إهمال، أو غش لأن نتيجة ذلك في حكم الله الخسران، والبوار.

إن الإنسان المسلم في إطار تعاليم الإسلام وسلوكه المستقيم مثالي في عقيدته، وعمله وخلقه ولذلك فهو خير معين للحاكم في إقامة شرع الله وإنشاء حضارة راقية وإقامة المجتمع السعيد.

والحاكم المسلم بدوره يحمى الدين بالدعوة، ويرد الشبه عنه، ويتصدى لكل ألوان الغزو الفكري، ويمنع كل ما يؤجج العواطف السيئة ويثير الغرائز المحرمة... وفى نفس الوقت يسوس الناس بالعدل، ويحقق لهم الأمن والمساواة، ويضمن تكافؤ الفرص بين الجميع، وينشئ المؤسسات وكل ما يحتاجون إليه وفق التطور الحضاري والتقدم المدني كل ذلك وهو يطبق فيهم شرع الله تعالى.

نظام يجمع هذا الحاكم، وهؤلاء المحكومين كفيل بتحقيق الأمن والاستقرار لسائر الناس.

٤) تدعيم النظم الإسلامية :

النظام السياسي الإسلامي الصحيح يؤدي إلى وجود سائر النظم الإسلامية، لما له من هيمنة عليها، فسائر الولايات تعمل تحت إمرة الحاكم، ومن سلطته وضع القوانين المنظمة لها، ومراقبتها ومنع أي انحراف يحدث لها، وهذا ما يعـــرف بوحـــدة النظم في

---

(١) سورة فاطر الآية ١٠ .

الإسلام لصدورها جميعاً من معين واحد، ولغاية واحدة وهى إخراج الأمة العـــابدة، المؤمنة من مثالية الفكر إلى عالم الحركة والحياة، ومن مجال التصورات الخيالية إلى مثالية الواقع والتطبيق .

وسلطة الحاكم المسلم تتناول كل أمور الدين، وكل سياسة الدنيا، على أساس شريعة الله تعالى، التي تهدف إلى تحقيق مصالح الدنيا والآخرة، وإقامة المجتمع الفاضل، المستقر، القوى، المتمكن في الأرض، العزيز بعزة الله تعالى.

وقيام السلطة على أساس شرع الله لا يمنع أن يجمع الحاكم بين الإشراف على السلطة التنفيذية وسلطة القضاء لأن الوازع الديني، والإحساس برقابة الله يمنع الحاكم المسلم من الظلم والعدوان، ويرده عن تجاوز ما حدد الله له شرعاً، ومن الأولى أن تستقل السلطة القضائية وبخاصة في هذا العصر الذي تداخلت فيه الأمور، وكثرت التبعات، وأصبح الكل يدعى أن الحق معه، ويحاول إثباته بطرق عديدة فيها التواء وجور .

وعلى هذا ....

نجد ازدهاراً لسائر النظم الإسلامية حينما يسود النظام الإسلامي في الحكم، والسياسة حيث لا نجد عائقاً يمنعها، أو عدواً يحاربها، لأن الحاكم يحميها ويكفل لها الحرية، والأمان وينميها بالتنظيم .

٥) نجاح الدعوة الإسلامية :

وجود النظام السياسي في الدولة الإسلامية بصورة كاملة يعتبر دعوة صادقة لغير المسلمين للدخول في الإسلام، لأن ظهور هذه الدولة المسلمة حينئذ يكون إبرازاً عملياً لمزايا الإسلام وفضائله، وقد رأيناها في الدولة الإسلامية الأولى، فقد دخل الناس في دين الله أفواجاً حينما رأوا العدل والتكريم والعزة سمة لحياة المسلمين ومعاشهم .

ومن المعلوم أن الدعوة العملية أكثر تأثيراً من الدعوة النظرية، لأنها تطبيق واقتناع، وبيان للنتائج والأهداف.

إن الفتح الإسلامي لم يقهر أحداً على الدخول في الإسلام، وكل ما كان يفعله هو إعلان السيادة الإسلامية في أي إقليم يفتحه، مع ترك الحرية للناس في الاعتقاد، والتدين.

إن أبناء البلاد المفتوحة كانوا يدخلون في الإسلام بعد أن رأوه ســـلوكاً عملياً في

حياة الفاتحين، وبعدما رأوا قائد المسلمين واحداً منهم، ولاحظوا حب المسلمين للخير، وبعدهم عن الدنايا، واستسلامهم جميعاً لله رب العالمين.

وما حدث من تقاتل في بعض الأحيان كان بسبب محاولة الطغاة المتحكمين صد المسلمين عن الاتصال بالناس، ومنعهم من توصيل الدعوة إلى المدعوين، ومنعهم الناس أن يكونوا أحراراً في الاختيار، والاعتقاد.

إن المسلمين الفاتحين لم يكرهوا أحداً على الإسلام، ولم يسلبوا مالاً، ولم يهدموا بيعة أو كنيسة، وإنما عرفوا الناس بما في الإسلام من خير، وتركوهم لعقلهم، وحريتهم وأمنوهم على أنفسهم، وأعمالهم، وعبادتهم، وهذا هو عمر بن الخطاب ﷺ حين فتح بين المقدس أعطى أماناً لأهل الكتاب، لأنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصلبانهم، سقيمها وبريئها، وسائر ملتها، وأنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا يكرهون على ترك دينهم ولا يضار أحد منهم[1] .... ولكن الناس دخلوا في دين الله بعدما رأوه تطبيقاً عملياً في واقع الحياة.

كما أن التطبيق الصحيح والشامل للنظام الإسلامي ييسر تربية المجتمع وتنشئته إسلامياً لأن كل القنوات نسير في اتجاه واحد، وتعمل لغاية واحدة في إطار مشروعية واحدة .... وبذلك ينشأ المسلم بعيداً عن التناقضات والتوجيهات الضارة قوياً في نفسه، عزيزاً في حياته، إيجابيا مع زملائه ومجتمعه .

٦) تحقيق العزة الإسلامية :

يحقق النظام السياسي لمجتمع المسلمين قوة تحميه من أعدائه وتحقق له العزة والكرامة، وتربطه بسائر المجتمعات التي تدين بغير الإسلام حين يتعامل معها في إطار مصالحه وأمانيه، وأهدافه، ذلك إن الدولة الإسلامية تتعامل مع الآخرين بخلق حسن، وتقدم لهم ما عندها في ثوب جميل، مع توضيح تام بمنهجها الحر وطريقها المستقيم، إنها دولة لا تظلم، ولا ترضى بظلم غيرها لها، وهي للناس دولة تعمل وتجتهد في إخراجهم من عبادة المادة والناس، إلى عبادة خالق الكون ورب العالمين ... ولذلك فهي دولة يقظة

---

(١) تاريخ الطبري جـ١ صـ٤٠٥ .

عاملة، تقيم حضارة، وتعد أبناءها لخدمة دينهم وتكوين أمة الإسلام التي تعرف ما لها وما عليها، وتعمل بقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[١].

إن الإسلام يقرر ابتداء كرامة الناس وتساويهم يقول النبي ﷺ **"كلكم لآدم"**[٢] ويقدر لكل فرد الفكر والعقل حيث يقول الله تعالى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٣] ويقول سبحانه﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾[٤].

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٢)اقتضاء الصراط المستقيم صـ ١٤٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

(٤) سورة الكهف الآية ٢٩ .

المبحث الثالث

مقومات النظام السياسي في الإسلامي

يحتاج النظام إلى مقومات يقوم عليها وأسس ينطلق منها، وذلك هو الشأن في الحياة كلها لأن لكل أمر دعائمه وأسسه التي يعتمد عليها، وبقدر ما في الدعائم من قوة وخصوصية يكون الأمر وحاله، ولا يمكن تصور دوام أمر ذى شأن بلا أسس ودعائم وإن لا انهار وانتهى .

والنظام أياً كان توجهه يتحدد مساره بدعائمه لأنه يصطبغ بهذه الدعائم ويدور في فلكها واتجاهاتها... فالنظام الديموقراطي — مثلاً — يقوم على فكرة الحرية ولذلك نجد هذا المبدأ يبدو في كل عناصر النظام الرأسمالي، والشيوعية نظام يقوم على إلغاء الملكية، وشيوعية المال والمرأة وذلك ظاهر في سائر جوانب النظام الشيوعي ... وهكذا ...

والإسلام دين وضع الله لنظمه مقومات يقوم عليها ويتميز بها، ويبرزها في خصوصية فريدة، بسبب انفراد الإسلام بالمقومات والدعائم التي أنزلها الله لعباده وحياً من عنده سبحانه وتعالى .

وحين نتأمل في مقومات النظام السياسي الإسلامي نرى أنها قيم كلية **يرتبط جانب** منها بالعقيدة التي تتصل بالقلب، وتنبع منه، وتحدد للمسلم مناط الأخذ والتلقي، ومرجعية الحكم والقصد، وهذا الجانب إيماني خالص يحتاج إلى التصديق الجازم واليقين التام، وهو الجانب الهام في الحياة الإسلامية لضرورته للجانب الآخر الذي يظهر في الحياة العملية للناس.

والجانب الآخر مرتبط بالعمل والتطبيق وهو متصل بالنواحي الاجتماعية والإنسانية وعلى ذلك سأتناول هذين الجانبين بالدراسة في هذا المبحث وهما:

أولاً : المقومات العقدية للنظام السياسي في الإسلام.

ثانياً: المقومات العملية للنظام السياسي الإسلامي.

وهذا ما سوف أتناوله فيما يلي بإذن الله تعالى.

- الأمر الأول -

المقومات العقدية للنظام السياسي

حين نبحث في المقومات العقدية والدينية للنظام السياسي الإسلامي نرى هذه المقومات بارزة في عدة أمور ... ومن أهمها :

الأمر الأول : ملازمة عقيدة التوحيد :

يرتبط النظام السياسي في الإسلام بتوحيد الله تعالى ارتباطاً لا فكاك منه، حيث به يتأكد صدق الإنسان، وتتحقق لوازم التوحيد في العمل العام، وتظهر ألوهية الله في كل نشاط.

والتوحيد هو الإقرار بوحدانية الله تعالى، وخلوص العبادة له، لأنه سبحانه المستحق لها دون سواه .

إن الإيمان بالله يقتضي تصديقاً بالقلب، وإقراراً باللسان، وعملاً بالجوارح، الأمر الذي يجعله شاملاً لسائر الأصول، ولجميع الفروع في الحياة الدنيوية والأخروية .

ومن هنا ارتبط سائر العمل بالإيمان، وارتبط النظام السياسي بالعقيدة بحيث لا يكون الإيمان كاملاً بين الناس إلا بقيام حكم الله فيهم، وقد نزل القرآن الكريم من أجل هذا الحكم، يقول الله تعالى ﴿ **وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [1] .

فالإيمان يقتضى الحكم بكتاب الله، والرضى بكل ما أوحى به، أما الحكم بغير ما أنزل الله فهو هوى وفتنة وفسق، وضلال مبين، وفى الآيات إشارات إلى أن حكم الله في الناس تعارضه الأهواء الضالة، والفتن العابثة، والذنوب الآثمة، والجاهلية الفاسقة، وكلها تعمل على إزاحة حكم الله في الناس وترك الجاهلية تعبث وتسود.

---

(١) سورة المائدة الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

وإيمان الناس لا يتحقق إلا بالرضا التام بحكم الله تعالى، الخالي من الضيق والحرج مع التيقن بأن الحق والخير في حكم الله مهما كان أثره على المؤمن يقول الله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[١].

إن الإيمان الحقيقي يوجد في الناس روحاً سياسية عامة تؤدي إلى تماسك الأمة وتحافظ على وحدة الفكر، وتحقق تعاونا بين الراعي والرعية في تطبيق شرع الله تعالى، الأمر الذي يؤدي إلى توازن دستوري بين الجميع.

كما يؤدي الاعتقاد الصادق، إلى قيام عدل شامل مستمد من الإيمان بالله الواحد، بحيث يصير شرع الله هو معيار الحكم والعمل، وهذا يحقق أساس المشروعية السياسية في جماعة المسلمين لأنهم جميعاً ينشدون الصحة، ويتمنون العدل، ويعملون بأمر الله تعالى.

والإيمان بالله تعالى، والالتزام بشرعه يؤدي إلى الإخلاص في العمل والصدق في خدمة الصالح العام، وهذا ينتج بدوره قوة الجماعة.

إن تماسك الأمة، وقيام نظامها على العدل، والإخلاص يساعد في إيجاد قوة نفسية وضمائر حية تعمل لخير الأمة، وسيادتها.

وبذلك توجد الامة الواحدة، المتماسكة، ويوجد معها راعيها الذي يحكمها، ويرعاها ... وحينئذ يخلص الجميع لدين الله تعالى.

الأمر الثاني : الحكم كله لله :

الحاكم في الحقيقة هو الله تعالى، والخليفة نائب عنه في التنظيم والحركة، والدولة المسلمة تلتزم بشرع الله، ولا تحيد عنه أبداً يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾[٢].

---

(١) سورة النساء الآية ٦٥ .

(٢) سورة النساء الآية ١٠٥ .

ويقول سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[1] .

جاء في ظلال القرآن : في هذه الآية يبين الله شرط الإيمان، وقاعدة النظام السياسي، وهي أن مصدر السلطات هو الله، وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده، والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نص من جزئيات الحياة مما تختلف فيه العقول والأفهام، إن الحكم لله وحده في جميع حياة البشر ما جل منها وما دق، وطاعة الله لازمة، وشريعته واجبة التطبيق، والإيمان يتعلق بالطاعة ويلازمها وجوداً وعدماً كما يظهر ذلك من الشرط في ختام الآية وهو قوله تعالى ﴿ **إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ** ﴾[2] .

إن الله تعالى هو المشرع، وهو الحاكم، يقول تعالى ﴿ **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ** ﴾[3].

ويقول تعالى ﴿ **فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ** ﴾[4].

ويقول الله تعالى ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٖ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ** ﴾[5] .

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .
(٢) في ظلال القرآن جـ٢ صـ٤١٦
(٣) سورة الأنعام الآية ٥٧ .
(٤) سورة الشورى الآية ١٥ .
(٥) يونس الآية ٥٩ .

ويقول تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾(١).

ويقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢).

وهذه الآيات قاطعة الدلالة في أن الحكم لله فهو سبحانه الحاكم، وهو المشرع، وليس من حق إنسان أبداً أن يجعل من نفسه إلهاً للناس يحلل ويحرم من عند نفسه، والآيات توجيه للرسول خاصة وهي لأمته عامة، فإذا كان أمر المؤمنين شورى، وإنه لكذلك، فإن هذه الشورى تدور في حدود هذا الإطار، وإذا وجد حكم لله، أو لرسوله فلا يسوغ لأحد أن يحيد عنه، أو يجتهد معه إلا في فهم معناه، وما هو في دائرته ونطاقه.

يقول ابن القيم: إن الله قسم الأمر في قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ ﴾(٣) إلى أمرين لا ثالث لهما، إما الاستجابة لله وللرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى وقد قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾(٤) فأمر بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً ... ولم يأمر بإطاعة أولي الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول، إيذاناً بأنهم يطاعون تبعاً لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول، فلا سمع له ولا طاعة(٥).

---

(١) سورة النحل الآية ١١٦ .

(٢) المائدة الآية ٨٧ .

(٣) سورة القصص الآية ٥٠ .

(٤) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٥) إعلام الموقعين جـ١ صـ٥٣ ، ٥٤ .

وإذاً فالله تعالى هو المشرع ابتداء وانتهاء، وهو سبحانه لم يكل أمر التشريع إلى غيره سبحانه وتعالى، وإنما كلف الأمة أن تعمل بما شرعه لها، مجتهدة في فهمه وتطبيق نصوصه وقواعده، فإن جد لها ما لم تجده في كتاب الله ولا في سنة رسوله، وجب عليها أن تطبق ما تقضي به المصلحة والرأي على ضوء نصوص الوحي واجتهاد العلماء الصادقين .

وتولية الحاكم المسلم مع هذه الحقيقة واجب للقيام بتنظيم شئون الناس، ومشاورة أهل الحل والعقد، لمعاونته في تطبيق حكم الله المأخوذ من مصادره الشرعية فدوره فهم النص، وفهم الواقع الاجتماعي، وأخذ الناس بحكم الله المستفاد من النص.

وقد أجمع علماء المسلمين على وجوب تولية حاكم في الناس، ليحقق حاكمية الله، وسيادته على سائر الناس.

الأمر الثالث : مصادر النظام إسلامية خالصة :

مرجعية النظام السياسي في الإسلام ثابتة وهي منحصرة فيما نزل الوحي به، والمسلم مكلف بالأخذ منها وحدها، يقول الله تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[١] .

ويقول تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[٢]

وهاتان الآيتان تؤكدان ضرورة الأخذ من الله ورسوله، وطاعتهما فيما يأمران به، أو ينهيان عنه والصلة بين القرآن الكريم والسنة النبوية وثيقة[٣].

---

(١) سورة الحشر الآية ٧ .

(٢) سورة النساء الآية ٦٤ .

(٣) **السنة النبوية تبين القرآن الكريم من عدة أوجه:**

أ) تأكيد المعنى كقوله ﷺ (**استوصوا بالنساء خيرا**) فإنه يؤكد قوله تعالى ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾.

إن الأخذ من الله يكون بالأخذ من القرآن الكريم، والأخذ من الرسول ﷺ يكون بالأخذ من السنة النبوية وهى مبينة للقرآن الكريم ويتناول هذا التوجيه الأفراد، والجماعات، وأولى الأمر، وسائر الهيئات والمؤسسات الإسلامية، وفى القرآن الكريم، والسنة النبوية تشريعات محددة، وفيهما مبادئ وخطوط عامة، وبذلك يمكن وجـــود حكم شرعي لكل مسألة ويمكن حل النزاع إذا ظهر مع أي مشكلة وفق شرع الله تعالى.

إن التشريعات المحددة تجد حكمها في موضوعها واضحاً، مفصلاً... أما الوقائع الجديدة والصور الحادثة فإنها تحتاج إلى اجتهاد العلماء لإيجاد حكم لما يجد من أمور، مثل اختيار شكل الدولة، وتحديد طرق المشاورة، والتعريف بأهل الحل والعقد ... إلخ.

وقد وضح علماء الإسلام أن الحكم الذي لا نص فيه من قرآن، أو سنة يسار فيه تبعاً لإجماع[1] علماء الإسلام، وما لم يكن فيه إجماع يسار فيه إلى الرأي [2] الشامل

ب) تفسير المجمل، فقد قال الله تعالى ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَلاَة** ﴾ وتفسر السنة كل ما يتعلق بالصلاة من قراءة وقيـــام **وركوع، وسجود** ... إلخ .

ج) توضيح المشكل فقد قال الله تعالى ﴿ **وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ** ﴾ وتأتي السنة فتوضح أن المراد بالخيطين سواد الليل وبياض النهار.

د) تخصيص العام، ففي القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ وتخصص السنة الظلم بالشرك لقوله تعالى ﴿ **إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ .

هـــ) تقييد المطلق، يقول تعالى ﴿ **وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا** ﴾ وتأتي السنة وتبين أن المراد **باليد اليـــد اليمنى إذا سرق صاحبها أول مرة.**

ز) نسخ أحكام قرآنية، فقد قضى القرآن الكريم بمشروعية الوصية مطلقاً، وأتت السنة ومنعت أن تكون الوصية لوارث حيث يقول ﷺ **(لا وصية لوارث)**

ح) الإتيان بحكم لم يأت القرآن به أصلاً مثل تشريع **زكاة الفطر، والمسح على الخفين** ... إلخ.

(١) الإجماع: هو اتفاق جميع مجتهدي الأمة الإسلامية في أي عصر من العصور بعد وفاة رسول الله ﷺ على حكم شرعي، وحجية الإجماع تأتي من قوله تعالى ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ ومن قوله ﷺ **(لا تجتمع أمتي على ضلالة)** ، **(ما رآه المسلون حسناً فهو عند الله حسن)**.

(٢) يرى ابن القيم أن الرأى هو **(ما يراه القلب، والعقل بعد فكر، وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب فيما يتعارض من الأدلة) ويعرف القياس بأنه (إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على**

للقياس، والاستحسان والمصالح المرسلة، واستصحاب الأصل وسد الذرائع، وشرع من قبلنا ... إلخ.

إن المبادئ العامة في آيات القرآن أو في السنة النبوية أكثر من آيات الأحكام التفصيلية فيهما وفي ذلك حكمة بالغة تؤكد صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وتيسر الطريق للعموم والكمال حيث تقوم المبادئ الكلية بتمكين العلماء من استخراج الحكم الشرعي لسائر الجزئيات .

وقدسية مصادر النظام الإسلامي، تعطي النظام قيمة وتقديراً لأن ما يأتي من عند الله مبرأ من الجهل، مبرأ من النقص، مبرأ من الهوى، وواجب على المسلم أن يتلقاه بثقة، ويستعلي به على كل مناهج الأرض.

الأمر الرابع : توجيه الجميع لله :

النظام السياسي الإسلامي يعمل على إيجاد العبد الصالح، والمجتمع الصالح، والأمة الصالحة، وحينئذ تكون الغاية هي إرضاء الله تعالى، والظفر والسعادة وحصول الطمأنينة والهدى، فإن في القلب تشتت لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه، وفيه نبرات حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه، وقضائه وقدره، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه ، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له ولو أعطى الدنيا وما فيها لا تسد تلك الفاقة أبداً، يقول الشيخ يوسف القرضاوي: لقد اختصر الإسلام غايات الإنسان في غاية واحدة هي إرضاء الله تعالى، وركز همومه في هم

حكمه لاشتراكهما في علة الحكم) كتحريم أى مسكر قياساً على تحريم الخمر، ويعرف الاستحسان بأنه (**العدول عن الحكم في مسألة حكم به في نظائرها لوجه أقوى يقتضي هذا العدول**) ولابد في الاستحسان من قياس خفي، يعتمد عليه المستحسن مثاله إذا قال قائل: مالي صدقة فالقياس لزوم التصدق بكل ما يملك لكن أبا حنيفة استحسن **تخصيص المال بمال الزكاة** فهما من قوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ **فالاستحسان قياس خفي**) وتعرف المصالح المرسلة بأنها (**المصالح الملائمة لمقصود الشارع، ولا يشهد لها أصل خاص بالاعتبار أو الإلغاء**) **ولا يصار إلى غير ذلك من الأدلة إلا باجتهاد العلماء وعند الحاجة .**

واحد هو العمل على ما يرضيه سبحانه وتعالى، ولا يريح النفس الإنسانية شيء كما يريحها وحدة غايتها ووجهتها في الحياة فتعرف من أين تبدأ؟ وإلى أين تسير ؟ ولا يشقى الإنسان شيء مثل تناقض غاياته طوراً يتجه إلى اليمين، وطوراً يتجه إلى اليسار، ومرة يرضي زيداً فيغضب عمرو، ومرة أخرى يرضى عمروا فيغضب زيد ، وهو في كل الأحوال حائر بين هذا وذاك)[١] .

وعلى هذا يتجه الجميع بنظام الإسلام إلى الله، وتنتظم حركة الحياة بشرع الله، ويصير النظام الإسلامي كحقيقته عاملاً رئيسياً في توجيه الناس لله رب العالمين .

(١) الخصائص العامة للإسلام صـ١٥ .

- الأمر الثاني -

المقومات العملية للنظام السياسي

يراد بالمقومات العملية، المبادئ العامة الأساسية التي يحتاج إليها كل إنسان، ويكون لها مدخل رئيسي في حياة وكرامة كل فرد، مهما كان دينه، أو عمله، أو وضعه الاجتماعي، ولا يمكن إهمالها، أو التعدي عليها في أي نظام سياسي صالح، ومثال ذلك تحقيق كرامة الإنسان، فهو مبدأ أساسي في الشريعة الإسلامية، وهو قيمة دستورية في نفس الوقت، يجب أن تتحقق في مجال الواقع والنشاط العملي، وأي تعد عليها ظلم لا ترضاه شريعة، ولا يسكت عنه حكم عادل، ولا ترتضيه حكومة مستقيمة .

وهذه المقومات تعد في دين الله حقاً مقرراً لكل إنسان، حاكماً أو محكوماً، وعلى العلماء، وأهل الحل والعقد، والأمراء أن يضعوا التفاصيل الجزئية، التي تحول القيمة الكلية إلى منهج تطبيقي، يستفيد منه الجميع، ومن هنا كان ثبات القيمة الكلية وإن اختلفت تطبيقاتها أمراً مقرراً بالشرع والعقل.

إن القيمة الكلية الإسلامية تستمد قوتها التشريعية (القانونية) من المصادر الإسلامية، ومن ثم فكل ما ورد في الإسلام من قيم كلية ثابت المشروعية، وأمر الله به يجعله واجباً ملزماً للراعي، والرعية .

والعلماء المسلمون المعاصرون يختلفون في تعداد هذه القيم الدستورية حيث يقصرها بعضهم على الشورى، والمساواة، والعدل، والحرية، متأثراً بعلماء السياسة الغربيين الذين يرون هذه القيم هي الدستورية وبعضهم يزيد على ذلك، وبعضهم يكثر في الزيادة .

وإني أرى قيمة أساسية كبرى أبدأ بها، وهي صيانة الضرورات التي لابد منها للإنسان، والتي أطلق عليها علماء أصول الفقه الضرورات الشرعية، يقول الشاطبي (ومجموع الضرورات خمسة وهي حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وهذه الضرورات إن فقدت كلها أو بعضها، لم تجر مصالح الناس على استقامة، بل على فساد، وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة، والنعيم، والرجوع بالخسران المبين) [1].

---

(١) الموافقات جـ٢ صـ٨ ، ١٠ .

وتعد المحافظة على هذه الضرورات عملاً أساسياً في النظام السياسي، ولا عبرة لنظام يضيع هذه الضرورات ويعجز عن حمايتها بصورة كلية أو جزئية .

وقد لاحظت أن العلماء لم يتكلموا عن هذه الضرورات باعتبارها قيمة شرعية دستورية مع أن كافة الخصائص التي تتميز بها القيمة الدستورية موجودة فيها.

فهي – أولاً – ضرورية للإنسان بصورة عامة لا يمكن الاستغناء عنها.

وهي – ثانياً – ترتبط ارتباطاً وثيقاً بكرامة الإنسان، وتحقيق إنسانيته، ولا يصح إهمالها، أو التعدي عليها.

وهي – ثالثاً – واجبة التحقيق في شرع الله تعالى لأنها أساس حراسة الدين وحماية الدنيا التي يقوم عليها الحكم الإسلامي .

وهي – رابعاً – تحتاج إلى اجتهاد العلماء لأخذ أحكام جزئياتها من القواعد العامة.

وهي – خامساً – أساسية للنظام السياسي، وعدم تحققها يسيء للنظام ويظهر عدم صلاحية النظام للقيادة والتوجيه .

وهي – سادساً – مقررة بحكم الشرع والعقل لارتباطها بالفطرة ولا يمكن لإنسان أن يعيش إذا انعدمت بصورة كلية أو جزئية.

ولا يمكن القول أن جزئيات الضرورات الشرعية تأتي ضمن تفصيلات النظام المالي، والإداري وغيرها فلا داعي لذكرها مستقلة هنا، لأن كل القيم كذلك، فالعدل له صلة بالنظام القضائي والمساواة لها صلة بالنظام الإداري، والشورى لها صلة بالنظام الاجتماعي، ومع ذلك درست هذه القيم مستقلة.

لهذا آثرت أن أبدأ بدراسة هذه القيمة بصورة عامة، تاركاً الجزئيات لموضعها في الدراسة الفقهية.

وبعد ذكر هذه القيمة أورد ما أورده العلماء، مكتفياً بالقيم الأساسية وذلك فيما يلي:–

القيمة الأولى

صيانة الضرورات الخمس

قامت الشريعة الإسلامية على صيانة حاجات الإنسان الضرورية، روحاً وجسداً، ولذلك حافظت على ما عرف بالضرورات الخمس، فلصيانة الروح عملت على حفظ العقل والدين، ولصيانة الجسد عملت على حفظ النفس، والمال، والعرض، وكل هذه ضرورات لابد منها **لأن فقدان العقل** يلحق الإنسان بالحيوان ويجعله لا يفهم ولا يعي، **وفقدان الدين** يجعل الإنسان شخصاً مادياً لا هدف له سوى إشباع الشهوات والجري وراء الغرائز، **وفقدان النفس** يذهب الحياة كلها، **وفقدان المال** يؤدي إلى الذل والضياع، **وفقدان العرض** يزيل الشرف والفضيلة ويحول الحياة إلى أنشطة حيوانية طاغية، ولذلك كانت هذه ضرورات لابد من صيانتها.

فالدين : فطرة في النفس يحتاج إلى الصيانة والحفظ، وحفظه يكون بتعريف الناس به ودعوتهم إليه، وحثهم على الالتزام بتعاليمه، وحمايته من المعاندين والمعارضين، وتنقيته من الغلو والانحراف ليبقى في الناس بصفائه ووضوحه.

وصيانة الدين للإنسان المسلم يقتضى عدم العدوان على أي دين غير الإسلام، حيث لا عدوان على دين غير المسلمين لأن المعاملة بالمثل شرع ودين، ولأن القاعدة الشرعية ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[1] والدعوة أساسها البيان والتذكير بقول الله تعالى ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾[2] فكفالة حرية الإنسان في تدينه ثابت شرعاً، وصيانة الدين بعد تحققه ضرورة واجبة.

والعقل: من أعظم النعم الإلهية التي أنعم الله بها على الإنسان، فهو الذي يميزه عن سائر المخلوقات، ويضعه في مقام الرياسة والقيادة، يقول الحسن البصري (**ينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله للدين أصلاً، وللدنيا عماداً**) [3] ، وقد نزل القرآن

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

(٢) الغاشية الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

(٣) أدب الدنيا والدين صـ٣ .

الكريم بلغة عربية ليلائم عقول من يسمعونه، وأعطى الله تعالى للعقل حق النظر، والتدبر في كافة الشئون، يعلمها ويصل بها إلى الصواب وقد جاءت الشريعة الإسلامية بما يصون العقل ويحفظه وذلك بإحاطته بالحرية والتقدير ومخاطبته بالحسنى، والرفق في مجادلته، وتحريم كل ما يضره، ومن ذلك تحريم شرب الخمر، وتحريم اللهو واللعب لأنهما يأخذان العقل إلى غير طريقه، ويشغلانه بما لا يفيد.

ومما شرعه الإسلام صيانة للعقل تحريم كافة المثيرات الشهوية كالاختلاط، ورؤية الصور العارية، والأفلام الهابطة، ونشر القصص الخليعة، لأن هذه وأمثالها تشغل العقل بأمور تافهة، وتنسيه مهامه في الفهم والتدبير، والتوجيه لما يسعد صاحبه في الدنيا والآخرة.

والنفس: هي حياة الجسد الإنساني مع روحه السارية فيه، والحياة منحة إلهية يهبها الله لعباده، ليعيشوا بها في الدنيا، ويتمتعوا بزينتها وخيراتها.

وقد جاءت الشريعة الإسلامية بما يصون حياة الإنسان، ويحفظها من أي عدوان، بدءاً بالوقاية، حيث للنظافة والتطهير مجال كريم في أحكام الشريعة.

ومن وقاية النفس تحريم أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والمنخنقة، والموقوذة والمتردية، والنطيحة، وما أهل لغير الله به، وما أكل السبع إلا ما ذكيتم يقول الله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

يقول الرازي: تحريم هذه الأشياء موافق لما في العقول، لأن الدم جوهر لطيف جداً، فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدم في العروق، وتعفن، وفسد وحصل من أكله

---

(١) سورة المائدة الآية ٣ .

ضرر عظيم، والخترير مطبوع على حرص عظيم، ورغبة شديدة في المشتهيات، فحرم الله أكله على الإنسان لئلا يتكيف بتلك الكيفية، والمنخنقة والمتردية، والنطيحة كالميتة لأنها تموت حتف أنفها وكل ما لم يزك عند الذبح لا بركة فيه[١] .

ومن الوقاية للنفس اعتزال النساء في المحيض، وتجنب التبول في الماء الراكد، وتجنب الأرض الموبوءة .

وكما أمر الإسلام بالأعمال الوقائية لضمان صحة النفس أمر بحماية النفس من العدوان فشرع الحدود، والقصاص، وأحاطها بالتشريعات الوسطية التي تبعدها عن المغالاة، والتطرف.

فإذا ما وقع المرض وجب على الإنسان مداواة الداء لقوله ﷺ (**ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء**)[٢] وبذلك يصون الإسلام النفس بالوقاية والحماية والعلاج .

والولد زينة الحياة الدنيا، وهو أمانة عند والديه، عليهما أن يحافظا عليه بصورة متكاملة.

وحفظ الولد يبدأ عند تفكير الوالد في الزواج، لأن عليه أن يختار الزوجة صالحة، عاقلة، ذات دين، وخلق يقول ﷺ لجابر بن عبد الله ؓ (**عليك بالكيس الكيس**)[٣] والكيس الولد، والمراد تهيئة الجو الصالح لوجوده .

ويقول ﷺ (**تنكح المرأة لأربع : لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها فاظفر بذات الدين ترتب يداك**)[٤] .

ومن المحافظة على الولد اختيار اسم حسن له، والعق عنه، وتنظيم رضاعته وحضانته، وتنشئته، وتربيته،و تعليمه، وعلى الوالدين أن يعلما الولد مبادئ وسبل التعامل مع الناس وفق تعاليم الإسلام، ليتمكن من معايشة المجتمع الذي يعيش فيه، ويصير عضواً صالحاً بين الناس.

---

(١) تفسير الرازي جـ٦ صـ٣٢٥ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الطب باب ١ جـ٩ صـ١١٩ ط الأوقاف .

(٣) صحيح البخاري – كتاب النكاح – باب طلب الولد جـ٩ صـ٣٤١ .

(٤)صحيح البخاري – كتاب النكاح – باب الأكفاء في الدين جـ٩ صـ١٣٢.

والمال : عصب الحياة، وسر التقدم، وهو من أعظم نعم الله على عباده، وحفظ المال، وصيانته للناس من القضايا الهامة في شرع الله تعالى.

فقد أباح الله كل سبب مشروع يؤدي إلى التملك، من عمل و هبة وإرث كما نظم الإسلام حقوق التملك، وربطها بما يفيد ولا يضر، ولذلك كانت القيود حول التصرف في إطار الحرية المالية.

وشرع الإسلام للمال وظائفه الاجتماعية، كالزكاة والصدقة والكفارات والمساهمة في المشروعات النافعة.

وأقر الإسلام الملكية الخاصة بجانب الملكية العامة، وشرع لكل ما يناسبه.

إن النظام السياسي العادل يضمن للمواطن الحاجات الضرورية، المذكورة بمنهج الإسلام، بحيث لا يعدم إنسان شيئاً من هذه الضرورات، وبيت المال مسئول عن ذلك

والإسلام يتعامل مع هذه القيمة بطريقة تختلف عن سائر النظم الوضعية .. فليس هو كالنظام الرأسمالي الذي يكرس المال في يد فئة معينة، ويحرم الآخرين، وينشر البطالة والعوز بين الضعفاء، ويترك الحرية للإحتكار والاستغلال.

وليس هو كالنظام الاشتراكي الذي يحرم الملكية الفردية، ويستولى على المال، ويحول الناس، إلى جيش من الفقراء والمحتاجين، ويحرم العامل من نتاج عمله وعلمه.

وليس هو كأي نظام ديكتاتوري بعيد عن شرع الله، لأنه لا يعمل على إذلال الناس، ولا يجعل حصولهم على المال شرطاً لخضوعهم، وسكوتهم، ولا يعاقب من يخالفه بمصادرة ماله وشل نشاطه.

إن النظام الإسلامي محكوم بشرع الله، والكل فيه يقوم بواجبه، وينال حقه، ولذلك نراه يتميز بما يتميز به الإسلام دين الله تعالى .

القيمة الثانية

الشورى

الشورى هي أخذ رأي الآخر في أمر من الأمور، يقال: شاورته واستشرته أي طلبت رأيه في أمر ما، والشورى بالمفهوم اللغوي تشمل كل تشاور بين الأفراد والجماعات في أي مسألة وفى أي موضوع ... إلا إنها في اصطلاح علماء الفقه والسياسة تعني أخذ **رأي الرعية في قضايا الحكم والسياسة في إطار شرع الله تعالى وفق خطة مقصودة .**

والشورى قيمة من قيم الإسلام السياسية، يقوم عليها نظام الحكم، وبها تساهم الأمة في إقامة الخلافة الإسلامية.

وقد أرسى الإسلام هذه القيمة بشرع الله، وعاشها المسلمون بصورة تلقائية بعد إسلامهم بعدما رأوها مطبقة في حياة المسلمين ونشاطهم مع رسول الله ﷺ وأصحابه.

لقد حدد الإسلام معالم الشورى وأمر بها، وميز بها أتباعه، و لم يأخذها المسلمون من غيرهم، و لم يطالب بها أحد، و لم يشك أحد من عدم وجودها، وإنما جاءت جزءاً من الدين الذي أرسى للناس قواعد الحق والعدل، ولذلك تمتع المسلمون بالشورى بعد دخولهم في دين الله تعالى[١].

و لم يعرف العرب قبل الإسلام شيئاً عن الشورى، وكل ما عرفوه هو إقامة "قصي " لدار الندوة مشترطاً على من ينال عضويتها أن يكون قرشياً، بلغ أربعين سنة واشتهر بسداد الرأي بين الناس، وعد من سادة القوم، وكانت تعقد المناقشات فيها لأخذ الرأي في بعض الأمور وبخاصة ما يتصل بمسئوليات الكعبة، وتقسيم المهام بين القبائل، وهي بعيدة كل البعد عن الشورى التي جاء بها الإسلام .

---

(١) لم يصل العالم المعاصر إلى الديموقراطيات التي يباهي بها الآن إلا بعد صراع دام استغرق عدة قرون، امتلأت بالعنف والدم، ففي القرن السابع عشر الميلادي جاء المفكرون السياسيون أمثال فولتير، منتسيكو كما أخذوا ينادون بحق الشعوب في الديموقراطية فنالهم ما نالهم ... ولما قامت الثورة الفرنسية ذاع قتل العلماء، وسالت الدماء، وانتشر الذعر والإرهاب واستمر الأمر هكذا إلى أن هدأت الأمور أخيراً واستقرت الديموقراطية .

وقد تصور البعض أن دار الندوة هي صورة من الشورى الإسلامية إلا أننا لا نعتبرها كذلك لعدة أسباب:

أ- أعضاء دار الندوة هم سادة قريش وحدهم دون غيرهم مهما كان فهمهم وإدراكهم، بينما الشورى شاملة لأفراد الأمة كلها.

ب- قرارات دار الندوة ليست ملزمة، وليس معها حكومة تشرف على تنفيذها بينما قرارات الشورى تلتزم بها الخلافة الإسلامية على رأي الجمهور .

ج- دار الندوة كانت خاصة بقريش وحدها، أما بقية الناس المقيمين بمكة فلا صلة لهم بها، بينما الشورى تكون عامة للأمة الإسلامية كلها بلا تمييز لقبيلة، أو تفرد لفريق .

د- اختصت دار الندوة بتوزيع مهام البيت ورعاية شئون مكة بين القبائل منعاً للتنازع، أما الشئون الأخرى فلكل قبيلة أن تسير فيها كما تشاء، بينما الشورى شاملة لكل الأمور والشئون.

إن قيمة الشورى في الإسلام تبدو من ظهورها مع الإسلام، ومجيئها من منابعه لأنها جاءت نتيجة تشريع إلهي لإنشاء المجتمع الصالح المستقر المتين.

والحديث عن الشورى يتضمن الحديث في المسائل التالية:

■ ١ ■

حجية الشورى

ثبتت حجية الشورى بالقرآن الكريم، والسنة النبوية، وعمل الخلفاء الراشدين.

أما **القرآن الكريم** فقد قال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1] وهذه الآية نزلت في مكة تصف جماعة من المسلمين، قبل أن تقوم لهم دولة، وهي تشير إلى أنهم كانوا يتشاورون في كل أمورهم، وهذا يؤكد اهتمام الإسلام بالشورى، وأن الله تعالى يحث على التمسك بها وإلا لما مدحهم بها.

---

(١) سورة الشورى الآية ٣٨ .

وبعض المفسرين يورد الآية بياناً لبعض المواقف التي نزلت بسببها، والأولى شمولها لكل المواقف، ولكل الأمور، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، يقول سيد قطب **(والتعبير يجعل أمر المسلمين كله شورى ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة، وكان هذا قبل قيام الدولة الإسلامية ليؤكد أن هذا هو طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها)**[١]

ويقول تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٢] وقد نزلت هذه الآية عقب غزوة أحد التي شاور الرسول ﷺ أصحابه قبلها، فأشار أكثرهم عليه بالخروج، فخرج نزولاً على رأيهم مع أن رأيه ﷺ كان في البداية أن يبقى بالمدينة، فلما حدثت الهزيمة نزلت الآية مبينة أن رأي الرسول ﷺ كان هو الأصح، ومع ذلك فقد أمر الله الرسول ﷺ بأن يستغفر لأصحابه، ويشاورهم في كل أمر يحتاج للمشاورة ويستمر على هذا الأمر، لأن ذلك هو المنهج الذي يجب أن يسود حياة المسلمين.

وهكذا كانت المشاورة قبل أحد درساً لقنه الرسول لأصحابه حتى حفظ عنه ﷺ أنه كان يردد في أكثر المناسبات قوله المشهور (**أشيروا على أيها الناس**) .

والآية واضحة الدلالة في أن الشورى مبدأ أساسي من مبادئ النظام الإسلامي .

وأما السنة النبوية : فإن رسول الله ﷺ قد باشرها عملياً في كل الأمور حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه (**ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ**)[٣] وقد اتخذت مشاورة الرسول لأصحابه ثلاث صور :

أولاها: طلبه ﷺ المشورة من أصحابه ابتداء، كما حدث يوم أحد فقد قال ﷺ لأصحابه : **أشيروا على ما أصنع**[٤] .

---

(١) في ظلال القرآن جـ٢٥ صـ٤٧ – دار العربية– صـ٤ بيروت .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

(٣) سنن الترمذي – باب ما جاء في المشاورة جـ٥ صـ٤٥ .

(٤) السيرة النبوية جـ١٢ صـ٦١٩ .

ثانيها : عرض الصحابة رأيهم على رسول الله ﷺ بدون طلب منه، كما فعل الحباب بن المنذر ﷺ يوم بدر لأنه لما رأى رسول الله ﷺ نزل عند أدنى ماء من بدر، قال له: **يا رسول الله أرأيت هذا المترل؟ أمترل أنزلكه الله، أم هو الرأي، والحرب، والمكيدة ؟**

فقال ﷺ : **بل هو الرأي، والحرب، والمكيدة.**

فقال الحباب: **ليس هذا بمترل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فنترله، ثم نغور ما سواه من القلب** (الآبار) .

فقال ﷺ : قد أشرت بالرأي فنهض، ومن معه من الناس فسار حتى وصل أدنى ماء من القوم فترل فيه[1] .

ثالثها: صورة بين الأولى والثانية حيث كان يعزم الرسول ﷺ على أمر من الأمور، ويبدأ المفاوضة، وقبل التوقيع يشير، ويشار عليه، لينفذ بعد المشاورة ما ينتهي إليه الأمر، كما حدث يوم الخندق، يروي الطبري أنه (**لما اشتد البلاء على الناس، بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله وأصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة، ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة في ذلك**[2] **ففعلا، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ** (سيد الأوس) **وسعد بن عبادة** (سيد الخزرج) **فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه فقالا:** يا رسول الله! **أمر تحبه فنصنعه، أم شيء أمرك الله عز وجل به، أم شيء تصنعه لنا؟**

قال ﷺ : **لا بل لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم لأمر ما ساعة .**

فقال له سعد بن معاذ (سيد الأوس) : **يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله عز وجل وعبادة الأوثان، ولا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون**

---

(١)السيرة النبوية جـ١ صـ٦٢٠ .

(٢) أي أن الصلح بقي في حيز المشروع كما نقول بلغة اليوم .

أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى (ضيافة) أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فقال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك .

وتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال ليجهدوا علينا) [1] .

هذا هو محمد رسول الله، ورئيس الدولة، والزعيم السياسي، والقائد العسكري يعزم على أمر تراءى له أن فيه مصلحة المسلمين، حتى إذا اقترب الإبرام استشار أهل الحقوق، فاستمع إلى حججهم، فلما ساغ منطقهم ورأى قوة رأيهم، عدل عن رأيه ولم يبرم ما عزم عليه .

تلك لمحة من اللمحات المشرقة من الشورى أيام الرسول الأعظم ﷺ .

أما عمل الخلفاء الراشدين: فلقد شاور أبو بكر ﷺ أصحابه في حرب الردة وفى جمع المصحف، وفى فتح الشام ... إلخ، وكان يجمع الآراء ويستمع لها، ويأخذ بالرأي الذي يرجح أمامه.

وشاور عمر ﷺ العامة والخاصة في الأمور كلها، وهنا أكتفي بإيراد صورتين لمشاورة عمر ﷺ أصحابه، لأنهما يوضحان شخصية عمر بن الخطاب ﷺ في التزامه بالشورى، ومعاملته المسلمين بالسوية، وحكمه العادل حتى في أهل بيته .

الصورة الأولى :

علم عمر ﷺ أن مواجهة الفرس باتت أمراً حتمياً لابد منها، وأن القوة والرأي مناط الظفر بدولة هي أعظم دول الأرض قوة يومذاك، لهذا رأي أن من السداد أن يأخذ رأي عامة المسلمين وخاصتهم في شأن هذه المواجهة، وفيمن يتولى القيادة، ويسير بالجيش ويقود الجهاد والمجاهدين في بلاد الفرس.

فاستشار العامة، فأشاروا عليه بالمسير بنفسه، **لأن الناس بأميرهم أرغب، ولخليفتهم أطوع، وسوف يسارعون خلفه إلى الجهاد والتضحية.**

---

(١) تاريخ الطبري جـ٢ صـ٥٧٢ وسيرة النبي جـ٢ صـ٢٢٣ .

واستشار الخاصة، فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره، وبقائه في المدينة **لأنهم بقيمة حياته أعرف، وعلى وجوده بعيداً عن ساحات القتال أحرص**، فهو يقود الأمة كلها وغيابه يضر مصالح الناس، وفقده يؤدي إلى الإنهيار والضياع.

وحين المشاورة تخلف علي ﷺ وطلحة ﷺ لأن الأول استخلفه عمر على المدينة حين خرج بالجيش على ضواحي المدينة، والثاني كان على مقدمة الجيش بعيداً عن مقام عمر، ولذلك رأي عمر أن لا تفوتهما الشورى فاستدعاهما، وجمع الناس جميعاً، وقام فيهم خطيباً، ولهم مستشيراً، فقال:

أما بعد، إن الله عز وجل، قد جمع على الإسلام أهله، فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره، وكذلك يحق للمسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأى منهم، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه، ورضوا به، وكانوا فيه تبعاً لهم، ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم، ما رأوا لهم، ورضوا به لهم.

يا أيها الناس! إني كنت كرجل منكم، حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج، فقد رأيت أن أقيم، وأبعث رجلاً، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت (ويعني بمن خلف علياً وطلحة، لأنهما لم يحضرا الرأي الأول).

ولما انتهى عمر من خطبته، أشار عليه طلحة وعلي ﷺ بما أشار عليه عامة الناس ونهاه العباس وعبد الرحمن بن عوف عن هذا الرأي، وقال له عبد الرحمن أقم وابعث جنداً، فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك، قبل وبعد فإنه أن يهزم جيشك، ليس كهزيمتك، وأن تقتل أو تهزم في أول الأمر خشيت أن لا يكبر المسلمون، وأن لا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً)[1].

ونظر عمر فيما سمع فرجح عنده أن يبقى في المدينة، فبقى وقلبه وروحه مع المجاهدين.

الصورة الثانية : بعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ﷺ – وكانت زوجة

(١) نظام الحكم في الإسلام صـ٦٩ ، ٧٠ .

لعمر إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش (أوعية الطيب) من أحفاش النساء وأرسلته إليها بالبريد فوصلها ، وجاءت أمرأة هرقل، وجمعت نساءها، وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب، وبنت نبيهم، وأخبرتهم أنها كاتبتها وكافأتها، وأهدت لها وكان فيما أهدت لها عقداً فاخراً وأرسلت هديتها هي الأخرى بالبريد، فلما انتهى البريد إلى عمر أمر بإمساكه، ودعا الصلاة جامعة، فاجتمع المسلمون، فصلى بهم ركعتين، وقال لهم: **إنه لا خير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري، قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم؟**

فقال قائلون: هولها بالذي لها، وليست امرأة الملك في عهد ذمة حتى تصانع فيه، ولا تحت يدك تسترضيك عن طريقها.

وقال آخرون: قد كنا نهدي الثياب لنستثيب، ونبعث بها لتباع ولنصيب ثمناً.

ومعنى ذلك أن الهدية حق خالص لزوجة عمر حيث لا غلول ولا عدوان .

فقال لهم عمر: ولكن الرسول رسول المسلمين، والبريد بريدهم، والمسلمون عظموها في صدرها، فتأثرت بكل ذلك في هديتها، وأمر برد الهدية إلى بيت المال، ورد لزوجته بقدر نفقتها[١] .

ونلحظ في هذا أن عمر ﷺ وضع بعض خطوط الشورى الرئيسية في الإسلام :

- فقد جعل الشورى حقاً للمسلمين جميعاً، عامتهم، وخاصتهم.
- وبيّن أن شورى الخاصة أعمق، وأوثق، وأحكم.
- ووضح أن الناس يجب أن يكونوا مع إمامهم دائماً، بعد مبايعته، لأنهم رضوا به وبايعوه، ووثقوا فيه.
- وأكد أن العامة تبع لأولى الرأي، وليس من حق أولى الرأي، أو الحاكم ان يستبد برأيه.
- بين ضرورة توضيح علة الحكم الأخير، وبخاصة إذا جاء مخالفاً لأهل الشورى ليقنعهم برأيه ويحولهم إليه، وذلك كما قال عمر ﷺ : **الرســول رســول المسلمين،**

---

(١) تاريخ الطبري جـ٤ صـ٢٦٠ .

والبريد بريدهم، والمسلمون عظموها في صدرها.

وبهذه الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية وأعمال الخلفاء الراشدين تثبت مشروعية الشورى، وتؤكد أنها قيمة إسلامية لابد منها في الحياة الإسلامية.

ـ ٢ ـ

نطاق الشورى

والشورى في النظام الإسلامي تشمل سائر أمور المسلمين كما يفيده العموم المستفاد من قوله تعالى ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾[1] لأن أمر المسلمين يشمل كل شئونهم وسائر جوانب حياتهم.

وهذا العموم للشورى يأخذ صورتين رئيسيتين :

الأولى : إذا كانت الشورى في مسألة ما ورد في حكمها نص من القرآن الكريم أو من السنة النبوية، فإن الشورى حينئذ تنحصر في **تفسير النص، أو في منهج تطبيقه، وتنفيذه لأن من القواعد المقررة أنه لا اجتهاد مع النص.**

الثانية: إذا كانت الشورى في مسألة جديدة، لم يرد في حكمها نص، فإن الشورى تكون اجتهاداً في إطار القواعد الكلية للوصول إلى حكم شرعى لا يتعارض مع القواعد، والأصول الشرعية الثابتة ويقوم بها من يقدر على الاجتهاد من أهل الحل والعقد .

وعلى كل فإن الشورى في جملتها تعمل لتثبيت حكم الله في الناس، وتحقيق الملاءمة بين شرع الله والحوادث الجديدة وإدراج الجديد في إطار العمل الشرعي الصحيح، وبذلك يتأكد الناس في حياتهم من قوله تعالى ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ** ﴾[2] .

وللحاكم أن يختار جماعة للشورى الخاصة تشاركه في الأمور الهامة التي تحتاج إلى المدارة والسرية، والتي لا يفهمها إلا أصحاب العلم والتخصص، أما الشورى العامة فإنها مقررة بعد رأى أهل التخصص .

---

(١) سورة الشورى الآية ٣٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٨ .

- ٣ -

مدى الالتزام بالشورى :

اختلف الفقهاء وعلماء الفقه السياسي من المسلمين حول قضية مدى إلزام الحاكم بالرأي الذي تنتهي إليه الشورى، وانقسموا في ذلك إلى فريقين ومرجع الخلاف اختلاف قولهم في حكم الشورى فمن قال: إنها واجبة ملزمة ألزم الإمام بها، ومن قال: إنها ليست واجبة لم يلزم أحداً بها، وذهب إلى أن الأخذ بها أمر اختياري محض .... وهذا هو رأى الفريقين :

الفريق الأول :

يذهب الفريق الأول إلى أن الأخذ برأي الشورى مسألة اختيارية للحاكم، إن شاء أخذ بها وإن شاء تركها، وإجراؤها حينئذ تطييب للناس، وتقدير لأصحاب الرأي يستدل هذا الفريق على ما ذهب إليه بما يلي:

١) يقول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[(١)].

فهذه الآية تأمر الرسول ﷺ بأن يعود إلى نفسه، ويعزم الأمر، ويقضيه متوكلاً على الله، سواء وافق رأي أهل الشورى أو خالفهم لأن للرسول حرية الاختيار في ذلك .

٢) قيام الرسول ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بأعمال خالفوا فيها أهل الشورى وأهم هذه الأعمال هي:

أ- إمضاء الرسول ﷺ لصلح الحديبية مع مخالفة الصحابة له.

ب- إنفاذ أبي بكر لجيش أسامة رغم معارضة الصحابة لذلك حين قال (**لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه**) .

ج- محاربة أبي بكر للمرتدين رغم معارضة أغلب أصحابه له.

د- رفض عمر بن الخطاب رضي الله عنه تقسيم أرض العراق بعد فتحها رغم معارضة بعض الصحابة له .

يذهب هذا الفريق إلى أن هذه الأعمال تفيد أن رأي أهل الشـــورى بالنســـبة

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

للحاكم ليست ملزمة، وأن له الخيار في أن يأخذ بها، أو يتركها.

ويذهب هذا الفريق إلى أن الأمر في قوله تعالى ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ لا يفيد الوجوب لأن المقصود به تطييب قلوب الصحابة وترتضيه نفوسهم ليشعروا بمشاركتهم في تسيير الأمور، والمحافظة على شريعة الله تعالى.

كما أن قوله تعالى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ إخبار عن حال المسلمين وهو لا يفيد حكماً شرعياً ولا يتأثر بطبيعة ما يجاوره من أخبار .

الفريق الثاني:

يرى الفريق الثاني أن رأى أهل الشورى ملزم للحاكم ولابد من الأخذ به مستدلين بما يلي:

أ- الأمر الصريح في قوله تعالى ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ ودلالة الأمر على الوجوب ثابتة، حيث لا صارف هنا عن إرادة ظاهر الأمر، والوجوب ملزم للمكلف حاكماً أو محكوماً، ولا يصح صرف الأمر عن الوجوب بدعوى أنه جاء لتطييب قلوب الصحابة، لأن قلوبهم تطيب بالمشروع عموماً، فلا داعي لصرفه عن الوجوب

ب- التزام الرسول ﷺ بالشورى فيما لم يترل فيه وحي، كما حدث مع أسرى بدر، وعند الخروج إلى أحد وفى مفاوضاته مع غطفان يوم الخندق فقد نزل على رأي الصحابة وعوتب في قراره حين ظهر أن الصواب كان في غير ما أشاروا به.

ج- قيام الخلافة الراشدة على الالتزام برأي أهل الشورى إذ كان لكل خليفة أهل شوراه، وكان يأخذ برأيهم.

د- لا معنى للشورى إذا لم تكن ملزمة، وحاشا لله تعالى أن يشرع أمراً لا معنى فيه، ولا قيمة له .

هـ- ويدل العقل على وجوب الشورى لأنها تجعل أمور الناس تسير وفق الحكمة والمصلحة، وتمنع الاستبداد والتحكم والظلم.

ومن المعلوم أن الإسلام قام على الشورى وبه تميز، وعلى نهجه سار السلف الصالح، يقول ابن خويد منداد: **واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون**

وما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه أهل الخبرة، والتخصص والذكر .

وهذا تأكيد على وجوب المشاورة لأهميتها وضرورتها وبخاصة أن التقدم الحضاري يؤكد هذه الأهمية لمساهمتها في مراقبة الحكام والإشراف على إصلاح المسار العام والخاص، وذلك أمر ضروري في دين الله تعالى .

مناقشة الآراء والترجيح :

يرد أصحاب الفريق الثاني أدلة الفريق الأول على النحو التالي:

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ يدل على الالتزام بالشورى وليس كما ذهب إليه الفريق الأول، لأن العزم لا يكون إلا بعد الشورى، ووفق ما انتهت إليه، يقول القرطبي : **العزم هو الأمر المروي المنقح، وليس ركوب الرأي دون روية عزماً** [١] .

والتوكل هو الاعتماد على الله، وطلب التأييد منه، وذلك يكون قبل المشاورة، وأثناءها وبعدها، ولا يتنافى معها فلا معنى لحصره في الفعل قبل المشاورة .

ومن المعلوم أن الآية نزلت على رسول الله ﷺ وليس مع النص شورى، لأنه لا اجتهاد مع النص، وحينئذ لا دور الشورى مع رأي رسول الله ﷺ الله الموحى إليه، ومعنى الآية : فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك، وتسديدنا لك فيما أنابك وحزبك من أمر دينك ودنياك فامض لما أمرناك به على ما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك، وما أشاروا به عليك أو خالفه، وتوكل فيما تأتي من أمورك وتدع، **وتحاول أو تزاول** على ربك، فثق به في كل ذلك، وارض بقضائه في جميعه دون سائر أراء خلقه، ومعونتهم فإن الله يحب المتوكلين، وهم الراضون بقضائه، المستسلمون لحكمه[٢] .

ومن المعلوم أن عمل الرسول سنة عملية يقره الله عليها، وبذلك فلا اجتهاد مع رأي الرسول، أو مع عمله، تطبيقاً لقاعدة (**أنه لا اجتهاد مع النص**) .

---

(١) تفسير القرطبي جـ٤ صـ٢٥٢ .

(٢) تفسير الطبري جـ٧ صـ٣٤٦ .

ويرى أصحاب الفريق الثاني أيضاً : أن الأعمال التي فعلها رسول الله أو صاحباه والتي استدل بها الفريق الأول لا تشهد له من واقع الأعمال نفسها.

فموقف الرسول من صلح الحديبية معتمد على الوحي من أوله إلى آخره بدءاً من بروك الناقة إلى قول أبي بكر لعمر : **يا عمر الزم غرزك إنه رسول الله** ..وعلى ذلك فلا محل للشورى مع وحي الله إلى رسوله ﷺ وقد قال رسول الله ﷺ لعمر صراحة (**أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعني**) [1] .

وموقف أبي بكر ﷺ من بعث جيش أسامة تنفيذ لوصية رسول الله ﷺ فهو ﷺ الذي جهز الجيش، وعين القادة ولذلك فهو وحي لا يحتاج إلى مشورة.

وموقفه ﷺ من قتال المرتدين تم بمشاورة أصحابه، يروى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال (**لما توفي رسول الله ﷺ وكفر من كفر من العرب ، عزم أبو بكر ﷺ على قتال المرتدين ، فقال عمر ﷺ : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله .**

فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها.

قال عمر ﷺ فو الله ما هو إلا أن قد شرح الله صدري لأبي بكر ﷺ فعرفت أنه الحق) [2] .

فإن قول أبي بكر ﷺ (**فإن الزكاة حق المال**) بيان في أنه لا فرق بين الصلاة والزكاة – وهو الحق – وبذلك وافق عمر أبا بكر في الدليل فأيده وكان في مقدمة المشاركين في قتال المرتدين، وفى نفس الوقت رد استدلال المخالفين بالحديث نفسه لأنهم يفرقون بين الصلاة والزكاة.

ورفض عمر ﷺ لتقسيم أرض العراق، تم برأي أهل الشورى، فقد استشار عمر

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ صـ٢٢٠ مع شرحها الروض الأنف .

(٢) صحيح البخاري كتاب الزكاة – باب وجوب الزكاة جـ٣ صـ٦ ط الأوقاف .

ﷺ أصحابه فأشار عليه عامتهم بقسمتها، كما قسمت خيبر حين فتحها رسول الله ﷺ وأشار عليه على بن أبي طالب ومعاذ بن جبل بعدم قسمتها حتى تبقى مورداً للمسلمين في أجيالهم المتعاقبة، فاقتنع عمر برأيهما وبدأ يشاور في المسألة المسلمين ويناقشهم حتى أقنعهم برأيه واستجابوا له فلم يقسم أرض العراق.

وعلى هذا ...

فإن رأي القائلين بوجوب الالتزام برأي أهل الشورى هو الرأي الصحيح لتسير الأمور وفق الحكمة والمصلحة، ومنعاً من الاستبداد بالرأي، لأن حكم الإسلام يقوم على الشورى، وبه تميز وعلى نهجه سار السلف الصالح، وذلك ما لم يستطع الحاكم إقناع أهل الشورى بأفضلية رأيه، كما فعل أبو بكر الذي ما فتي يوضح رأيه للمسلمين في شأن حرب المرتدين وجمع القرآن، حتى شرح الله صدورهم له كما قال عمر ﷺ وكما فعل عمر أيضاً بإقناع مخالفيه في قسمة سواد العراق حتى شرح الله صدورهم لرأيه ووافقوه على فعله، فكان الرأي مجمعاً عليه، كما ذكر أبو يوسف في كتاب الخراج وغيره من الفقهاء.

ـ ٤ ـ
فائدة الشورى

تحقق الشورى عدة فوائد منها :

أ- تكريم الإنسان وتثبيت ولائه للجماعة :

يعد تطبيق الشورى الإسلامية تكريماً للإنسان وتأكيداً لعزته، وإثباتاً لحقوقه .. لأنها تؤكد له دورة الإيجابي في بناء المجتمع، وتحقق ذاته مع غيره في إطار من التعاون والرضى وتؤكد كيانه في إطار المجتمع الكبير .

إن الإنسان في حاجة لإرضاء عقله، والاهتمام بإنسانيته لينشط في أداء الواجب، ويسعد بأي جهد يقدمه لمجتمعه الذي يعيش فيه، ولو تصورنا نظاماً يهمل أبناءه، ولا يتذكرهم إلا عند جمع الضرائب، ويعاملهم معاملة العبيد المسخرين، لو تصورنا نظاماً على هذا النمط فإن الناس يتحولون إلى مجموعة من الكسالى لأنهم يكرهون السخرية ويرفضون أن يكونوا آلة تعمل لغيرهم ... وقد يتحولون إلى عناصر تضر المجتمع فيقل

الإنتاج، وتنتشر الرشوة، ويكثر الفساد ... ويجد المجتمع نفسه أخيراً فقيراً محتاجاً لغيره .. أما حين تطبق الشورى فإن الأفراد يجدون أنفسهم مساهمين في قراراتها ، وأعضاء في توجهاتها ، وبذلك يعيشون أعزة كرماء يهمهم كل ما يحدث في مجتمعهم، ويعملون على نجاحه، ويساعدون في مجاوزة السلبيات إن وجدت.

والشورى الإسلامية بجانب تكريمها للإنسان تبنى فيه دنيا، وتربي عقيدة، لأن ما شرعه سبحانه وتعالى في سائر النظم الإسلامية يحقق في نفس الوقت الأثر العظيم الذي أودعة الله في القلوب والأعمال ... وهذا ينعكس إخلاصاً في العقيدة، وحباً لهذا الدين الذي صبغ الحياة كلها بصبغة الله تعالى.

ب– توثيق العلاقة بين الحاكم والمحكومين :

إن مداومة الحاكم الاتصال بأهل الشورى، وأخذ رأيهم، يؤدي إلى تقوية العلاقة بينهما، ولذلك قال الله لرسوله ﷺ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[١] .

لقد نزلت الآية عقب غزوة أحد بعدما ظهر خطأ نتج من تطبيق الشورى، حيث الهزم المسلمون، وجرح رسول الله ﷺ وكان من حق القيادة المحمدية أن تنبذ الشورى بعد المعركة، ولكن الله تعالى كان يربي أمة، وينشئ خير جماعة للناس، ولذلك نزلت الآية آمرة الرسول ﷺ ليصفح عنهم بظاهره، ويرضى عليهم بقلبه ويشركهم في الرأي والعمل، ويستمر في صلته الوثيقة بهم، فهم أمته وهو مسئول عنهم، وعليه أن يتعامل معهم بالرحمة واللين، بعيداً عن الغلظة والقسوة لأن مهمته أن يجمع ولا يفرق، ويلتقي بالناس ولا يهملهم ... وعليه ﷺ أن يستمر في مشاورتهم تعليماً لهم، وإرساء لهذه القيمة العالية.

وكلما قويت الصلة بين الحاكم ورعيته يتحقق الأمن والاستقرار، ويعمل الجميع

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

بكل صدق وأمانه ، وبذلك تتقدم الأمة، ويعيش الناس في رخاء ونعيم.

يقول سيد قطب : إن مزاولة الشورى حق للأمة مهما تكن النتائج، ومهما كانت الأخطار المحيطة، ولذلك كانت الآية لتربية الأمة الإسلامية الراشدة المدركة المقدرة لتبعات الرأي والعمل، ولابد من العفو، والرحمة، ولابد من الشورى لتحيا الأمة وتعيش راشدة مؤمنة[1] .

ج- تكريم العلماء :

العلماء هم أهل الحل والعقد، وهم رجال شورى الحاكم المسلم بصورة خاصة وفى مداومة الاتصال بهم ومشاورتهم تكريم لهم، ورفع لشأن العلم والعلماء، وتقدير منزلتهم أمام الناس، الأمر الذي يؤدي إلى لجوء الناس إليهم لمساعدتهم فيما يعن لهم .

وعن طريق العلماء يطلع الحاكم على اتجاهات الرأي العام، ويعلم حاجات المجتمع والناس.

إن التقاء الحاكم بالعلماء وأهل الشورى والأخذ برأيهم يرفع شأن الدولة، ويعلي صورة الحاكم، ويظهر قضايا الشعب، ويؤدي لإيجاد الحلول الصائبة لما يظهر من قضايا وأحداث، لأن العلماء أهل ثقة وضبط، ورأيهم يعتمد على النظر والتحليل

وحين يشعر العلماء بهذا التقدير من السلطة الحاكمة يزداد إخلاصهم ويضاعفون جهودهم واجتهاداتهم لخدمة الدين، ومنفعة الناس.

ومن المعلوم أن الشعب كله هو صاحب الشورى العامة، والعلماء هم أصحاب الشورى الخاصة، وفى مشاورة الحاكم هؤلاء وهؤلاء تكريم للعلماء وللناس، وفى نفس الوقت إعلاء لشأن الحاكم وحكومته.

د- صيانة الحكم من الانحراف:

حين يداوم الحاكم المشاورة فإنه يعيش مع المشروعية الإسلامية سواء شاور الخاصة أو العامة، لأن العلماء هم أهل الذكر والتخصص، وهم لا يبدون أراءهم إلا بأدلتها وغالباً يصيبون في أحكامهم لعمق نظرهم ، وقوة تحليلهم، وتفحصهم الدقيق لكل مـــا

---

(١) في ظلال القرآن جـــ١ صـــ٥٠٢ ، ٥٠٣ بتصرف - ط الشروق .

يقولون، والله معهم لفقههم وصلاحهم.

ولذلك كان التعاون معم صيانة للمشروعية ولذلك قال الحكماء (**ما خاب من استشار**) وقالوا (**من شاور الرجال شاركها في عقولها**) .

والعامة هم أصحاب المصلحة الحقيقة، وهم الأخبر بالواقع ولذا كان رأيهم خير معين للحاكم، وإنقاذاً للحكم من الفساد والانحراف.

وقد اهتم الخلفاء الراشدون برأي الناس، وحثوهم على ضرورة إخبارهم بما يرون، يقول أبو بكر الصديق ﷺ في أول خطبة له : **إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأطيعوني وإن أسأت فقوموني**[1].

ويقول عمر ﷺ للناس : **ماذا أنتم فاعلون لو رأيتم فيّ اعوجاجاً ؟**

قالوا : **لو رأينا اعوجاجاً لقومناه بالسيف.**

فحمد عمر ربه وقال: الحمد لله الذي أوجد في أمة محمد من يقاوم عمر بسيفه.

- ٥ -

بين الشورى والديموقراطية

يعتمد النظام السياسي الغربي على الديموقراطية، ويذهب البعض إلى أن الديموقراطية هي الشورى، وليس الأمر كذلك لوجود فروق بينهما.

إن الديموقراطية نظام وضعي قابل للتغيير، والتبديل، ولا يمكن أن نلبس الشورى مسمى الديموقراطية ونقول: ديموقراطية الإسلام، أو غير ذلك، لأننا حينئذ نكون قد ابتعدنا عن الديموقراطية تباعداً كلياً، وشوهنا في نفس الوقت الشورى الإسلامية، لأن الديموقراطية تختلف عن الشورى في نقاط عديدة أهمها:

أ- الديموقراطية نظام أساسي له فلسفته، واتجاهاته، يعرفها العلماء **بأنها حكم الشعب للشعب وبالشعب.**

ومعنى هذا أن سائر السلطات نابعة من الشعب وعائدة إليه .

ومعنى ذلك أيضاً أن الشعب هـــو **الســـلطة التشريعية** فهو واضع الدســـتور

---

(١) البداية والنهاية جـ٦ صـ٣٠٥

والقانون، **وهو السلطة القضائية** التي تحكم بين الناس بتطبيق القوانين الموضوعة، ويلجأ إليها المتخاصمون للفصل في المنازعات وفق القانون والنظام، **والشعب كذلك هو سلطة التنفيذ** الذي يعمل على تطبيق القانون وتنفيذ أحكام القضاء في إطار مؤسسات مقررة.

وحتى يتمكن الشعب من مباشرة سلطاته تلك تذهب فلسفة الديموقراطية إلى إجراء انتخابات عامة لاختيار أناس يمثلون سلطة التشريع ووضع القوانين والفصل بين السلطان، وتقوم الهيئة المنتخبة باختيار سلطة التنفيذ وذلك بتعيين حكومة لتنفيذ القانون وتطبيق أحكام القضاء.

وتقوم الهيئة المنتجة كذلك باختبار السلطة القضائية متعاونة مع الحكومة وفق ضوابط معينة.

وتراقب الهيئة سائر السلطات ومن حقها عزل الوزراء ومحاسبة المسئولين وعلى رأسهم رئيس الدولة .

وبهذا التصور العام للنظام الديموقراطي يظهر اختلافه عن نظام الشورى لأن الشورى تقوم على حقيقة أن الحكم هو حكم الله المنزل بواسطة الوحي على رسول الله المحفوظ الثابت الذي يعد الالتزام به هو أساس الإيمان، والعلماء هم أهل الحل والعقد، وهم على رأس رجال الشورى .

وليس للعلماء مع حكم الله في إطار الشورى إلا الاجتهاد في ثبوت النص، ودقة الفهم، ورسم الخطط المنهجية للتطبيق، والبحث عن علل بعض الأحكام لتطبيقها على الحوادث الجديدة إذا اتحدت معها في العلة، ومحاولة تطبيق المبادئ الكلية للشريعة الإسلامية على الأعمال التي لا نص عليها في شرع الله تعالى .

إن العودة إلى الشعب لاختيار من يمثله عمل طيب لا يتعارض مع الشورى لأن الشورى ترى ضرورة العودة إلى الشعب لاختيار الخليفة والسلطان وفق منهج قد يختلف في جزئياته مع الديموقراطية، والخليفة بعد اختياره مسئول عن تعيين الولاة والقضاة ومحاسبتهم إذا قصروا فيما أسند إليهم من مهام.

إن الديموقراطية تجعل الهيمنة على النظام للشــعب وهذا أمر يســهل اللعب به

وبخاصة في الشعوب الفقيرة الجاهلة لأنها تخدع ببريق القول، وبالشعارات الرنانة وبالوعود الكاذبة، وكثيراً ما رأينا في إطار الديموقراطية عيوباً كبيرة، تعود بالضرر المؤلم على الشعوب.

أما الشورى وهي تجعل الهيمنة لله سبحانه وتعالى فإنها تؤدي إلى ظهور رجال يعيشون في معية الله، ويخشونه بصدق ويعملون ليوم لقياه سبحانه وتعالى .. كما أنها تؤدي إلى يقظة شعبية قادرة على نقد الخطأ، وإظهار الفساد، وتأييد الحق والصواب لأنهم أناس لا يخافون في الله لومة لائم، فهم ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [١] إنهم صوت الحق، ونور الله الساطع وسط ظلام المكر والفساد.

ب– تعتمد الديموقراطية على نظام الانتخابات العامة، لاختيار نواب الشعب الذين يعملون على وضع القوانين، ومراقبة التنفيذ واختيار الحكومة والقضاه... وغالباً يأتي الانتخاب بأفراد يختارهم الشعب بالأغلبية، وقد رأينا وسمعنا، أن بعض النواب لا يمثلون الإرادة الشعبية تمثيلاً صحيحاً فمنهم الشواذ، والمستهترون، والعاملون لذواتهم فقط، ومنهم الأميون الذين لا يعرفون شيئاً من العلم ، ومنهم أفراد العصابات وأبناء القبائل الذين يرفعهم أهلوهم لإبراز عصبية قبلية، ونيل سلطة دنيوية، ولذلك يستعملون الأكاذيب والوعود الفارغة للوصول إلى ما يريدون، وقد رأينا غالبية بعض هذه المجالس من العامة الذين يجيدون القراءة والكتابة فقط، ولا قدرة لهم على فهم علوم الإسلام، ومعرفة أصول الأحكام والدين .

وكان النظام الشيوعي يضع كافة المسئوليات في يد العمال ويجعل كافة السلطات نابعة منهم .

أما في نظام الشورى فإن الحاكم المسلم يختار أهل الحـــل والعقد تبعاً لعلمهــــم،

---

(١) صحيح البخاري – كتاب النكاح – باب طلب الولد جـــ٩ صـــ٣٤١ .

وصفاهم، وكفاءهم، وتدينهم.

يقول الماوردي: فأما أهل الشورى فالشروط المعتبرة فيهم ثلاثة هي :

الأول : العدالة الجامعة لشروطها من تقي وورع، وضبط، ودقة في علوم الدين بحيث يوثقهم علماء الرجال، فهم بالتقى والورع يراقبون الله، ويتحرون الصواب ويخافون من أي خطأ، وبالدقة والضبط يحفظون ويفهمون ويحللون ويجتهدون.

الثاني : العلم الذي يوصلهم إلى معرفة خبايا النفوس، ومعرفة حقائق الأشخاص، وإدراك المواقف والأحوال، ليتمكنوا من الوصول إلى الرأي الصحيح المناسب لمصالح الناس، القادر على تحقيق الخير للجميع .

الثالث: دقة الرأي، وعلو الحكمة بحيث يقدرون على إبداء المشورة الصحيحة الصائبة بلا نفاق يتزلفون به، أو غاية شخصية يعملون لها [1] .

وما دامت هذه شروط أهل الحل والعقد فإن اختيارهم يتم بعد تأمل في شئوهم، وتحليل لسلوكهم وتصرفاهم.

ويمكن وضع نظام يسمح بانتخاب أهل الحل والعقد وفق هذه الشروط لنجمع بين مزية الانتخابات ومزية اختيار الأصلح، والوصول إلى هذا الحل أمر ممكن حين تصدق النوايا، ويريده أولو الأمر ... لأن العلماء والخبراء في الشئون السياسية يمكنهم وضع التصور الصحيح في هذا المجال .

وفى إطار النظام الإسلامي المتكامل نرى ظهور أهل الفقه، وسيادة علماء الحق، وحينئذ يكون الاختيار سهلاً، والوصول إلى رجال يعملون عملاً صالحاً أمراً ممكناً.

أما في مجتمع يرفع الخلاعة بلا حياء، ويمجد الفوضى والتحلل وسفاسف الأمور بلا خجل فإنه يظهر رجاله، ويعلي شأن من يؤيده ويقويه.

والمجتمع الفاسد يرفض الشورى لأنها لا تناسبه، وتتعارض مع توجيهاته وأعماله ولذلك نراه يعلي شأن الجهل، ويختار رجاله الذين يقبلــون وضعه، ويتعاونــون معــه ويوافقون على نقائصه ومثالبه .

---

(١) الأحكام السلطانية صـــ٦ بتصرف .

ج- النظام الديموقراطي يعمـــل على إرضاء الجمهـــور على مختلف اتجاهاته ومذاهبه مهما كان موقفه من الدين، لأنه يخضع لرأي الأغلبية وإن لا تعرض للسقوط والزوال.

أما الشورى فإنها تعمل على تحقيق شرع الله في الناس ، وشرع الله عدل كله، يسعد به الصادقون ويتألم منه أهل الضلال والهوى.

د- النظام الديموقراطي يتكون برأي الأغلبية ولو كان سيء الأثر والنتيجة لأنه ناتج منها، خاضع لها ولذلك نجده يشرع للفن الهابط، ويسكت أحياناً عن ما يضر العباد والدين، أما الشورى فهي نظام لا يرضى إلا بما يرضاه الله، ولا يشرع إلا الحلال، ولذلك تساهم الشورى مساهمة إيجابية في إيجاد الإنسان الصالح، والمجتمع المستقيم .

وأهل الحل والعقد، ورجال الشورى في إطار الدولة الإسلامية أناس تم اختيارهم على أساس تدينهم، وعملهم، وصدقهم مع الله تعالى .... ولذلك يكون رأيهم ونصحهم وفق شرع الله، وكما جاء في نصوص الإسلام الحنيف، واجتهاد الفقهاء المخلصين .

إنهم جماعة تراقب الله، وتعمل بالحق ولذلك لا تأثير لأغلبية فيهم إلا بالحق، فالقوى ضعيف بالباطل، والضعيف قوى بالحق .

القيمة الثالثة
الحرية

تعد الحرية القيمة الأساسية التي تشهد لصحة النظام وتؤكد سلامة الحكم إذ لا يحققها للناس إلا نظام ملتزم بالدستور، والقانون، محافظ على حقوق العباد، والبلاد.

والحرية تتشعب إلى شعب عديدة، فهناك حرية الرأي، وحرية الاعتقاد، وحرية التعليم، وحرية التملك، وحرية التنقل ... ولكن حرية الرأي والاختيار هي أصل هذه الشعب جميعاً.

إن مجتمع الأحرار هو الذي ينطلق بفكره وعمله إلى حيث يريد، وكلما كانت حريته في إطار ما يرضى الله تعالى تتحقق له القوة والفلاح.

أما العبيد فحياتهم تنقضي في محبسهم حيث القيود تشل حركتهم، وتقيد أمانيهم فهم حيث استعبدوا .

إن الأحرار هم الذين يعملون ويفهمون ويتكلمون، أما العبيد فهم في خدمة السادة وتحت سلطان الطغاة.

إن الحرية حق طبيعي للإنسان، وهي أغلى وأثمن ما يحرص عليه الإنسان وتحقيقها رمز الكرامة والعزة في المجتمع الذي تتحقق فيه.

وقد حرصت الشريعة الإسلامية، على تحقيق الحرية للإنسان بصورة شاملة وكاملة بعيداً عن الشعارات والأكاذيب، وجاءت التعاليم الإسلامية واضحة في ضرورة الالتزام بها، حتى عد المعتدي على حرية الآخرين معاد لدين الله تعالى، ولذلك قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص ﷺ واليه على مصر حين اعتدى ابنه على أحد أقباط مصر قال له : (**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً**) [١].

إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه السلام وفطره على حرية الإرادة والاختيار، وفطر زوجته على ذلك معه، وقال حين أخرجه مع زوجته ومعهما إبليس من الجنة قال لهم ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ

---

(١) الخلفاء الراشدون للشيخ / حسن أيوب صـ١٣٠ ط أولى .

هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[١] والآيات واضحة الدلالة في أن الله سبحانه وتعالى أخرج آدم وحواء وإبليس من الجنة، وأنزل الهدى لآدم وعرفه الطريق وترك لآدم وزوجته حق الاختيار بين الإتباع والإعراض، وذلك أساس الحرية.

وعاش بنو آدم من بعده مفطورين على ذلك كآبائهم..

وعلى الحاكم المسلم أن يعمل على صيانة حرية رعاياه، بمختلف صور الحرية وألوانها، ويصون لغير المسلم هذه القيمة الغالية كذلك، ومن أهم صور الحرية ما يلي:-

١) حرية الاعتقاد:

تقوم العقيدة الإسلامية على الاختيار الحر، لأنها في حقيقتها عملية نفسية وهي معنوية بالضرورة، والعمليات النفسية لا يتصور معها إكراه أبداً .

إن من المستحيلات العقلية أن يؤمن إنسان ما يشئ رغم أنفه،لأن النفس لا تؤمن إلا بما تصدق به، وأقصى ما يصنعه الإكراه مع العقيدة أن يبدو المرء كأنه معتقد بينما هو عن الإيمان الصادق بعيد.

والإسلام لا يرضى بظاهر يخالف الباطن لأن ذلك هو النفاق الذي يأباه الإسلام حيث يضع المنافق في مترله أسوأ من الكافر، ولا يرضى الإسلام بإكراه أو إجبار في مجال الاعتقاد، يقول الله تعالى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ ﴾[٢]. أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام، لأن الإسلام بيّن واضح جلي لا يحتاج إلى أن يكره أحداً على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونّور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً[٣].

وما على المسلمين إلا توضيح دينهم، وبيان ما فيه من خير وهدى، ورد كيد

---

(١) سورة طه الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

(٣) تفسير ابن كثير جـــ١ صـــ٣١٠ .

أعدائه الذين يثيرون معه الشبه، وينشرون حوله الأكاذيب .

وقد ذكر العلماء في سبب نزول الآية أن رجلاً من الأنصار يقال له الحصيني دخل في الإسلام وله ابنان نصرانيان، فقال للنبي ﷺ : ألا أ ســـتكرههما؟ فأنزل الله ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ .

وقيل: بل نزلت حين استأذن بعض أصحاب النبي ﷺ في إكراه أولاد بني النضير على الإسلام عند جلائهم عن المدينة في السنة الرابعة للهجرة[١].

وربط الآية بسببها لتوضيح المعنى وإظهار وجه الاستدلال بها لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند جمهور الأصوليين .

ومن الآيات الدالة على هذه الحرية قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [٢].

وقوله تعالى ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾[٣].

ومن الوقائع التي تؤكد ضرورة الحرية في العقيدة أن الرسل عليهم السلام جميعاً اعتمدوا في دعوة الناس على الحجة والبرهان، حتى قال قوم نوح عليه السلام له ما حكاه الله تعالى في قوله ﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴾[٤].

وقال هود عليه السلام لقومه ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾[٥].

ويأمر الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ فيقول له ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [٦].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ صـ٣١١ .

(٢) سورة الشورى الآية ٤٢ .

(٣) سورة يونس الآية ٩٩ .

(٤) سورة هود الآية ٣٢ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٧١ .

(٦) سورة النحل الآية ١٢٥ .

ومن المعلوم أن الجدل يقتضي المناقشة وإبداء الرأي، والاستماع لحجة كل فريق، والرد عليها بلا إكراه أو ضغط وتكون كما أمر الله تعالى بالحسن واللين، وهذا منتهى الحرية.

والحكمة دقة في الفهم والإقناع وهذه قائمة على الحسن ابتداء وانتهاء بخلاف الموعظة والجدل فقد يقومان على الحسن وعلى غيره ولذلك قيدهما الله بالحسن لمراعاة كرامة الغير حين مناقشته وعرض الدعوة عليه.

وصيانة لحرية العقيدة نرى الإسلام يمنع التقليد في الاعتقاد، يقول تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١).

وسبب عيب التقليد أنه يصادر حرية النظر، ويمنع حرية الاختيار، ويكره على الكفر، وذلك في حد ذاته معيب .

وكما عاب الإسلام التقليد في الكفر نراه يعيب من يقيم عقيدته على الظن حيث لا فائدة في ذلك، يقول الله تعالى ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢).

ولا يصح في الإسلام أن يهمل الإنسان عقله، ويجري وراء الآخرين أياً كان مسار الآخر واتجاهه، يقول النبي ﷺ (**لا يكن أحدكم إمعة، يقول: أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت ...**) (٣).

ولضرورة الحرية في العقيدة أهدر الإسلام إيمان الإلجاء، كما وضح من آيات القرآن الكريم، يقول الله تعالى ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ

---

(١) سورة المائدة الآية ١٠٤ .

(٢) سورة يونس الآية ٣٦ .

(٣) سنن الترمذي جـ٨ صـ١٨٠ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [١] فالإيمان حين الموت كالتوبة تماماً عنده لا يقبلان، ولذلك عدت توبة هذا الوقت كلا توبة، وعطف عليها الذين يموتون وهم كفار، لأن إيمانهم لا اعتبار به حيث جاء في وقت الإلجاء.

يقول الرازي (**إن الإيمان في الوقت الذين يعاين المرء فيه نزول ملائكة الرحمة والعذاب لا ينفع، في ذلك الوقت يصير المرء مكرهاً على الإيمان ولذلك لا ينفع، إنما الإيمان ينفع وقت ما يملك الإنسان القدرة على خلافه، حتى يكون المرء مختاراً**) [٢].

ولهذا حين قال فرعون ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [٣] معلناً إيمانه ثلاث مرات لم يقبل منه، لأنه كما يقول النسفي أخطأ وقته، وكانت المرة الواحدة تكفي في حالة الاختيار، لكنه قال الثلاث في وقت الاضطرار حين أدركه الغرق، وأيس من نفسه) [٤].

وكفر الإلجاء، لا يعتبر هو الآخر، قال تعالى ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [٥].

ففي هذه الآية يبين الله ضخامة جريمة الكفر بعد الإيمان، ثم استثنى من أكره على الكفر، لأنه ليس بكافر في الحقيقة، حيث أُلجئ ظاهره عليه، وبقي قلبه مطمئناً بالإيمان.

وهكذا يتعامل الإسلام مع حرية الاعتقاد إيجاباً أو سلباً لأنه يحرص على حرية الإنسان أصلاً.

ومن صور تطبيق الحرية الدينية في عصر رسول الله ﷺ ما يلي:-

أ- قصة ريحانة مع الرسول ﷺ :

كان للرسول ﷺ جارية من بني قريظة اسمها " ريحانة " اصطفاها لنفسه من

---

(١) سورة النساء الآية ١٨ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٧ صـ٣٥ .

(٣) سورة يونس الآية ٩٠ .

(٤) تفسير النسفي جـ٢ صـ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٥) سورة النحل الآية ١٠٦ .

بين نسائهم، فكانت عند الرسول حتى توفى عنها وهى في ملكه، وكان الرسول عرض عليها أن يتزوجها، فقالت: يا رسول الله! بل تتركني في ملكك، فهو أخف علي وعليك، وقد كانت حين سباها قد تعصت بالإسلام (أي امتنعت) وأبت إلا اليهودية، فلم يكرهها ﷺ حتى أسلمت من تلقاء نفسها [١].

ب- النصارى يصلون صلاتهم في مسجد الرسول:

لما قدم رؤساء نجران على الرسول ﷺ دخلوا عليه المسجد حين صلى العصر وعليهم ثياب الحبرات (من برود اليمن) فلما حانت صلاتهم قاموا في مسجد الرسول يصلون صلاتهم، فهم بعض الصحابة بمنعهم، فقال رسول الله ﷺ : **دعوهم** ... فصلوا إلى المشرق[٢].

إن هذا الأمر من رسول الله ﷺ غاية ما يمكن أن يكون من الحرية الدينية، ولا سيماً في ذلك العصر، وفى تلك الفترة التي لم تكن فيها دعائم الإسلام قد استقرت.

وظاهر عبارة ابن عساكر أن اعتراضاً وقع من بعض الصحابة على صلاتهم في مسجد الرسول ﷺ ولذلك قال الرسول: دعوهم، وإلا لما كان هناك معنى لإيراد هذه الجملة، ودلالة الحديث ظاهرة وهي أن الرسول ﷺ حقق لهم أداء صلواتهم داخل المسجد النبوي و لم يمنعهم من ذلك .

ج- لا يفتن أحد عن دينه:

نجد في جميع الكتب التي وجهها الرسول إلى القبائل التي أسلمت أو التي عاهدها عبارة واحدة، تتردد فيها جميعاً وهي (**ومن كان على يهوديته أو نصرانيته، فإنه لا يفتن عنها، وعليه الجزية**) [٣].

ومعنى " لا يفتن " أي أنه لا يحمل بالإكراه على الخروج من دينه .

ويجب هنا أن نؤكد على أن الحرية في العقيدة مقيدة بالمشروعية الإسلامية لأن من المقرر ديناً للحاكم المسلم، وللأمة المسلمة منع كل ما يصد عن دين الله ويؤذي الناس،

---

(١) سيرة النبي جـ٢ صـ٢٤٥ ط الحلبي .

(٢)تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ١ صـ٣١٢

(٣) تاريخ الطبري، ١٢١/٣ – ١٢٩ .

لأن الصد عن الدين، والإساءة إلى الله وإلى رسوله ليس من الحرية، بل هو الفوضى التي لا يصح وصفها بالحرية أبداً.

وليس من الحرية ارتكاب المحرمات بكل أنواعها، لأن ذلك يؤذي المجتمع ولا يفيده ومن المعلوم والمقرر أن الحرية في كل الأعراف والمذاهب مقيدة بالمصلحة وإفادة الحياة وإلا لجاز لمن يسرق أن يسرق، ولمن يهتك الحرمات أن يفعل ما يريد.

وليس من الحرية أن يرتد المسلم عن دينه لأن ذلك لعب وهوى، ولا حق لصاحبه فيه لأنه يضر المجتمع كله، ويتعدى على غيره، وليس من الحرية التعدي على الآخرين.

إن سبب عقوبة المرتد إنقاذ المجتمع من مخاطره وضرره، لأن المرتد عاش مع المسلمين وانقلب عليهم، وهو عليم بأسرارهم ولذلك فهو جاسوس محارب يجب التخلص منه، وليست عقوبته بسبب مجرد الردة لأن النظام الإسلامي يقرر حق الكتابي والذمي في الوطن مع المسلمين وفق شروط معروفة مقررة.

إن الحرية في الإسلام مقيدة بالمشروعية، يقول الدكتور/ محمد وصفي (المشروعية الإسلامية تشرف على كل الأوضاع، وعلى كل المراكز القانونية، وسائر التصرفات التي تقوم في الدولة المسلمة، فتكون الدولة كلها موصوفة بتلك المشروعية الإسلامية التي تنطبع بها الحياة الاجتماعية، والقانونية بأسرها في جميع تفاصيلها، والسبب في ذلك أن جميع الوسائل، والإمكانيات، في النظم المذهبية تعتبر وظائف اجتماعية تتوجه إلى تحقيق الهدف الأعلى، الذي تتخذه الجماعة عقيدة دينية وإيماناً عاماً لها.

وهذه الإحاطة الشاملة للمشروعية تجعل جميع الوسائل، والجهود والإمكانيات والأوضاع مقيدة بقيودها، محكومة بها، موصوفة بوصفها، متوجهة إليها، وبذلك تكون التصرفات العامة، من قوانين وأوامر وغيرها وما نشأ عنها من الحريات والملكية، والعقود تسير في الخط الذي يوصل إلى الهدف العام، وتعمل كلها لخدمة الأصول العليا التي يقررها الإيمان وتكون موصوفة به، ومحكومة بأحكامه.

وهذا الأمر ملحوظ ومراعي في جميع النظم الإسلامية، سواء الدستورية، أو الإدارية، أو الدولية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية، وكذا في العلاقات الفردية من عقود وغيرها، والحريات والملكية، والعقود.

إن العقد في النظام الإسلامي، هو عهد مع الله، يجب تنفيذه مع الطرف الآخر، وليس التراضي عليه إلا دخولاً في تنظيم قانوني شامل معروف، هو النظام الإسلامي المقرر للنهوض بالمقاصد الشرعية العامة، والخاصة التي يعتبر هذا العقد – نوعياً – وسيلة لها .

وبذلك فإن النواهي الشرعية، والأوامر الدينية وخاصة ما تقرر منها بنص في الكتاب والسنة، أو قامت على أصل من الأصول الدينية الشرعية أو على مقصد من المقاصد الشرعية المعتبرة، هذه النواهي والأوامر تشكل قيوداً تجب مراعاتها في جميع أنواع العلاقات سواء كانت دولية أو داخلية من أي نوع فالاعتبار المذهبي محترم في أي علاقة كمشروعية عليا [1].

وتقييد الحرية بالمشروعية الإسلامية يبعدها عن الحريات التي نراها في النظم الأخرى، حيث أن النظم الوضعية تقر حرية الفرد، ولو كان مفسداً، وتقر حرية الناس ولو كانت عدوانية، وتجعل الدين لهواً ولعباً، حتى وصل الأمر إلى عبادة الدودة وتأليه الأعضاء التناسلية، واتخاذ الشيطان إلهاً، كل ذلك في عبث يتمكن به اللاعبون من التنقل بين الأديان المختلفة بحرية مطلقة، ولذلك صار واجباً الالتزام بالإطار العام الذي يوجه الحركة نحو الغاية المقصودة والهدف الصحيح.

٢) حرية الرأي والفكر :

يحرص الإسلام على حرية الرأي والفكر، ولذلك دعا الإنسان إلى التأمل في كون الله الفسيح، ليستنتج بعقله ما يرى، يقول الله تعالى ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2].

وقد رأينا أن الإسلام أقام الإيمان والاعتقاد (وهي أهـم مسـائل الدين على الإطلاق) على حرية الإرادة والاختيار، ولذا كان من باب أولى إعطاء الناس حرية الرأي والفكر في سائر الأحوال والأقوال.

والإسلام حين يأمر بالنصح، ويدعو إلى ضرورة المشاورة يؤكـد ضرورة الفكر

---

(١) مصنفة النظم الإسلامية ص ١٧٧ – ١٧٩ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٢٠ .

الحر، وإبداء الرأي النزيه لأن النصح والمشاورة لا يتمان إلا بالحرية.

وحرية الفكر تنتج حرية الرأي والنقد والنصح، وذلك واضح من مبدأ الإسلام في تكوين شخصية المسلم الذاتية، التي تعتمد على القوة في الصدق والصراحة في النصح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهر بالحق وإرشاد الضال، والقيام بالدعوة ..إلخ .

إن الحرية الحقيقة تجعل الإنسان يؤمن بدينه، ويلازم الولاء لأمته، ويشعر بالمسئولية تجاه من صان له حريته وكرامته .

إن هذه الصفات الذاتية للإنسان المسلم لا تتضح، ولا تتكون إلا في إطار نظام يضمن حرية الرأي، والتفكير، وهو النظام الإسلامي.

إن الاستبداد في أي عصر يكمم الأفواه، ويمنع كلمة الحق ويصادر حرية الرأي، ولذلك يحرم الوطن من بنيه، ويفرغ القلوب من الحب والإخلاص، ويقتل روح الولاء التي يجب أن تربط الإنسان بوطنه وأمته.

ولو جئنا لسيرة رسول الله ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده لوجدنا مدى حرصهم على إبداء الرأي، والنصح في إطار من الحرية الإيجابية والإرادة الطليقة.

فقد خرج الرسول ﷺ من المدينة في ذي القعدة سنة ست للهجرة معتمراً لا يريد حرباً، فلما كان في الطريق إلى مكة وصل إلى الحديبية نزل بها، وبعث عثمان بن عفان ﷺ إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت (الكعبة) ومعظماً لحرمته.

وبعد مفاوضات ولقاءات أرسلت قريش سهيل بن عمرو لعقد الصلح وقالت له: **ائت محمداً فصالحه على أن يرجع عنا عامه هذا، فو الله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً.**

وتم توقيع الصلح ، وكان من شروط الصلح :

أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه، ومن جاء قريشاً ممن كان مع محمد ﷺ لا يردوه عليه .

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب ﷺ فأتى أبا بكر ﷺ

وقال له : يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

قال: بلى .

قال: أو لسنا بالمسلمين ؟

قال: بلى .

قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال: بلى .

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال أبو بكر: يا عمر، إلزم غرزه [١] فإني أشهد أنه رسول الله .

قال عمر : وإني أشهد أنه رسول الله .

ولما لم يجد عمر عند أبي بكر ما يقنعه أتى الرسول ليناقشه، فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله ؟

قال: بلى .

قال: أو لسنا بالمسلمين ؟

قال: بلى .

قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال: بلى .

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

قال الرسول ﷺ أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني.

قال راوي الحديث: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق، وأصوم، وآلو، وأعتق من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً [٢].

فهذا الموقف من عمر ومن أبي بكر ومن رسول الله ﷺ برهان واضح يدل على ما كان بين رسول الله وأصحابه من حرية.

و لم يكن هذا الموقف هو الموقف الوحيد بين الرسول وأصحابه، وإنما اكتفينا به مثلاً

---

(١) الزم غرزه: أي الزم أمره، والغرز للرحل بمنزلة الركاب للسرج .

(٢) سيرة النبي – ابن هشام جـ٢ صـ٣٠٨ – ٣١٧ وما بعدها .

لأن الصحابة كانوا أحراراً مع الرسول ﷺ في جميع مواقف السياسة والحرب، والسلم والمعاهدات وكانوا كذلك أيضاً في جميع الشئون الخاصة، لا يجدون حرجاً في أن يبوحوا بما في صدورهم، ومن أن يعلنوا مخالفتهم، أو معارضتهم.

فإذا ما بلغنا عهد الراشدين خاصة، وجدنا الحريات العامة، بأوسع معانيها بين جميع الطبقات، وبين الصحابة خاصة، وفي جميع الشئون.

من ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه سوى بين الناس في العطاء، يوم تولى الخلافة، فأتاه عمر يقول له [١] : أتسوى بين من هاجر الهجرتين، وصلى القبلتين، ومن أسلم عام الفتح (أي فتح مكة) خوف السيف؟

فقال له أبو بكر: (إنما عملوا لله، وأجورهم على الله، وإنما الدنيا دار بلاغ) [٢].

فقال عمر: لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه فأظهر عمر رأيه، وعارض به أبا بكر وهذا حقه المشروع، فلما تولى عمر الخلافة ووضع الديوان فضل السابقين في الإسلام، وترك رأي أبي بكر رضي الله عنه .

ولعل هذا الموضوع من أوائل الموضوعات الاجتهادية التي اختلف فيها الشيخان: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وكان النقاش فيها حراً بين صاحبي الرسول، وكل منهما طبق المذهب الذي يعتقد صوابه، حيث لا نص فيه.

ومن ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه يوم أحس بقرب خاتمته، استشار الناس فيمن يخلفه، ثم قرر أن يعهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه و لم يرق ذلك لطلحة والزبير رضي الله عنهما لأنهما كانا يظنان أن عمر يحب التسلط على الناس قبل الخلافة فكيف إذا هو ولي الخلافة؟

فاستأذنا على أبي بكر رضي الله عنه فأذن لهم.

فقالا له : **ماذا تقول لربك وقد استخلفت علينا عمر ؟**

قال أبو بكر: أقول استخلفت عليهم خير أهلك [٣] لأن تلك هي رؤية أبي بكر في صاحبه عمر بعدما خبره واستشاره وتعامل معه وقد اقتنع طلحة والزبير برأي أبي بكر .

---

(١) الأحكام السلطانية للفراء صـــ٢٢٢ .

(٢) البلاغة كالبلغة: ما يتبلغ به من العيش ولا فضل فيه (التاج) .

(٣) سيرة عمر لابن الجوزي صـــ٣٦ .

وتشهد هذه القصة بحرية الصحابة في إظهار رأيهم وإن خالف الخليفة، أو كان مضاداً لمن سيكون خليفة .

وكان لعمر عبد نصراني اسمه (أشق) تحدث بعدما دخل في الإسلام بعد وفاة عمر فقال: **كنت عبداً نصرانياً لعمر، فقال لي عمر: أسلم حتى نستعين بك على بعض أمور المسلمين، لأنه لا ينبغي لنا أن نستعين على أمورهم بمن ليس منهم، فأبيت فقال ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ فلما حضرته الوفاة أعتقني وقال: اذهب حيث شئت** [(١)].

ومن الأمثلة الواضحة على الحرية في النقاش، ولا سيما في المسائل الشرعية التي تهم الناس، وتحتاج إلى حكم واضح صحيح ما رواه عبد الله بن مصعب ﷺ حيث قال: **قال عمر بن الخطاب وهو على المنبر: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية، وإن كانت بنت ذي القصة (يعني يزيد بن الحصين وكان من الأغنياء) فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال.**

فقالت امرأة من صف النساء طويلة: ما ذاك لك !

قال: ولم؟

قالت: لأن الله تعالى يقول ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [(٢)].

فقال عمر: امرأة أصابت، وأخطأ عمر [(٣)].

يروي الطبري أن عمرو بن سوادة قال: صليت مع عمر الصبح، فلما انصرف قمت معه وسرت بجواره فقال: ألك حاجة؟

قلت: نعم حاجة.

قال: فالحق بي.

قال: فلحقت به فلما دخل أذن لي، فإذا هو على السرير، ليس فوقه شيء.

---

(١) المصدر السابق صـ٨٧ ، ١٤٨ وفي رواية أن اسمه (أشق).

(٢) سورة النساء الآية ٢٠

(٣) تاريخ الطبري جـ٤ صـ٢٢٥ .

فقلت له: نصيحة.

فقال: مرحباً بالناصح غدواً، وعشياً.

وفي هذه الحادثة دلالة على حرية مناقشة الخليفة ونصحه وإبداء الرأي معه.

لقد دعا الإسلام إلى حرية الرأي والفكر، وطبقها السلف الصالح في نظامهم وحياتهم، في إطارها المشروع، ومن المعلوم أن الحرية في الإسلام لا تتجزأ ولا يصح إهمالها أبداً، والإقرار بها ردع لمن يدعي مناهضة الإسلام للحرية، وقهره للناس... ويكفي للرد على الأدعياء ما ذكرت من أمثلة ... وغيرها كثير ... ولكن الغرض مرض والشافي هو الله تعالى .

لقد أباح الله للناس الاختلاف في الفروع[1] وجعله جزءاً من حريتهم الفكرية والكلامية، فلقد أقام الفقهاء وأصحاب المذاهب في هذا المجال صرحاً لهذه الحرية، يشهد له ما نراه من اختلاف المذاهب الفقهية، والمحاورات العديدة في اتباع المذهب الواحد حتى قدموا في ذلك زادا وفيراً، وتراثاً واسعاً في كافة العلوم الإسلامية .

لقد استفاد المسلمون من حقهم في الحرية، وجعلوه طريقاً للبناء والرقى ... ولم يفسدوه بالفوضى والعبث .

إن قيمة الحرية قيمة بناء تحتاج لحكمة عاقلة، واستقامة دقيقة حتى لا تكون سبباً للضرر والضياع .

---

(١) الأصول واحدة، لا يدخلها الأختلاف، والمناقشات حولها كانت في الأدلة والبراهين، ولذلك لا يجوز الاختلاف فيها فالله واحد لا شريك له ومحمد رسول الله ﷺ وحقائق الإيمان ثابتة، فلا اختلاف فيها ... فإن جاءت فئة أخذت تختلف في الأصول، وتكفر، وتفسق فهي على خطأ لا يجوز .

القيمة الرابعة
الكرامة الإنسانية

الكرامة من حقوق الإنسان الطبيعية، وهى التي تحافظ له على إنسانيته، وتقيم معاملاته على أساس من القيم الخلقية، والنفسية التي تليق به، وأساس هذه القيمة قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (١).

وفي الآية تعداد ما أكرم الله به الإنسان، فهو مفضل على سائر الخلق بنعم عديدة، وأرزاق طيبة، وضمان حريته في الحركة والتنقل، وكل شيء مسخر له، هذا التكريم ملازم لخلقة الإنسان، وهي معه منذ وجوده، فلا يصح لنظام أن ينتقصها أو يقضي عليها.

إن تكريم الإسلام للإنسان واضح وثابت في محاور عديدة .

فلقد أحاط الله الإنسان بما يكفيه، حيث يكفل له غذاءه وهو في بطن أمه، فإذا ما خرج إلى الدنيا جاءه لبن أمه بما يكفيه، وبحنان الأم وشفقه الأب يربي الإنسان وينشأ ويتعلم، وحينما يبدأ في الاعتماد على نفسه يجد أمر الحياة ميسراً أمامه كما هو ميسر للناس أجمعين فلقد تكفل الله تعالى بذلك لآدم عليه السلام ولبنيه حيث يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (٢).

ومن التكريم إحاطة الإنسان بالحسن والجمال حيث جعله الله يعيش في كون بديع، وطبيعة ساحرة، ليتمتع ويمرح، ويعيش ويرضى.

ومن التكريم تسخير الله الكون لخدمة الإنسان، وتمكينه من كافة المخلوقات لتكون تحت إمرته.

ولعل قمة التكريم أن أرسل له رسله، وأنزل عليه وحيه، وكلفه بالإسلام ليكون بالإيمان أعظم مخلوق في هذا الوجود.

وقد تعتري الإنسان لحظات ضعف تؤدي به إلى ارتكاب خطأ، أو فعل منكـــر

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠

(٢) سورة طه الآية ١١٨ .

وحينئذ تأتيه رحمة الله ويحيطه سبحانه وتعالى بالأمل، ويفتح له باب تصحيح الخطأ الذي وقع فيه.

إن باب التوبة والمغفرة أمام المعاصي موجود يقول الله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾[1] ويتضاعف فضل الله على التائبين فيجعل سيئاتهم حسنات يقول الله تعالى ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[2].

وقد حدد الله تعالى عقوبات على المعاصي والآثام وربطها بسببها ولا يصح مطلقاً تجاوز ما شرعه الله في العقوبة لأن ذلك تعد على الكرامة الإنسانية.

لا يجوز أن تهدر كرامة أبداً، أو يباح دم وشرف بلا سبب ، سواء كان الإنسان مسلماً أو غير مسلم، ولا يحل شرعاً السب والشتم، وقذف الأعراض، واختراع صور للتعذيب لا يتصورها عقل كريم، كما لا يجوز التمثيل بأحد حال الحياة أو بعد الموت، ولا يصح أثناء الحرب قتل الأطفال، والنساء، والشيوخ، ورجال الدين وهم في صوامعهم، وبيعهم ما داموا لا يشاركون في الحرب والعدوان.

إن العقوبة تطهير وزجر، وتربية وتهذيب، ومنهج وضعه الله تعالى لإصلاح الفرد، وترقية الحياة وحماية المجتمع الإسلامي من أي انحراف .

إن الإسلام يحافظ على الكرامة الإنسانية للإنسان طفلاً أو امرأة أو شيخاً، حراً أو عبداً، عاقلاً أو مجنوناً، ويكفي ما قاله رسول الله ﷺ في حجة الوداع: **إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا.**

إن الإنسان في الإسلام يكرم بالحقوق تصل إليه، كما يكرم بالواجبات يؤديها، وإذا ما أخطأ يؤخذ على يديه بالعدل، والقسطاس المستقيم.

---

(١) سورة النساء الآية ١٧ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٧٠ .

إن الإسلام لا يعاقب أحداً بجريمة غيره، ويجعل الخطأ مسئولية صاحبه فقط يقول الله تعالى ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[١] ويقول سبحانه وتعالى ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[٢] ويقول سبحانه وتعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[٣] وتخصيص العقوبة لمن ارتكب الجريمة أمر مقرر في شرع الله، كما هو مسلم في عقول البشر ... وهو هو في الدنيا وفي الآخرة كذلك.

ولا يقر الإسلام العقوبة الجماعية إلا إذا تعاونت الجماعة على الجريمة، ولا يأخذ أحداً بظنه بل يأمر بالتثبت واليقين، والبعد عن الظن والتخيل لأن ذلك يؤدي إلى العدوان والظلم، يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[٤]ويقول سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[٥] والآيات واضحة الدلالة في أن عدم التثبت مما يقال أمر يوقع صاحبه في الندم والجهالة، وأن الظن قد يؤدي بصاحبه إلى الإثم .

والعقوبة في الإسلام تقدر بقدرها، يقول الله تعالى ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾[٦] والآية في حقيقتها دعوة للعفو والصفح لبدئها بأسلوب الشرط ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ...... ﴾ المقتضى لمثلية الجزاء للشرط، لأن اشتراط المثلية في العقوبة أمر مستحيل عقلاً وهذا يرجح الصفح والعفو مرة أخرى .

لقد عرفت الحضارات الحديثة اعتقال الإنسان وحبسه احتياطياً، ومنعه من السفر

(١) سورة فاطر الآية ١٨ .

(٢) سورة الطور الآية ٢١ .

(٣)سورة المدثر الآية ٣٨ .

(٤) سورة الحجرات الآية ٦ .

(٥) سورة الحجرات الآية ١٢ .

(٦) سورة النحل الآية ١٢٦ .

بالظن، ومنعه من الحركة، وإخضاعه للإجراءات الاستثنائية بلا سبب معروف إلى آخر ما نسمع وهذا يجعلنا نحمد الله تعالى أن أكرمنا بالإسلام، وتفضل علينا بشرعة الحنيف.

لقد كرم الله الإنسان، وحافظ عليه، ولم يره أبداً حيواناً أعجمياً، أو شيطاناً رجيماً، فهو صورة الله في الأرض، وخليفته في الدنيا، ويا ليت أصحاب الحضارات الحديثة يعلمون.

القيمة الخامسة
العــدل

العدل إعطاء كل ذي حق حقه بلا نقص أو تزيد لأن في النقص ضياع الحق، وفى الزيادة ضياع حق الغير، وقد جاءت شريعة الله تعالى بالعدل في كل ما أمرت به أو نهت عنه، ولذلك كان العدل التام في تنفيذ حكم الله تعالى الذي جاءت به الشريعة التي أوحي الله بها إلى نبيه محمد ﷺ .

والعدل أساس الحكم في النظام الإسلامي، وهو غايته الكبرى، وعماد بقاء الملك، وبه يعيش الناس الأمن والطمأنينة .

وقد جعل الإسلام العدل قاعدة أصلية تعم كافة العلاقات الاجتماعية في المجتمع المسلم، فعلى الحاكم أن يعدل، وعلى المحكوم أن يعدل أيضاً، والكل مكلف بالعدل ومسئول عن تنفيذه غنياً كان أو فقيراً، عالماً أو عامياً، رجلاً أو امرأة، صغيراً أو كبيراً وهكذا ...

يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[١] فهو أمر للناس جميعاً، ليلتزموا العدل في كل مجالاته وبجميع صوره وفى كافة جوانب الحياة، وبضميمة الإحسان إلى العدل في الآية يظهر أن المقصود بالعدل هو تحقيق الجمال والخير وصيانة الحقوق للناس أجمعين.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ بالعدل كما أمر به سائر الناس، يقول الله تعالى ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[٢].

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن النفس الإنسانية قد تميل مع الهوى، وقد يكون الحب والبغض من عوامل إيثار الباطل على الحق، والظلم على العدل، لهذا نزل قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٢) سورة الشورى الآية ١٥ .

خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[1].

وفي الآية ينادي الله المؤمنين بصفتهم فيقول ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ إحياء لحمية الإيمان في قلوبهم ليسرعوا إلى العدل والاستقامة، وكأن الله تعالى يقول لهم: إن مقتضى إيمانكم الاستقامة، فكونوا مبالغين في الاستقامة، باذلين جهدكم فيها لله، وهي إنما تكون بالنظر في حقوق الله وحقوق خلقه وتتم بالأخذ بها عملياً في سائر الأقوال والأفعال ، فانظروا وكونوا ﴿ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ أي بالعدل فلا تتركوه لمحبة أحد، ولا لعداوة أحد﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ ﴾ أي لا يحملنكم ﴿ شَنَـَٔان ﴾ أي شدة بغض وعداوة ﴿ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ ﴾ في حقهم وتجوروا عليهم، بل اعدلوا لأن العدل أساس التقوى وحياة الإيمان، فإنا لا نأمركم به من حيث ما فيه من توفية حقوق الأعداء، بل من حيث ما فيه من توفية حقوقكم في الاستقامة وحظكم في التقوى والإيمان [2].

وفي هذا تنبيه عظيم ولفتة رائعة لأن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله والمتصفون بهذه الصفة من السوء، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه؟!!

وقد أمر الله بالعدل في القول أيضاً يقول الله تعالى ﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ ﴾[3] وبهذا يكون العدل قيمة ثابتة لذاتها لا تتأثر بقريب أو غريب، ولا تتغير لعدو أو حبيب.

وهذا الأمر نتوجه به إلى كثير من الذين يتولون السلطات العامة، أو من لهم صلة بهم، وبخاصة في زماننا الذي كثرت فيه المحسوبية، وامتلأ بالمجاملات وضياع الحقوق وأصبح المال والوجاهة والسلطة أساس نيل المأمول .

---

(١) سورة المائدة الآية ٨ .

(٢) محاسن التأويل ٦/١٩٠٠ – ١٩٠١ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٥٢ .

أما في الخلافات الداخلية التي تقع بين المؤمنين، فإن الصلح العادل هو الأصل الذي جاء به القرآن الكريم يقول الله تعالى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[١].

وكما أمر الله تعالى بالعدل، فإنه نهي عن الظلم نهياً شديداً، وتوعد الظالمين العذاب الغليظ في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢].

ومنها ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣] ومنها ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٤].

أما السنة فقد امتلأت بأوامر العدل، ونواهي الظلم، قولاً وعملاً ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى في الحديث الذي رواه رسول الله ﷺ (**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا**)[٥]. أي فلا يظلم بعضكم بعضاً، ويقول ﷺ : (**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**)[٦].

ورفع ﷺ من شأن دعاء المظلوم حتى يرتدع الظالم عن فعله فقال ﷺ (**اتقوا دعاء المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**)[٧] ويقول ﷺ (**دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه**)[٨].

وقد أوجب الإسلام العدل بين أبناء الأسرة الواحدة كما أوجبه في المجتمع، فقد ثبت في صحيح البخاري: عن النعمان بن بشير أنه قال: **نحلني (وهبني) أبي نحلاً، فقالت أمي: لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ، فجاء أبي إلى رسول الله ﷺ**

---

(١) سورة الحجرات الآية ٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥١ .

(٤) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

(٥) الإتحاف السنية في الأحاديث القدسية ص ٢٦٣ .

(٦) رياض الصالحين من حديث جابر ص ٥٤ .

(٧) رياض الصالحين من حديث جابر ص ٥٤ .

(٨) فيض القدير شرح الجامع الصغير جـ٣ صـ٥٢٦

ليشهده على صدقي.

فقال ﷺ : أكل ولدك نحلت مثله؟

قال أبي : لا .

فقال ﷺ : اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم.

وفي رواية قال ﷺ : اذهب فإني لا أشهد على جور.

يقول النعمان راوي الحديث: فرجع أبي فرد تلك الصدقة[١] وهذه لمحة طيبة في ضرورة العدل بين الأبناء لينشأوا في مودة وتآلف، لأن التفرقة بينهم في العطية تؤدي إلى التشرذم والتفرق والكراهية .

وقد بشر الرسول أصحابه بالعدل، ودعا إليه، وطبقة طوال حياته حتى انتشر مفهوم العدل بين الناس، وأصبحوا لا يرون حرجاً في المطالبة به، خطأ أو صواباً، **حتى تجرأ رجل اسمه " ذو الخويصرة التميمي " يوم حنين، فوقف على الرسول ﷺ وهو يعطي الناس، فقال: يا محمد! قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم ؟!!**

فقال الرسول ﷺ : أجل، فكيف رأيت؟

فقال: لم أرك عدلت !

فغضب رسول الله ﷺ ، ثم قال: ويحك! إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون)[٢].

وهذه القصة تدل على مدى انتشار روح العدل في عصر الرسول، وتشرب الناس له واعتباره أمراً لا حرج في التذكير به، أو حتى في المطالبة به.

وقصة أخرى أبلغ في الدلالة من سابقتها، وهي عتب الأنصار على الرسول ﷺ يوم حنين، حين رأوا أنه حرمهم من الفيء، وأعطى الناس، حتى كادوا يتهمون الرسول بقولهم (**لقي رسول الله قومه**) وكأنهم يريدون أنه نسي الذين نصروه، حتى دخل عليه سعد بن عبادة فقال: **إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في هذا الفيء الذي أصبت، سمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.**

---

(١) البخاري -كتاب الهبة- باب الإشهاد في الهبة جـ٥ صـ٢١١ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ٢ صـ٤٩٦ .

وبعد حوار طويل، جمع رسول الله ﷺ الأنصار وخطب فيهم، فكان مما قال: **(أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (بقلة خضراء ناعمة) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون – يا معشر الأنصار – أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم؟ والذي نفس محمد ﷺ بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار)** [١] .

فرد الأنصار قائلين: رضينا يا رسول الله .

إذا كانت قصة ذي الخويصرة عملاً فردياً، فإن قصة الأنصار عمل جماعي حينما رأوا أن نصيبهم من الغنيمة قد ضاع، فتحدثوا حتى كثرت منهم القالة، وتجمعوا وأرسلوا وافدهم إلى رسول الله ﷺ لمكاشفته في الأمر والوقوف على رأيه وحكمه.

والذي يهمنا من القصة هو إثبات أن العدل في الإسلام أصل من أصول نظام الحكم، وقيمة أساسية في المجتمع المسلم، وأن الناس لم يتحرجوا في عصر الرسول من مطالبة الرسول نفسه بتطبيقه.

وفي سيرة الخلفاء الراشدين صور من العدل عزت على الأشباه والنظائر وأصبحت كالمثل السائر، **فأبو بكر يقول في أول خطبة له (الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله)** [٢] .

وأما عمر فأقواله وأفعاله كثيرة، منها قوله ﷺ **(فأيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة، أو عتب علينا في خلق فليؤذني، فإنما أنا رجل منكم)** [٣].

ومنها قوله ﷺ (وإني لأرجو إن عمرت فيكم يسيراً، أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله، وألا يبقى أحد من المسلمين – وإن كان في بيته – إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله، ولا يعمل إليه نفسه، ولم ينصب إليه يوماً ...) [٤].

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ صـ٤٩٨-٤٩٩ وانظر صحيح البخاري جـ٧ صـ٣٢-٣٤ .

(٢) البداية والنهاية جـ٦ صـ٣٠٦ .

(٣) تاريخ الطبري جـ٤ صـ٢١٥ .

(٤) تاريخ الطبري جـ٤ صـ٢١٦ .

ومن أعماله ﷺ ما رواه الطبري: (**أتى عبد الله بن عمير عمر، وهو يفرض للناس — وقد استشهد أبوه يوم حنين — فقال : يا أمير المؤمنين! افرض لي، فلم يلتفت إليه، فنخسه.**

فقال عمر: حس (كلمة مفاجأة) وأقبل عليه ثم قال: من أنت ؟

قال: عبد الله بن عمير.

قال عمر: يا "يرفأ" (اسم خادم عمر) إعطه ستمائة، فأعطاه الخادم خمسمائة فقط، فلم يقبلها ابن عمير، وقال: أمر لي أمير المؤمنين بستمائة، ورجع إلى عمر فأخبره.

فقال عمر: يا يرفأ! أعطه ستمائة وحلة ...) [١] فزاد عمرﷺ عبد الله حلة عوضاً له عن موقف خادمه.

ومما رواه ابن الجوزي: **أن عمر قسم مروطاً (كساء من صوف أو حرير) بين نساء من نساء أهل المدينة، فبقي منها مرط جيد، فقال له بعض من عنده: أعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك يريدون أم كلثوم بنت على زوجته فقال لهم عمر: (سليط أحق به فإنها ممن بايع رسول الله ﷺ وكانت تزفر لنا القرب يوم أحد)** [٢].

وكتب عمر إلى أحد عماله يقول (**.... وأما العدل في رخصة فهو لقريب أو بعيد، في شدة وفى رخاء، والعدل — وإن رئى ليناً — فهو أقوى وأطفأ للجور، وأقمع للباطل من الجور ...)** [٣].

وفى رسالته ﷺ لأبي موسى الأشعري (**آس بين الاثنين في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك)** [٤].

ورضي الله عن عمر فقد استفاد من قول النبي ﷺ (**إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد ﷺ لقطع محمد ﷺ يدها)** [٥] **فأقام العدل رضي الله عنه بين رعيته**

---

(١) تاريخ الطبري جـ٤ صـ٢٢١ .

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب باب ذكر أم سليط جـ٥ صـ١٢٧ .

(٣) تاريخ الطبري جـ٣ صـ٥٨٥ .

(٤) مناقب عمر صـ١٥٠ .

(٥) صحيح البخاري —كتاب الأنبياء جـ٦ صـ٥١٣ .

جميعاً، وبدأ بنفسه وأولاده وأهل بيته، وبذلك كان صورة للمثالية الواقعية جسدها عمر بن الخطاب وهو يقود أمة الإسلام .

يقول شيخ الإسلام بن تيمية (**إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يرون أن الله ينصـــر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة**)[١].

إن العدل الإسلامي يقيمه الله تعالى على جناحين لابد منهما :

الجناح الأول : الأسس النظرية الصحيحة التي تحدد إطار العدل،وتوضح جوانبه، وتؤكد شموله لكل مناحي الحياة .... وتبين الشريعة الإسلامية حدود المسئولية في تطبيق هذه القيمة العظيمة .

الجناح الثاني : الإدارة القوية التي تضبط حركة الناس، وتنشر العدل بينهم وتأخذ على يد الظالم، وتقهر المعتدى بلا رحمة أولين ... ومن هنا كانت القوة الإسلامية سلاحاً في أيدي الولاة لضبط الأمور بالحق والصواب والعدل .

يقول ابن تيمية (... **العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان مما يجزي به في الآخرة**)[٢].

ومما يجب ذكره هنا أن الإسلام يحقق لأهل الذمة، وأصحاب الأقليات الدينية أن يتمتعوا بعدل الإسلام في الدولة الإسلامية، يقول النبي ﷺ (**من ظلم ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة**)[٣].

ويذكر للإسلام أيضاً أنه أقام العدل في كل مناحي الحياة وليس في النظام السياسي **فقط، فهناك عدل في الحقوق، وعدل في توزيع الواجبات وعدل في العطاء، وعدل في الأخذ .... إنه عدل شامل ومستمر على الزمن كله، لا ينظر إلى الشخص وإنما يرتبط بالمشروعية المترلة من عند الله تعالى .**

---

(١) الحسبة صـــ٦ .

(٢) الحسبة صـــ٩٤ .

(٣) فيض القدير جـــ٦ صـــ١٩ عن ابن مسعود .

القيمة السادسة
المســاواة

تهتم الشريعة الإسلامية بالمساواة اهتماماً واضحاً، وتجعلها من المبادئ العامة والقواعد الكلية التي تستنبط منها الأحكام الجزئية، وتتعامل الشريعة الإسلامية مع هذه القيمة بطريقة واقعية لأنها تقول بها في الحقوق العامة للإنسان، وفى غير الحقوق العامة تؤمن بالفوارق الفردية حتى لا يحرم إنسان من طاقاته وخصائصه .

وأساس هذه القيمة قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

وقوله ﷺ (**ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ألا لا فضل لأحمر على أسود إلا بالتقوى**)[2] ومعني ذلك أن تكليف الناس ابتداء مرتبط بأصل إنسانيتهم بلا عصبية، ولا عنصرية لأن البشر جميعاً أمام الله سواء يرجعون إلى أبيهم آدم، ويتجهون لخالقهم الواحد وهو الله سبحانه وتعالى .

ومن خصائص مشروعية المساواة في الإسلام أنها تتعامل مع الناس وفق استعداد كل منهم لأن تصور مساواة مطلقة بين الناس أمر لا يصح شرعاً ولا يجوز عقلاً .

لقد خلق الله الناس متفاوتين في قدراتهم العقلية والنفسية، وطاقاتهم البدنية وغيرها ولذلك كانت المساواة بين الناس متوازنة مع هذا الاختلاف، إذ لا يصح مساواة العالم بالجاهل في التكليف بالمسئولية العامة، ولا يجوز أن يتساوى القوي بالضعيف في الأجرة، ولا تستوى المرأة مع الرجل وبينهما فروق عديدة، ولا يستوي القاعدون مع المجاهدين في الأجر والثواب، ولذلك كانت المساواة بين الناس نسبية، وبخاصة في النواحي التي يحدث معها التفاوت في الخلقة والتعقل والنشاط .

أما الأمور المرتبطة بإنسانية الإنسان فإن المساواة فيها أمر ضروري والتمسك بها

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية صـــ١٤٤.

حقيقة شرعية .

لقد راعى الإسلام هذه الحقائق بدقة فساوى بين الناس في حق الحياة، وحق التملك، وحق العمل وحق التعلم، وحق السفر والإقامة ... وغيرها ... ولذلك كانت عقوبة العدوان على النفس واحدة يقول الله تعالى ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[١].

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٢]

ومن المعلوم أن القصاص يعني التساوي بين العقوبة والجريمة تحقيقاً للعدل، وصيانة للحياة.

والإسلام يحكم في الجوانب المتفاوتة بضرورة مراعاة الفروق الفردية بشرط أن تخلو المعاملات من الاستعلاء، والاستغلال والعدوان، وبذلك يشعر الإنسان أياً كان موقعة أنه أخذ حقه من غيره، وأعطى لغيره ما هوله ، وأنه مسئول عن كل ما يكلف به ويقوم به لأنه في وسعه وطاقته.

وفى إطار مراعاة الإسلام لهذه الفوارق نرى أنه كلف الرجال بأمور لم يكلف النساء بها، وأعطى للرجال حق القوامة، وجعل بأيديهم عقدة النكاح ... كما كلف الأغنياء بالعطاء وكلف الفقراء بالأخذ ... وكل هذه الفوارق بسبب الفروق الفردية العادية التي توجد بين الناس لا بسبب تميز عنصري، أو عصبية طائفية .

وساوى الإسلام بين الناس في العقوبة لأنه ربط العقوبة بالجريمة بغض النظر إلى مرتكبها لأن الجميع أمام شرع الله سواء .

ولذلك غضب رسول الله ﷺ ممن حاول أن يشفع لامرأة شريفة من بنى مخزوم وعمل على إنقاذها من إقامة الحد بعدما سرقت وأرسل أسامة بن زيد رضي الله عنه يستشفع لها عند رسول الله ﷺ

يروي مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها (**أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟**

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٩ .

فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فأتى أسامة بها إلى رسول الله ﷺ وكلمه فيها .

فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟

فقال له أسامه: استغفر لي يا رسول الله ﷺ الله .... وأدرك أسامة أنه ارتكب ذنباً يستحق التوبة والمغفرة.

فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب، **فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت لقطعت يدها)** [١] هكذا بلا تفرقة بين قريب وغريب، أو كبير وصغير، أو وزير وخفير، فبيّن ﷺ ضرورة الالتزام مع الناس بالحكم الشرعي وعدم تأثره بشخصية من يرتبط به، وأهمية تطبيقه على الجميع .

وكان رسول الله ﷺ يلتزم العدل فيما بينه وبين خدمه كما التزمه مع الناس، من ذلك ما حدث مع عقبة بن عامر ؓ صاحب بغلة الرسول ﷺ التي كان يقودها له ﷺ في الأسفار.

يقول عقبة: **(قدت برسول الله وهو على راحلته رتوة (مدة وجيزة) من الليل، ثم إن الرسول قال: أنخ فأنخت.**

فنزل عن راحلته ثم قال: اركب يا عقبة.

فقلت: سبحان الله، أعلى مركبك يا رسول الله، وعلى راحلتك؟

فأمرني فقال: اركب.

فقلت أيضاً مثل ذلك، ورددت ذلك مراراً حتى خفت أن أعصي رسول الله ﷺ فركبت راحلته ورحله، ثم زجر الناقة فقامت، وقادني رسول الله ﷺ) [٢].

ولما تولى الأمر الخلفاء الراشدون التزموا بمبدأ المساواة وطبقوه على أنفسهم وعلى أهليهم وعلى الناس جميعاً بصورة دقيقة تشهد لعظمتهم التي تعلموها من دينهم.

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الأنبياء – باب ٥٤ جـ٦ صـ٥١٣ .

(٢) نظام الحكم في الإسلام صـ٨٦ .

وأورد هنا بعض الأمثلة لدلالتها على سمو النظام الإسلامي، وعظمة الخلفاء الراشدين .

١) موقف عمر من عام القحط:

أصابت الناس في إمارة عمر ﷺ سنة جدب بالمدينة المنورة وما حولها، فكانت تسفي إذا هبت الريح ترابا كالرماد، فسمي ذلك العام عام الرمادة، فآلى عمر بن الخطاب وهو الخليفة ألا يذوق سمناً، ولا لبناً، ولا لحماً، حتى يحي الناس من أول الحيا (المطر) ليعيش كما يعيش الناس، ويطعم إذا طعموا فكان كذلك حتى أحيا الناس من أول الحيا، فقدمت السوق عكة (إناء من جلد) من سمن، ووطب إناء من جلد أيضاً من لبن، فاشتراهما غلام لعمر بأربعين، ثم أتى عمر فقال: يا أمير المؤمنين، قد أبر الله يمينك وأعظم أجرك، قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن، فابتعتهما بأربعين .

فقال عمر: **أغليت بهما، فتصدق بهما، فإني أكره أن آكل إسرافاً.**

وقال عمر: **كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما مسهم)** [١].

٢) موقف عمر عام الغلاء :

أصاب الناس سنة غلاء، فغلا السمن، فكان عمر يأكل الزيت حتى تقرقرت بطنه فخاطب بطنه قائلاً: **(قرقري ما شئت، فوالله لا آكل السمن حتى يأكله الناس)** [٢].

٣) موقف عمر من معاملة الخدم:

قدم عمر بن الخطاب حاجاً، فصنع له صفوان بن أمية طعاماً واستضافه، فرأي عمر أربعة رجال يحملون جفنة وضعوها للأضياف ثم انصرفوا .

فقال عمر: ما لى أري خدامكم لا يأكلون معكم، أترغبون عنهم؟!!

فقال سفيان بن عبد الله: لا والله يا أمير المؤمنين ولكنا نستأثر عليهم.

فغضب عمر غضباً شديداً، ثم قال: ما لقوم يستأثرون على خدامهم، فعل الله بهم وفعل، ثم قال للخدام: اجلسوا فكلوا، فقعد الخدام يأكلون، ولم يأكل معهم ليرى أصحابه ضرورة معاملة الخدم كأنفسهم وضيوفهم) [٣].

---

(١) تاريخ الطبري جـ٤ صـ٩٨ .

(٢) كتاب الزهد للإمام أحمد صـ١٧٧ .

(٣) مناقب عمر صـ١١٠ ط الخانجي .

وبذلك وضع عمر بن الخطاب أمراً يبين ضرورة معاملة الخدم معاملة حسنة، يأكلون مما يأكل سيدهم، ويلبسون مما يلبس ... ولذلك لم يأكل عمر ليتضح مراده، ويستجيب الناس لما يريد، وكأنه يقدم الخدم على نفسه لمالهم من حقوق عند مخدوميهم .

٤) أخذ نفسه بالمساواة :

كان عمر كثير الصوم فلما كان زمن الرمادة كان يفطر على خبز قد ثرد بالزيت، إلى أن نحروا يوماً من الأيام جزوراً (جملاً) فأطعمها الناس، وعرفوا طيبها وأتوا به لعمر، فإذا قديد من سنام ومن كبد، فقال عمر : أنى هذا؟

فقالوا: يا أمير المؤمنين، من الجزور التي نحرناها اليوم.

فقال: بخ بخ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها، وأطعمت الناس كرادسها، إرفع هذه الجفنة، هات غير هذا الطعام، فأتوا له بخبز وزيت فجعل يكسر بيده ويثرد)[1].

٥) توجيه العمال:

(لما قدم عتبة بن فرقد أذربيجان، والياً عليها من قبل أمير المؤمنين عمر، أتى بالخبيص (وهو طعام يأكله أهل أذربيجان) فلما أكله عتبة وجده حلواً طيباً، فقال: والله لو صنعت لأمير المؤمنين من هذا، فجعل له سفطين عظيمتين ثم حملهما على بعير مع رجلين، فسرح بهما إلى عمر، فلما قدما عليه فتحهما، فقال عمر: أي شيء هذا؟

قالوا: خبيص، فذاقه عمر فإذا هو شيء حلو .

فقال: أكل المسلمين يشبع من هذا في رحله؟

قالوا: لا .

قال: أما لا فارددهما، ثم كتب إلى واليه يقول له : (أما بعد فإنه ليس من كد أبيك ولا من كد أمك، أشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك)[2].

٦) موقفة من سعد بن أبي وقاص:

أتى مال إلى عمر بن الخطاب فجعل يقسمه بين الناس، فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس، بقوته حتى خلص إليه.

---

(١) مناقب عمر صـ١٦٦ .

(٢) مناقب عمر صـ١٦٥ .

فعلاه عمر بالدرة وقال: إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض، فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك [١].

وإذا ما عرفنا أن سعداً كان أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأنه فاتح العراق، ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عينهم عمر للشورى، وأن رسول الله ﷺ مات وهو عنه راض وأنه كان يقال له: فارس الإسلام ... إن عرفنا ذلك عرفنا مبلغ التزام عمر بتطبيق مبدأ المساواة .

٧) موقفه من عمرو بن العاص:

ويروى ابن الجوزى أن عمرو بن العاص، **أقام حد الخمر على عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب، يوم كان عامله على مصر، ومن المألوف أن يقام الحد في الساحة العامة للمدينة، لتتحقق من ذلك العبرة للجمهور وعامة الناس، غير أن عمرو بن العاص أقام الحد على ابن الخليفة في البيت، فلما بلغ الخبر عمر، كتب إلى عمرو بن العاص يقول (من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاصي: عجبت لك يا ابن العاصى لجرأتك عليّ، وخلافك عهدي، أما أني قد خالفت فيك أصحاب بدر ممن هو خير منك، واخترتك لجدالك عني، وإنفاذ عهدي، فأراك قد تلوثت بما قد تلوثت، فما أراني إلا عازلك فمسئ عزلك تضرب عبد الرحمن في بيتك، وقد عرفت أن هذا يخالفني؟ إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك، تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين! وقد عرفت أن لا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع)** [٢].

وهذا واضح الدلالة في أن المساواة ليست في فرض العقوبة فقط بل في كيفية تنفيذها أيضاً ، وصورة القيام بها .

٨) ومن الأمثلة التاريخية الهامة التي يستدل بها المؤلفون على عدم الهوادة في تطبيق المساواة ما صنعة عمر ﷺ مع جبلة بن الأيهم.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٣ صـ٢٨٧

(٢) مناقب عمر صـ٢٦٧ ط الخانجي .

يقول ابن سعد (لما أسلم جبلة بن الأيهم الغساني، وكان من ملوك آل جفنة، كتب إلى عمر ﷺ يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له عمر، فخرج إليه في خمسمائة من أهل بيته من عك وغسان، حتى إذا كان على مرحلتين كتب إلى عمر يعلمه بقدومه، فسر عمر وأمر الناس باستقباله، وبعث إليه بأنزال [١] وأمر جبلة مئتى رجل من أصحابه فلبسوا الديباج والحرير وركبوا الخيول معفودة أذناها، وألبسوها قلائد الذهب والفضة، ولبس جبلة تاجه، وفيه قرطا مارية – وهي جدته – ودخل المدينة، فلم يبق فيها بكر، ولا عانس إلا خرجت تنظر إليه وإلى زيه، فلما انتهى إلى عمر، رحب به، وألطفه، وأدنى مجلسه، ثم أراد عمر الحج، فخرج معه جبلة، فبينما هو يطوف بالبيت – وكان مشهوراً بالموسم – إذ وطئ إزاره رجل من بنى فزارة، فانحل إزاره فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزارى.

فاستعدى الفزاري عليه عمر ﷺ فبعث إلى جبلة فأتاه فقال: ما هذا ؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين! إنه تعمد حل إزاري، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف!

فقال له عمر: قد أقررت، فإما أن يرضى الرجل، وإما أن أقيده منك.

قال جبلة : ماذا تصنع بي ؟

قال: آمر بهشم أنفك كما فعلت.

قال: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين، وهو سوقة، وأنا ملك؟

قال: إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية !

قال: جبلة قد ظننت يا أمير المؤمنين أنى أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية إذن أتنصر.

قال عمر: إن تنصرت ضربت عنقك، لأنك قد أسلمت، فإن ارتددت قتلتك.

فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال: أنا ناظر في هذا ليلتي هذه، وقد اجتمع بباب عمر من حي هذا وحي هذا خلق كثير، حتى كادت تكون بينهم فتنة فلما أمسوا أذن له عمر في الانصراف، حتى إذا نام الناس وهدأوا تحمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام،

---

(١) ما يعد للضيوف خاصة .

فأصبحت مكة وهي منهم بلاقع، فلما انتهى إلى الشام تحمل في خمسمائة رجل من قومه حتى أتى القسطنطينية، فتنصر هو وقومه[١].

وهكذا كان عمر ﷺ حيث نراه يصر على تنفيذ حكم الله بدقة تامة مع ولده، ومع أصحاب رسول الله ﷺ ومع سائر الرعية ... لا يهمه غضب أحد ما دام عمله في رضي الله تعالى.

أما وجوه المساواة الأخرى، ولا سيما بين المسلمين، فقد جاءت في سياق ما فرضه الله عليهم من تكاليف، وأوجبه من واجبات، وأباحه لهم، من مباحات، ونهى عنه من محظورات، وندد به من مكروهات، وبشر به من ثواب وحسنى، وأنذر به من عقاب في الدنيا والآخرة، حيث سوى بين المسلمين في ذلك، ولم يميز أحداً على أحد، ولم ينقص من واجب أحد أو يزد فيه[٢].

يقول طه حسين (أغيظ ما أغاظ قريشاً من النبي ودعوته أنه كان يدعوها إلى هذه المساواة، ولم يكن يفرق بين السيد والمسود، ولا بين الحر والعبد، ولا بين القوى والضعيف، ولا بين الغني والفقير، وإنما كان يدعو إلى أن يكون الناس جميعاً سواء كأسنان المشط، لا يمتاز بعضهم عن بعض، ولا يستعلى بعضهم على بعض، وقد سخط قريش أشد السخط وأعنفه على النبي ﷺ لما أظهر من ذلك حتى لأكاد أعتقد أنه لو قد دعاها إلى التوحيد دون أن يعرض للنظام الاجتماعي والاقتصادي، ودون أن يسوى بين الحر والعبد، وبين الغني والفقير، وبين القوي والضعيف — أقول: لو قد دعاهم النبي إلى التوحيد وحده دون أن يمس نظامهم الاجتماعي والاقتصادي لأجابته كثرتهم في غير مشقة ولا جهد، أو لأجابه من قريش من أجاب، وامتنع عليه منها من امتنع، دون أن يلقى في ذلك مشقة أو عنتاً، ومهما يكن من شيء فقد سخطت قريش على النبي الكريم، لأنه عرض نظامها الاجتماعي وفرض عليها نوعاً من العدل لا يلائم منافع سادتها وكبرائها)[٣].

إن المساواة التي أقامها الإسلام بين الناس هي التي جعلت سلمان الفارسي، وبلال

---

(١) الطبقات الكبرى جـ١ صـ٢٦٥ .

(٢) الدستور القرآني لدروزة صـ٤٠٩ .

(٣) الفتنة الكبرى جـ١ صـ١٠ ، ١١ .

الحبشي، وصهيب الرومي في مقدمة أصحاب رسول الله ﷺ بما بذلوه من جهد وعمل وهي نفسها القيمة التي جعلت كل من يدخل في الإسلام ينسى عصبيته وقبيلته، ويخلص لله تعالى مؤمناً بأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

القيمة السابعة
حق المعارضة

تفتخر النظم الديموقراطية، بأنها تنظم المعارضة، وتحميها، وتجعلها شريكة في الحكم، والسياسة لأنها بذلك تستوعب سائر الآراء، وترضى جميع الناس.

والإسلام سبق هذه النظم بتقرير هذا الحق بمنهجه الخاص به الذي يحافظ على الرأي الصواب، ولا يصادر رأياً لمعارض.

إن الإسلام يقرر قيم الحرية، والشورى، والعدل وهذه بدورها تعد تأكيداً واضحاً لقيمة المعارضة لأن هذه القيم لا يمكن تصورها مع كبت الآراء ومصادره الفكر .

وقد سبق إن رأينا معارضات الصحابة من المهاجرين والأنصار لرسول الله ﷺ ولخلفائه من بعده .

وأساس حق المعارضة في الإسلام هو التواص على الخير، والنصح الخالص يقول الله تعالى ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[1].

ويقول سبحانه ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾[2].

ويقول النبي ﷺ (**الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**)[3].

إن النصيحة والتواصي بالحق والمرحمة تعنيان بوضوح أن شخصاً ما يعارض غيره ويحاول تغيير مساره، ويوجهه نحو الحق والصواب ولذلك كان القول بهما، والدعوة إليهما تشجيع للرأي المعارض ما دام ينشد الحق والصواب .

ويندرج في إطار أسس المعارضة الإسلامية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يقول الله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

---

(١) سورة العصر الآيات من ١ — ٣ .

(٢) سورة البلد الآيتان ١٧ ، ١٨ .

(٣) صحيح مسلم — باب بيان أن الدين النصيحة جـ٢ صـ٣٧

ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[١].

وحينما يتمتع الناس بالحرية وحق المعارضة في إطار إسلامهم وإيمانهم فإنهم لا يتركون معروفاً إلا ويأمرون به، ولا يرون منكراً إلا وينهون عنه، وبذلك ينتصر الحق، ويزهق الباطل، ويعيش الحاكم والمحكوم في تعاون مفيد في إطار شرع الله تعالى.

إن تنوع نشاط الناس، واختلاف ثقافتهم، وتعدد طاقاتهم، وقدراتهم لا يسمح لجميع الناس أن يقوموا بمهمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولذلك جعل الله الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر واجباً على الكفاية، يقول الله تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٢] .

والآية توجب هذا الواجب الكفائي لأن توجه الجميع لعمل ما أمر مستحيل، والواجب الكفائي المطلوب يقوم به البعض القادر عليه ، وهذا البعض هو الفئة المستفادة من قوله (**منكم**) ليوجهوا للحاكم ما يريدون من نصح وتوجيه .

والوجوب في الآية مستفاد من قوله (**ولتكن**) فإن اللام للأمر، ودخولها على الفعل المضارع يؤكـد الأمـر، ويثبته ويعطيه صفة الاستمرار وقد وصف الله هذه الفئة بأنهم ﴿ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ لتأكيد أهمية المعارضة النافعة الجادة.

يقول الزمخشري: **فإن قيل: من يباشر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ؟.. فالجواب: كل مسلم تمكن منه يقوم به إن لم يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضره عظيمة، أو أن فيه لا يؤثر لأنه عبث، ومع ذلك يستحب القيام بالأمر والنهي، أياً كانت نتائجه لإظهار شعار الإسلام، وتذكير الناس بأمر الدين**[٣].

ويضيف الغزالي في الإحياء، قوله : (**إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هو**

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

(٣) تفسير الزمخشري جـ١ صـ٤٥٢- ٤٥٣ بتصرف .

القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ولو طوى بساطه، وأهمل عمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، وإن لم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ...) [١].

هذا و لم ينس الإسلام دور المرأة في هـذا الموضوع، فقـد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[٢] فلم يفرق الله تعالى بين المؤمن والمؤمنة في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر بل وصفهما بهما، ومدحهما بذلك، وقد تتعين المرأة للقيام بهذا الواجب إذا حدثت ظروف تمنع الرجل من مباشرة هذا الواجب، كأن يكون المنكر في مجتمع النساء العاريات وحينئذ تتعين المرأة لهذا الواجب.

يقول الأستاذ/ رشيد رضا، في التعليق على الآية الكريمة، فأثبت الله للمؤمنات الولاية المطلقة ما لم ترتكب معصية دينية في خروجها للناس واختلاطها بهم لأن الضرر الأعلى يدفع بالضرر الأدنى، وتجنب الضرر مقدم على جلب المصالح .

ومن الواضح أن الآية لم تحدد ولاية معينة ولذلك فإنه يدخل فيها ولاية الأخوة، والمودة، والتعاون المالي والاجتماعي، وولاية النصرة الحربية والسياسية [٣].

ومراده أن مشاركة المرأة ثابتة في هذا المجال، وهي مسئولة عنه في حدود طاقتها.

والآية وهي تشرع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، على النساء والرجال، يدخل فيه ما كان بالقول، وما كان بالكتابة، ويدخل فيه الانتقاد على الحكام من الخلفاء والملوك والأمراء فمن دونهم، وكان النساء يعلمن هذا، ويعملن به، وكان الرسول ﷺ يتمتع بصفات رئيس الدولة الأمثل، ولهذا كان واسع الصدر، يقبل النقد، ويتحمل المعارضة، ويستمع إلى أقوال الصحابة، والسيرة النبوية مليئة بالحوادث، وكان الخلفاء الراشدون على خطى رسول الله ﷺ فيما شرعه لهم واكتفى هنا بمثلين وقعا مع الفاروق عمر بن الخطاب.

---

(١) إحياء علوم الدين جـ٧ ص٤ المجلد الثالث .

(٢) سورة التوبة الآية ٧١ .

(٣) نداء للجنس اللطيف ص ٧ .

فقد ورد في صحيح مسلم بسنده (**عن سلمان بن ربيعة قال: قال عمر: قسم النبي قسماً، فقلت: يا رسول الله ! والله لغير هؤلاء أحق به منهم.**

فقال ﷺ: إنهم خيروني بين أن يسألوني بالفحش، وبين أن يبخلوني، ولست بباخل[١].

وهناك مثال بارز يؤكد المساحة الكبيرة التي أعطاها الإسلام للناس في إطار المعارضة وإبداء الرأي وهو موقف عمر يوم صلح الحديبية

وقد سار الخلفاء بعد الرسول ﷺ على نفس المنهج، فبعد وفاة رسول الله ﷺ كان اجتماع سقيفة بني ساعدة، الذي وقع بين المهاجرين والأنصار مظهراً حقيقياً للحياة السياسية، وكان الأنصار أصحاب المبادرة فيه، ثم جاءهم بعض المهاجرين يمثلون المعارضة، وجرى نقاش طويل انتهى بتأييد رأي المهاجرين لما أوردوه من دليل، وتحقق ما ذهبوا إليه، وتمت بيعة أبي بكر، وكان بين الصحابة معارضات كثيرة وآراء مختلفة في مواقف قاموا بها نصرة للحق، وكانوا يؤمنون أن الاختلاف لا يفسد للود قضية .

ويعد من باب المعارضة الفكرية ما نراه في مجال العلوم الإسلامية، وما جرى بين العلماء من اختلافات فقهية حيث تعددت المذاهب، وكثرت الآراء وحاول صاحب كل رأي إثبات صحة ما ذهب إليه بالدليل ... ولقد كانت حلقات العلم صورة جلية للمعارضة العلمية بين الشيوخ وتلامذتهم .

واختلاف المحدثين هو الآخر برهان واضح على حرية الرأي، وحرية المعارضة، فلكل أن يجتهد ويبحث، ويبرز رأيه الذي انتهى إليه ما دام قد بذل جهده، واستفاد بكل الوسائل العلمية التي توصل إليها.

لقد كان تلاميذ الشيخ يعارضون شيخهم، إذا رأوا للمعارضة مخرجاً ودليلاً، وتعلموا الأدب مع شيخهم، فكانوا يناقشون الرأي ودليله ويحاولون أن يثبتوا عكس الرأي، أو ينقضوا دليله، ويوردون الرأي المعارض الذي يرونه صحيحاً .

كل هذه المعارضات في جو من الود والخير والرغبة في التعاون للوصول إلى الرأي السديد، والقول النافع تشهد بمدى تقدير الإسلام لقيمه الاجتماعية .

---

(١) الدستور القرآني لدروزة صـ٤٠٩ .

المبحث الخامس

الإسلام دين ودولة

كان الأحرى بنا أن ندع دراسة هذا المبحث لثبوته بدراسة المباحث السابقة لأن وجود القيم العقائدية، والدستورية العملية للنظام السياسي تأكيد واضح على أن الإسلام دين ودولة ... لكني آثرت الدراسة المستقلة لهذا المبحث لأكرر الرد على هؤلاء الذين يزعمون أن الإسلام خال من السياسية، وأنه دين ودعوة فقط وبخاصة أن العلمانيين ينون أراءهم على هذه المقولة الفاسدة مستعينين بقوى عديدة تحاول إبعاد الإسلام على قيادة الحياة، وعزله بعيداً عن نشاط الناس .

إن النظام السياسي في مجمله يهتم بضمان حقوق الأفراد، والجماعات، وينظم العلاقة بينهم، ويشرف على حركة شئون الناس الاقتصادية، والتربوية، والدينية ويصون الحاجات الضرورية للجميع، وينظم العلاقة بين الحاكم وبين المحكومين، ويعمل على تحقيق علاقات دولية صحيحة، ويضمن الأمن، ويحمى الدين، ويدافع عن البلاد والعباد.

وذلك هو النظام السياسي في مجمله.

يقول الماوردي (**والحاكم ملتزم في الأمور العامة بعشرة أشياء:**

أحدها:

حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع، أو زاغ ذو شبهة عنه، أوضح له الحجة، وبين له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروساً من خلل، والأمة ممنوعة من زلل.

الثاني:

تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين، حتى تعم النصفة، فلا يعتدي ظالم، ولا يضعف مظلوم.

الثالث:

حماية البيضة، والذب عن الحريم، ليتصرف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو بمال .

الرابع:

إقامة الحدود لضمان محارم الله تعالى عن الانتهاك وحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك

الخامس:

تحصين الثغور بالعدة المانعة، والقوة الدافعة، حتى لا يظهر الأعداء بغرة، ينتهكون فيها محرماً، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً.

السادس:

جهاد من عاند الإسلام، بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة ليقوم بحق الله تعالى في إظهار دينه على الدين كله.

السابع:

جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير خوف ولا عسف

الثامن:

تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعها في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

التاسع:

استكفاء الأمناء، وتقليد النصحاء، فيما يفوضه إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة.

العاشر:

أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال، لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة، أو عبادة، فقد يخون الأمين، ويغش الناصح[١]، وقد قال: الله تعالى ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٢].

فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة، حتى وصفه بالضلال إن اتبع

---

(١) الأحكام السلطانية صـ١٥، ١٦ .

(٢) سورة ص الآية ٢٦ .

الهوى، وهذا وإن كان مستحقاً عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة فهو من حقوق السياسة لكل مسترع، يقول النبي ﷺ (**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**)[١].

وفى المبحث السابق رأينا موقف الإسلام من القيم الدستورية، وعرفنا أن أكثر الآيات القرآنية الدالة على هذه القيم نزلت في مكة مما يدل على أن رسول الله ﷺ بدأ في مكة قبل الهجرة في وضع أساسيات الدولة الإسلامية.

إن الإسلام حمل للعالم عقيدة روحية، وتنظيماً كاملاً لشئون الدنيا كما هو واضح من تعاليم الإسلام بعد كماله، وتمامه.

لقد اهتم الرسول ﷺ في بدء الدعوة في مكة بتكوين الفرد المسلم وتأسيسه بالعقيدة الصافية ليكون عبداً مطيعاً لتعاليم الله تعالى، قادراً على تحمل ما يوكل إليه من أعمال ومسئوليات وكان ﷺ يربط المسلم بأخيه، ويزرع في قلب كل من أسلم ضرورة الولاء للإسلام والمسلمين .

وليس من المتصور أن تبدأ الدولة في الإسلام مع بدء الرسالة في مكة المكرمة لقلة عدد المسلمين، وعدم تمكنهم من أرض خاصة بهم، وعدم أمنهم على حياتهم لكثرة الاضطهاد الذي قابلهم به مشركو مكة.

ومن الحقائق الدينية أن العقيدة نزلت أولاً بصورة كاملة في مكة، وأخذ الرسول ﷺ يدعو إليها، ويعمل على صناعة المجتمع بها، ليكون مجتمعاً ربانياً صادقاً ... أما الشريعة، والنظم فإنها جاءت للناس مجزأة تبعاً لحاجتهم، وأقضيتهم بعدما أصبح لهم كيان وقوة في المدينة بعد الهجرة.

فالعقيدة هي صانعة المجتمع الإسلامي، والنظم هي التي تساعده على صنع حضارته، ومدنيته، وتقدمه.

ولهذا فإن من المسلم عقلاً — **وهو الواقع** — أن النظام السياسي في الإسلام ارتبط بالحقائق التالية:

أولاً :

البدء بالتفكير النظري لتأسيس الدولة ذات النظام الإســـلامي وذلك قبل الهجرة في

---

(١) صحيح مسلم — كتاب الإمارة — باب الإمام العادل جـ١٢ صـ٢١٣ .

مكة، فبرغم أن المسلمين لم يكونوا أمة في مكة، إلا أنهم تجمعوا حول الرسول ﷺ مؤمنين به، في حب وتواد، ونزعوا من قلوبهم حمية الجاهلية، وصاروا عبيداً لله مخلصين، رغم ذلك فإنهم أملوا، ومعهم رسول الله ﷺ في الاستقلال عن المجتمع المكي، والحصول على أرض تستقر فوقها الدعوة، وتقوم فيها الدولة، وتطبيق النظام السياسي، ومن الأعمال ذات الدلالة على هذا الاتجاه ما يلي:

١) ما رواه ابن هشام في السيرة **أن أبا طالب جاء للنبي ﷺ وقال له: يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك، وليأخذوا منك.**

فقال رسول الله ﷺ نعم، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم.

فقال أبو جهل: نعم، وأبيك، وعشر كلمات.

قال ﷺ : **تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه .**

فصفقوا بأيدهم، ورفضوا، ونفروا، وغضبوا[1] لأنهم يعلمون أنها كلمة ملزمة تتضمن مفهوم أن العبادة كلها لله وحده، وهذا يعني الالتزام التام بدين الله تعالى .

ففي هذه الحادثة يتكلم النبي ﷺ عن السيادة الإسلامية التي يدين لها العرب والعجم وهذه السيادة لا تكون إلا في دولة وحكومة.

٢) يروي ابن هشام أن رسول الله ﷺ اجتمع مع أصحابه عند بيعة العقبة الثانية فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: **أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.**

فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم **قال: نعم، والذي بعثك بالحق (نبياً) لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً (عن كابر) .**

فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ ، أبو الهيثم بن التيهان.

فقال أبو الهيثم: **يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعـوها — يعني**

---

(١) سيرة النبي — ابن هشام جـ١ صـ٤١٧، الطبقات الكبرى جـ١ صـ٢٠٢ .

اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

قال: ابن هشام، ويقال: الهدم الهدم (يعني الحرمة) أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم.

قال كعب بن مالك : وقد قال: رسول الله ﷺ : **أخرجوا إليّ منكم اثنى عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بمن فيهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس** (١).

وهذه البيعة تدل دلالة صريحة على بعض التنظيم السياسي، مثل تعيين النقباء والاستعداد لحرب الخصوم، ووضع أسس العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ومنهجية الشورى، كما أن البيعة تعد من أهم دعائم النظام السياسي.

٣) تروي كتب السيرة أن رسول الله ﷺ بذل جهداً كبيراً مع القبائل لينصروه، وليعتمد عليهم في نشر الدعوة، وليتحقق من إيمانهم أو انضمامهم له وجود الجماعة ذات الهدف الواحد، وإن اختلف دينها، فذهب إلى ثقيف بالطائف، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام فأبوا وردوه رداً سيئاً (٢).

وكان ﷺ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج بمنى وعرفة، ويقول لهم (**يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم الله أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا دعوتي، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به**) (٣).

وعرض ﷺ الأمر على قبائل كلب، وبني حنيفة، وبني صعصعة، في المواسم وغيرها وكان ﷺ لا يسمع بقادم، يقدم مكة، له اسم وشرف إلا تصدي له وعرض عليه ما عنده(٤) واستمر على ذلك الحال حتى التقى به الأنصار.

---

(١) سيرة النبي – ابن هشام جـ١ صـ٤٤٢، ٤٤٣ .

(٢) السيرة النبوية جـ١ صـ٤١٩ .

(٣) المصدر السابق جـ١ صـ٤١٣ .

(٤) المصدر السابق جـ١ صـ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ بتصرف .

وكان ﷺ يطلب من القبائل أن يؤمنوا بدعوته، وأن يصحبهم إلى ديارهم ليكونوا معاً مجتمعاً إسلامياً يعمل لله تعالى.

وهذه كلها مواقف سياسية فهو ﷺ يطلب النصرة، ويجمع الناس، وينشر الدعوة، ويحدد المنهج والطريق.

٤) عمل ﷺ على حماية المسلمين، وهم قلة في مكة حتى لا يتمكن أعداؤهم منهم، فآخى بينهم في مكة ليتقوى بعضهم ببعض، وتنمحي الترعة القبلية من بينهم، ويوجد بينهم الولاء لله ورسوله، فلقد آخى ﷺ بين عمه حمزة ومولاه زيد بن حارثة، وبين عبيدة بن الحارث وبلال بن رباح، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة.

كما أمر ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، ويقول ابن إسحاق (**فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانة من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض يجعل الله لكم فيها فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت الهجرة إلى الحبشة أول هجرة في الإسلام**) [1].

ثانياً :

لا يصح تصور أن النظام السياسي في الإسلام وجد كاملاً من اللحظة الأولى، لأن مكوناته التطبيقية وجدت شيئاً فشيئاً وهذا أمر يتفق مع نشوء وتطور كل شيء فحين الغزو يعين القائد، وبعد الغزو توزع الغنائم، وبعد الحدث يكون القضاء ولكل حدث حديث، ولكل عمل رجال .

إن النظم السياسية المعاصرة لم تعرف إلا في القرون الأخيرة، وهي دائمة التطور، والتغيير، وهي ليست صورة واحدة، وإنما تتعدد بتعدد الأوطان، وتنوع الأفكار، والتوجيهات، ولذلك كان من الصواب أن لا تهيمن الصور العامة المتغيرة على حقائق الدين الثابتة .

إن الشريعة وضعت القيم والمبادئ الأساسية، وتركت التطبيق العملي للوقائع

---

(١) السيرة النبوية جـ١ صـ٣٢١ ، ٣٢٢ .

والأحداث، وهذا هو الأقوم والأفضل.

ثالثاً:

قياس النظام السياسي في الإسلام على ضوء معطيات العصر الحديث لا يجوز، فليس الإسلام نظاماً ملكياً، أو جمهورياً، أو ديموقراطياً، أو ديكتاتورياً ... لأنه هيكل عام، يقوم على مقومات أسياسة تحكمه، وتسيره، وبعدها لا يهم المسمى ... ومن المعلوم أن قياس الشاهد على الغائب لا يجوز، ومحاولة نقد الماضي بمنهج الحاضر ليس أسلوباً مسلماً، ولابد من مراعاة الزمان، والمكان، وكافة الظروف المؤثرة .

لقد أخذ النظام الإسلامي مسميات عدة ...

فهو في عصر البعثة الرسول والرسالة .

وفى عهد أبي بكر هو الخليفة والخلافة .

وفى عهد عمر هو أمير المؤمنين والإمارة .

وهو الإمام، وهو الراعي، وهو الوالي.

فأي نظام يلتزم المشروعية الإسلامية، من خلال قيم الإسلام، ومبادئه فهو النظام الإسلامي ... وليس بلازم أن يظهر بقالب معين، وصيغة محددة ومسمى خاص .

رابعاً :

أقام الإسلام للمسلمين رئيساً يقودهم ويكلف كلا بعمله، ويعين من أصحابه ولاة على الأقاليم، وقضاه للفصل بين الخصوم،ويسوس سائر شئون الناس، ويصون الدين ويحمي الدنيا، كما أقام فيهم حكومة سياسية تتولى أمر البلاد والعباد ... وسوف يتضح ذلك في مبحث قادم .

فإن قيل – كما قال صحاب كتاب الإسلام وأصول الحكم : إن الإسلام دين لا دولة، ورسول الله ﷺ صاحب دعوة روحية فقط، وما كان له ﷺ بين أتباعه من سلطان وتميز وطاعة فهو من لوازم الرسالة الدينية وليس من الملك والحكم.

وبالنظر في هذه المقالة، تلحظ اعترافه بوجود سلطان للرسول على أصحابه، فهو يأمرهم وهم يطيعونه ... ولكننا نعيب عليه تفرقته بين سلطان الملك وسلطان النبوة .

إن الإسلام يقيم نظامه على أساس ديني ... وهذا أدق وأعظم من نظام لا دين فيه، لأن الإسلام بشموله يعم الدين والدنيا والملك كله، وهو بدقته يجعل الجهاد، وتدبير شئون المال والعمل والسعي وطلب العلم وعند ذلك، جزءاً من رسالة الرسول لأنه ﷺ صاحب رسالة، ورجل حكم وسياسة نشر الدين، وأرسل الدعاة إلى الأقاليم وعين الولاة، والقضاء وجاهد وحافظ على رعيته .

يقول الشيخ / علي عبد الرازق: (ولاية الرسول على قومه ولاية روحية منشؤها إيمان القلب، وخضوعه خضوعاً صادقاً تاماً يتبعه خضوع الجسم ... إنها ولاية هداية وإرشاد ... إنها دين فقط، وبينها وبين الدنيا والملك بعد كبير)[١] !!!

ويذهب إلى أن أعمال الرسول ﷺ المتصلة بالحكم، والسيادة مثل الجهاد، وتدبير شئون المال، خارجة عن شئون الرسالة، ولا صلة له بالدعوة[٢] !!!

ويتساءل للتدليل على رأيه ويقول :

١) إذا كان إذا الإسلام ديناً ودولة فلم خلت دولة الرسول من دعائم الدولة، وأركان الحكم؟

٢) ولماذا لم يعرف نظام الرسول تعيين القضاة والولاة ؟

٣) ولماذا لم يتحدث الرسول ﷺ إلى رعيته في نظام الملك، وقواعد الشورى؟

٤) ويرى أن حب الرسول ﷺ للبساطة، ودعوته إليها، يتناقض مع طبائع الملوك والسلاطين، حيث يقول: كان ﷺ يعاشر الناس من غير تكلف، ويجرى معهم على منهج البساطة، وقد روى أنه ﷺ كان يمازح أصحابه[٣]... وعن ابن عباس رضي الله عنه كانت في النبي ﷺ دعابة، وكان يقول لأصحابه (**إني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه**)[٤] وروى أنه ﷺ (**ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً**) وفى حديثه لأبي موسى الأشعري (**يسرا ولا تعسرا، وبشرا**

---

(١) الإسلام وأصول الحكم صـــ ١٤١ ط دار الحياة بيروت ١٩٧٨م .

(٢) المرجع السابق ص ١١٨ — ١٢١ بتصرف .

(٣) السيرة الحلبية جـــ٣ صـــ٣٦٢ .

(٤) السيرة النبوية جـــ٣ صـــ٣٦٠ .

ولا تنفرا)[١].

ورأى الشيخ على عبد الرازق خطأ كله ومنشأ الخطأ تصور الشيخ أن الملك والسلطان يتعارض مع الدين، مع أن هذا التعارض غير صحيح، فلقد كان سليمان ﷺ ملكاً ورسولاً، وداود ﷺ كان رسولاً وخليفة، يقــول الله له ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾[٢].

ثم إن رسول الله ﷺ جاء لإخراج الناس – كل الناس – من الظلمات إلى النور، وهذا عمل سياسي يشتمل على كافة شئون الناس، لأن الظلمات مسمى يشمل ظلمات القلب، وظلمات العمل، وظلمات السلوك، وظلمات التصور الجاهلي للوجود كله والخروج من هذه الظلمات بناء حضاري متكامل يشمل الدين والدنيا معاً .

وقد أمر الله تعالى بضرورة طاعة رسول الله وأولى الأمر ما داموا على منهج رسول الله وذلك في قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[٣]وطاعة الناس لقائدهم جزء من النظام السياسي لأن الطاعة حق للأمير على رعاياه .

كما أمر الله تعالى برد الأمر ﴿ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ حين التنازع في قوله ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾[٤] والأمر شامل لكل الشئون والأحوال مما يجعل رده لأولى الأمر عملية سياسية خالصة .

ووجود أولى الأمر في المجتمع والاهتمام بحكمهم ورأيهم دليل على أهميتهم في التنظيم السياسي، وإظهار لدورهم الاجتهادي في تطبيق حكم الله تعالى في الناس.

---

(١) الإسلام وأصول الحكم صـــ ١٢٦ .

(٢) سورة ص الآية ٦٢ .

(٣) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٤) سورة النساء الآية ٨٣ .

والمسلمون لهم في إسلامهم مشروعية ثابتة عليها يسيرون، وبأحكامها يلتزمون وقد أمر الله رسوله بضرورة الالتزام بحكم الله، في قوله تعالى ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[١]

وربط الإيمان بحكم الله حيث قال تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[٢]فلا إيمان لمسلم إلا بطاعة حكم الله، والتحاكم إلى رسول الله أو من ينوب عنه والرضى بكل حكم جاء من عند الله تعالى .

ومن المعلوم عقلاً أنه لا حكم بلا حكومة، ولا حكومة بلا رئاسة تقودها .. والرئيس في دولة الإسلام هو رسول الله ومن بعده يكون الخليفة.

ومن الغريب حقاً أن الشيخ على عبد الرازق يدرك هذا، ويعلم منه وجود حكم وسياسة في عصر رسول الله ﷺ ويعلم عظيم جهد العلماء والفقهاء الذين تكلموا في الحكم والسياسة والقضاء يعلم ذلك كله ... وبعدها يقول :-

والحق أن الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون، وبريء من كل ما هيأوه حولها من رغبة ورهبة، ومن عز وقوة، لأن الخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية، كلا، ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة.

وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها و لم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها[٣] وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل، وتجارب الأمم، وقواعد السياسة.

ويقول أيضاً لم نجد فيما مر بنا من مباحث العلماء، الذين زعموا أن إقامة الإمام فرض واجب أحداً حاول أن يقيم الدليل على فرضيته بآية من كتاب الله الكريم أو سنة لرسول الله، ولعمري لو كان في الكتاب دليل واحد لما تردد العلماء في التنويه والإشادة به، ولو كان في الكتاب الكريم ما يشبه أن يكون دليلاً على وجوب الإمامة لوجد من أنصار

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٩ .

(٢) سورة النساء الآية ٦٥ .

(٣) الإسلام وأصول الحكم صـ١٠٣ .

الخلافة المتكلفين، وإلهم لكثير، من يحاول أن يتخذ من شبه الدليل دليلاً[١].

إنه ينكر في جرأة عجيبة شمول الإسلام للسياسة وعدم احتوائه على نظام يتصل بمسئوليات الإسلام وواجباته ... كما ينكر قيام العلماء بإثبات أدلة وجود النظام السياسي في الإسلام مع أن القدامى منهم والمحدثين تكلموا في هذا الموضوع وأثبتوه بوضوح .

إن الحكم بين الناس في مختلف أعمال حياقم من أساسيات الحكم والسلطان، وقد قال الله لرسوله ﷺ ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾[٢].

كما قال سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾[٣].

أبعد ذلك يأتي الشيخ ويدعى أن الإسلام بريء من الحكم والخلافة ولا صلة له بالسياسة ويدعي كذلك عدم وجود أدلة على فرضية نصب الخليفة وإقامة الحكم الإسلامي ويدعي عدم وجود دليل أو شبهة دليل مع أن الواقع يرد عليه .

ونسأل الشيخ: هل اجتهاد الناس في أمورهم العادية ومحاولة ربطها بدين الله تعالى ليست من الإسلام حتى يقال هذه عادة .... وهذه عبادة، إن العادة بالنية والتوجه تصير عبادة فلم ينكرها الشيخ إذا .... !!

– وما هي الأسس التي يميز بها الشيخ بين ولاء المؤمنين بسبب الهداية وولاؤهم بسبب السلطة والحكم ؟

– ومن أن للشيخ أن يجعل أعمال الرسول الخاصة بالجهاد والحكم، وتدبير شئون الناس خاصة بالدنيا ولا صلة لها بالرسالة؟ مع أن الرسول كما قال الله تعالى ﴿ مَا ضَلَّ

---

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي صـ٣١٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٩ .

(٣) سورة النساء الآية ١٠٥ .

صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[١] فكل عمله ﷺ رسالة ودين.

– وهل يذكر الشيخ قيام الرسول بتعيين ولاة، وقادة غزو، وقضاة للناس ؟

– وهل يذكر الشيخ أن الإسلام حث على الشورى، وأن الرسول وضع أسس الدولة في المدينة بعد الهجرة ؟

– وهل من ضروريات الملك الكبرياء والتعالي ؟

لقد أخطأ الشيخ خطأً واضحاً ولذلك رد عليه كثير من العلماء وفندوا كل ما ذهب إليه، وأثبتوا بالدليل أن الإسلام دين ودولة .

يعلق الدكتور/ محمد البهي على قول الله تعالي ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٢] ويشير إلى جوانب دلالتها على أن الإسلام دين ودولة لأنها توضح أن مهمته ﷺ مزدوجة تتضمن دعوة الناس إلى الله، والعدل في الحكم بينهم وهذا يقوم على سلطة لابد منها.

والدعوة والبعد عن الأهواء، كما تكون بالقول تكون بالعمل، ولذلك طلب القرآن منه ﷺ الاستقامة في السلوك، والسلامة في الاعتقاد والبعد عن الأهواء فقال ﴿ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ ﴾.

وتحقيق العدل:لا يكون بمجرد الدعوة إليه بل لابد مع ذلك من القيام على أمره، ومباشرة تنفيذه، ولذا يقول الله تعالى حكاية عن رسول الله ﷺ ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ والأمر يتضمن الحكم والتنفيذ.

وكيف يستطيع الرسول أن ينفذ ما كلف وأمر به من إقامة العدل ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ

---

(١) سورة النجم الآيتان ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الشورى الآية ١٥ .

﴿ بَيْنَكُمُ ﴾ بين المؤمنين، إذا كان مبلغاً فقط، وداعياً فحسب، إنه لا يستطيع ذلك إلا في إطار قوة حاكمة، وسلطة مهيمنة.

إن العدل قيمة من القيم الاجتماعية وهو قيمة بين طرفين، وليس لطرف واحد أو من طرف واحد، كالقيم الفردية ... وهو قيمة جماعية، والقيم الجماعية لا تتحقق بالإرشاد بل بالإلزام، وحكم الجماعة وسياستها ليس أمراً خارجاً عن قصد العدل، وتطبيقه بين أفرادها يكون بالقهر والإلزام بعد الحكم والفصل!

- فرسالة الإسلام رسالة تهذيب، وحكم .
- ومحمد رسول الإسلام ﷺ هو مبلغ الرسالة وهو القائم على تنفيذ الرسالة وتطبيق ما دعا إليه .
- والإسلام (دين) بالمعنى الذي يحدده (القرآن) ... لا بالمعنى الذي يفهمه أصحاب الأهواء، ومرضى القلوب من هنا ... وهناك .

يحاول الشيخ أن يثبت أن الإسلام لا صلة له بشئون الدنيا مستدلاً بقوله ﷺ (**أنتم أعلم بشئون دنياكم**) .

وهنا نقول له : حديث (**أنتم أعلم بأمر دنياكم**)[١] لا ينحي الرسول عن أن يكون قائماً على العدل بين المؤمنين، أي صاحب حكم وتدبير، على نحو ما طلب منه القرآن ... إذ هذا الحديث قيل بمناسبة (**تأبير النخل**) وتلقيحه، والنخل والعناية بثمره أمر محلي يخضع لتجربة القوم الذين يهتمون به، وليس أمراً يحتاج إلى مبدأ عام تأتي به رسالة السماء، ويكلف الرسول بتبليغه للناس أجمعين!

والقرآن نفسه بعد العبادات التي حددها، وبعد المبادئ والمعاملات العامة التي أوصى بها ترك للمؤمنين مجال إبداء الرأي وتبادله في شئوهم، وفي مدى انطباق هذا المبادئ عليها، ويعد قيام المؤمنين بالنزول في هذا المجال وإبداء رأيهم في شئون الحياة أمراً يحسب لهم في الجزاء، كقيامهم بالواجبات والوصايا، التي وجههم للعمل بها !!

يقـــول الله تعالى ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي جـــ١ صـــ١٨٧ .

وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[١].

وهذا النهج من القرآن يساير طبيعة الأمور وسنة الحياة! [٢].

– هل كان ينتظر الشيخ/ على عبد الرازق أن يحدد الرسول ميزانية الدولة، وينظم كافة المؤسسات، ويفصل بين السلطات، كما هو في العصر الحديث، مع أن مفهوم الدولة المعاصرة لم يكن معروفاً في ذلك الأمر، وحتى القرون الأخيرة ؟

– هل كان ينتظر الشيخ أن يبين الرسول حدود الدولة ويضع لها الشارات والعلامات، ويعين الوزراء، ويحدد بنود الدستور ويفصل القوانين ... مع أن هذه المسميات لم تعرف إلا حديثاً ؟

إن حكومة الرسول بدأت مبسطة، ثم أخذت في التطور، ولكنها قامت بكل ما يتصور في أي حكومة سياسية، لقد قام رسول الله ﷺ بما يلي:

- وجه كل فرد إلى ما يجب عليه، وعرفه بكل ما له وما عليه .
- نظم وأشرف على تنظيم العلاقة بين الأفراد.
- نظم وأشرف على تنظيم العلاقات الاجتماعية وأقام العدل الاجتماعي.
- وجه الأسرة إلى تنشئة بنيها، وتوثيق العلاقات بين سائر أعضائها .
- عمل على تحقيق القيم الدستورية بتيسير سبيلها، ومعاقبة من يعتدي عليها.
- باشر إقامة الحدود الشرعية من قصاص وحدود وتعازير على من ارتكب عملاً يستحقها .
- نظم العلاقة بين المسلمين وبين غيرهم داخل الدولة وخارجها .
- أعلن الجهاد، وباشره بنفسه، وكلف أصحابه القيام به .
- عين قواد الغزو، وكلف بعض أصحابه بالولاية على المدينة حين خروجه للغزو .

---

(١) سورة الشورى الآيات من ٣٦ إلى ٣٨ .

(٢) الفكر الإسلامي الحديث صـ ٢٥٠ .

أيقال بعد ذلك أن الرسالة بعيدة عن الملك، خالية من السياسة، وشئون الدنيا ..!!
وأين هو الملك والحكم إن لم يكن كل هذا جزءاً منه .. !!

- وهل يتناقض التواضع، والخلق الكريم مع الملك والسلطة الدنيوية حتى يستدل بوجودهما على أن الإسلام دين لا دولة ؟!!
- وهل يشترط في الملك والسلطان سوء الخلق، واحتقار الناس ؟!
- وهل هناك ما يمنع أن يكون تميز الرسول ﷺ بالخلق الكريم وطاعة أصحابه له بسبب كونه رسولاً وحاكماً ؟!!

ومن عجائب الشيخ / على عبد الرازق أنه حين يقف على بعض أعمال الرسول ﷺ المتصلة بالحكم والقيادة مثل قيادة الغزوات وحكم المدينة وتوزيع الصدقات .. وغيرها يحاول أن يبعدها عن الرسالة والدعوة، بلا دليل أو بينة !!

– أليس هذا تحكم في الحدث ؟! ووضعه في غير موضعه ؟!!

– وهل انقسم الرسول إلى شخصيتين لكل منهما مهامه وعمله، أحدهما أعمال الدنيا والسلطة ... والثانية أعمال الدعوة والرسالة ؟!! وهل يستطيع الشيخ أن يحدد لنا أعمال الرسول ﷺ في هذين الجانبين طوال حياته كلها .

– وهل طاعة الخلفاء الراشدين لرسول الله ﷺ في حياتهم السياسية كانت في الجانبين معاً أم في جانب واحد ؟! وإن كانت في الجانبين كما هو الواقع ... فما هو تفسير هذه الطاعة عند الشيخ ؟!

وهل يمكن لعاقل أن يتصور القرآن الكريم والسنة النبوية بما فيهما من نظم وتشريع، وشمول لكل أمور الدنيا، والأخرة ... هل يتصورهما أحد بعيدين عن شئون سياسة الناس ؟؟! ويدعي خلوهما من الدليل ؟!!

إن الشيخ بعد عن الحق في دعواه والله يعلم دافعة لارتكاب هذا الخطأ ... يقول البعض: إن هناك دوافع سياسية جعلت الشيخ ينادي برأيه هذا وكأنه كان يحارب الخلافة في وقت تمناها الملك لنفسه وكان يعمل لذلك .

يقول الدكتور / ممدوح حقى – بحق – **إن الإسلام لم يحدد للمســــلمين تفصيلات**

الحكم بل رسم خطوطه العريضة فقط، أما التفاصيل فمتروكة لهم، فقد يولون عليهم أميراً أو خليفة، أو رئيساً جمهورياً لمدة مؤقتة متصلة أو منفصلة ... وقد تكون حكومتهم مركزية، أو لا مركزية، واتحادية، أو وحدوية، أو متحالفة ... كل هذه المظاهر التفصيلية تركها للاجتهاد والرأي حسب واقع الناس، المهم هو أن تحقق الحكومة الإسلامية مبادئ الدين العامة وتنشر العدل وتحقق الشرع في واقع الحياة.

ولتكن بعد ذلك أساليب الحكم ما شاءت، ولتكن مجالس الشورى نيابية أو نقابية أو أي شكل آخر، إنهم أحرار في الطريق الذي يسلكون[١].

وقد ألف الأستاذ / خالد محمد ﷺ خالد في شبابه كتاباً سـماه (**من هنا نبدأ**) ذهب فيه مذهب الشيخ / على عبد الرازق، لكنه رجع عن مذهبه هذا وأصدر كتابه (**الدولة في الإسلام**) حيث اعترف بخطئه السابق، وأكد أن الإسلام دين ودولة، يقول (**وأول خطأ تغشى منهجي الذي عالجت به قديماً قضية الحكومة الدينية، كان تأثري الشديد بما قرأته عن الحكومات الدينية التي قامت في أوربا والتي اتخذت من الدين المسيحي دثاراً تغطي به عريها وعارها**).

ويقول : (**أجل، فإني أستطيع أن ألخص بواعثي في ذلك التفكير القديم، وأردها إلى عاملين اثنين، كان هذا أولهما، ويقرر أن العامل الثاني هو ما نسب إلى بعض المسلمين آنذاك من القيام باغتيالات وقتل**).

يقول الأستاذ خالد : جعلت هذا وذاك (**مصدر تفكيري**) **لا** (**موضع تفكيري**) وفارق كبير بين أن تجعل الحدث، أو الشيء مصدر تفكيرك، وبين أن تجعله موضع تفكيرك

إن الدولة الإسلامية دولة دستورية لها دستور ينظم حياتها السياسية، ويكفل حقوق الأمة عليها، وحقوقها على الأمة، ولها قوانين سائدة، ومتطورة في حدود علاقتها بالدستور.

ودستور الإسلام هو القرآن والسنة والإجماع.

القرآن أولاً: ثم تأتي السنة، والإجماع، ومعها الاجتهاد، ليفصلوا من القـرآن

---

(١) الإسلام وأصول الحكم صـ٥٨ تعليق .

الكريم ما أجمل، ويوضحوا ما أحكم، ويأتي الفقه الإسلامي، فيضع القوانين المستنبطة من كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع أمته، ويثري الإسلام إثراء هائلاً وعظيماً.

والقرآن دستور الدولة المسلمة يمتاز عن كل دساتير الدنيا ماضيها وحاضرها، ومستقبلها بأنه ليس من صنع البشر بل تنزيل من حكم حميد[١].

وهكذا يتضح أن الإسلام دين ودولة، وتتأكد حقيقة شمول الإسلام لنظام سياسي متكامل، وتبطل بذلك كل الدعاوى التي تهاجم الإسلام، وتحاول إبعاده عن حركة الحياة، وتدعي خلوه من نظام سياسي يسير الحياة ويحكم الأحياء .

إن كل عاقل محايد يقرأ القرآن الكريم، ويطلع على السنة النبوية يسلم بأن الإسلام كما شرع للآخرة شرع للدنيا، وكما نظم شئون الروح نظم شئون الدنيا ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[٢].

ويا ليت قومي يعلمون ذلك فيعيشون حقيقة دينهم حتى لا نسمع مرة أخرى مزاعم شبيهة بمزاعم الشيخ / على عبد الرازق .

---

(١) الدولة في الإسلام صـ٧٢ .

(٢) سورة النمل الآية ٨٨ .

الفصل الثاني

دولة الإسلام
في المدينة بعد الهجرة

ويشمل :-

المبحث الأول: وضع الأسس العملية للدولة الإسلامية .

المبحث الثاني: دستور الدولة الإسلامية .

المبحث الثالث: حكومة الرسول ﷺ في المدينة .

المبحث الرابع : الدبلوماسية في دولة المدينة

تمهيد:

الإسلام دين الله تعالى، نزل الوحي به على رسول الله محمد ﷺ على فترات امتدت ثلاثاً وعشرين سنة، في مكة والمدينة .

وتعتبر الفترة المكية مرحلة دعوة خالصة اهتم فيها رسول الله ﷺ بتكوين الجماعة الإسلامية، وتربيتها على العقيدة الخالصة، ووضعها على الطريق المستقيم، الذي يقر فيه العبد بحق الله عليه، ويعرف حقه على الله، وعلى سائر الناس، وقد استغرقت فترة البناء العقدي المرحلة المكية كلها حتى استقرت، وثبتت وخرجت رجالاً، ونساءً تخلصوا من كل معايب الجاهلية، وباعوا أنفسهم لله تعالى، وعلموا عن يقين أن قدر الله قضاء نافذ، وأن التسليم والرضى عبودية صادقة، وأن الخير كله فيما أنزل الله، وفيما شرع.

لقد تحمل رسول الله ﷺ في مكة كثيراً من الأذى، وصبر على المشاق وبذل كل ما قدر عليه في دعوة الناس إلى الله تعالى حتى آمن به عدد قليل، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكانوا دائماً تبعاً لما أمرهم به رسول الله ﷺ .

لقد كون الإيمان من المؤمنين في مكة جماعة، متماسكة، متعاونة على البر والتقوى، عاملة بدين الله تعالى، ملتزمة بطاعة رسول الله ﷺ وفى هذه الجماعة التقت القلوب والعواطف، وتوحدت في العمل والاتجاه، وتلاقت حول تعاليم الله التي جعلت منهم نواة خير أمة أخرجت للناس.

إن المسلمين في مكة لم يكونوا جماعة سياسية مستقلة لقلة عددهم، وعدم وجود أرض خاصة بهم، وتواجدهم في وسط أعداء يكرهون وجودهم بينهم، مع تعرضهم للأذى بمختلف صورة وألوانه .... ومع ذلك لم تغب عنهم فكره أن يعيشوا في مجتمع خاص بهم، ويتمتعوا بدولة يسودها، ويحكمها المؤمنون بشرع الله تعالى وبخاصة أن رسول الله ﷺ أملهم في ذلك، خلال توجيهاته لهم وتعليمهم أمور دينهم، وإظهار بعض الأعمال التي لابد منها في طريق تأسيس الدولة مثل ضرورة طاعة الله ورسوله منبع المشروعية وأساس البناء، وموطن الحكم والسلطان، وأهمية الموالاة بين

المسلمين لتنشئة الأفراد على الانخراط في عقد جماعي يجمعهم على حب الوطن، والولاء للدين الذي آمنوا به والالتزام بما شرع لهم من نظم العقود، والمعاهدات وغيرها وتأميل المسلمين في العيش في مكان يأمن فيه الإنسان على نفسه، ودينه.

وبعد الهجرة إلى المدينة المنورة بدأ الرسول ﷺ عملياً في تنظيم المسلمين في إطار دولة خاصة بهم تملك الأرض، ويعيش فيها الناس، السيادة فيها لله، والعمل فيها لأتباع رسول الله ﷺ وأظهر التطبيق العملي لسياسة الإسلام في دولة المدينة الأسس الواقعية التي لابد منها لقيام الدولة، حتى أنه من الممكن تصور حكومة منظمة باشرت الحكم والتنفيذ، وقامت بالدعوة والتوجيه، وتعاملت مع غير المسلمين داخل الوطن الإسلامي وخارجه، وسيرت المجاهدين الفاتحين، وحددت من خلال الحكم الحقوق والواجبات، وهذه القضايا تحدد عملياً التصور الشامل لدولة الإسلام في المدينة، ولذلك سوف أتحدث في هذا الفصل عن مباحث " دولة الإسلام في المدينة " وأهمها المباحث التالية :

- **المبحث الأول: وضع أساسيات الدولة الإسلامية .**
- **المبحث الثاني: دستور الدولة الإسلامية .**
- **المبحث الثالث: حكومة الرسول ﷺ في المدينة .**
- **المبحث الرابع: الدبلوماسية في دولة المدينة المنورة .**

وذلك فيما يلي والله الموفق ،،،

المبحث الأول
أساسيات الدولة الإسلامية

بدأت تباشير الدولة الإسلامية تظهر عملياً في المدينة المنورة بعد الهجرة، وبعد دخول أغلب أهل المدينة في الإسلام، وذلك أمر بديهي لأن الإسلام عقيدة وعبادة في إطار نظام مشروع، فلابد له إذا من إطار عملي يحول الفكر النظري إلى خطة عملية تطبيقيه وهذا هو الذي حدث مع الدعوة من أول نزول الوحي في مكة إذا كان ﷺ يتقبل الأمر ويحوله إلى عمل في ذاته، وفى حياة المؤمنين معه، وكان ﷺ يكتفي من أصحابه بالطاعة الهادئة، والالتزام المستور ولم يطلب منهم إظهار قوة أو مواجهة أحد من غير المؤمنين لقلة عددهم، وعدم وجود أرض خاصة بهم، وضعف قوتهم.

وهذا هو الذي حدث، فلقد كان المسلمون في مكة قبل الهجرة قليلي العدد يخافون أن يتخطفهم الناس، ولذلك قيل لهم كفوا أيديكم واصبروا .

فلما تغير الوضع، وهاجر المسلمون إلى المدينة، ودخل الأوس والخزرج في دين الله تعالى أصبح الأمر ممهداً لظهور أمة الإسلام ودولته فلقد أصبح المسلمون أغلب سكان المدينة، وصار لهم نظامهم الديني الخاص بهم وعاشوا تحت قيادة رسول الله ﷺ يسير بهم بشرع الله النازل عليه ورأوا قوة الإسلام تنمو وتزداد .

وبذلك تكاملت عناصر الدولة لأول مرة في المدينة المنورة وهي كما يلي :-

١) وجود الوطن :

تحولت المدينة إلى أرض مملوكة للمسلمين، عاش فيها المؤمنون آمنين، وصارت الموطن الأول للمسلمين، حيث جاءها المسلمون من كل مكان مهاجرين ليأمنوا على أنفسهم وعقيدتهم، وقد رحب سكان المدينة الأصليون بمن هاجر إليهم، وأشركوهم فيما كانوا يملكون، ويعملون .

وأصبحت المدينة بعد الهجرة مقصد الباحثين عن الحق، والراغبين في لقاء رسول الله ﷺ والاستماع إلى دعوته وما يريد منهم .

وحين ننظر إلى المدينة المنورة موطن الدولة الإسلامية الأولى، ونرى ما آلت إليه شئون المسلمين بعد ذلك، حيث صارت الجزيرة كلها وطناً إسلامياً في آخر عهد رسول

الله ﷺ نجد ظهور وطن للمسلمين عاصمته المدينة المنورة .

وأخذ هذا الوطن يتطور شيئاً فشيئاً وبدأت رقعته تتسع بدخول أبناء الجزيرة وغيرهم في الإسلام، واستمر هذا التوسع حتى شمل أغلب قارات العالم .

إن هذا التطور يشير إلى حقيقة واضحة، وهي أن الدولة في الإسلام تكونت شيئاً فشيئاً، تبعاً لتطور سائر العناصر المكونة للدولة فبعد أن قامت في المدينة أخذت تتوسع في المناطق حول المدينة التي دخل أهلوها في الإسلام، وأعلنوا التزامهم بطاعة رسول الله ﷺ جاء في التراتيب الإدارية: لا ننكر أن التمدن الإسلامي جرى مجرى النشوء الطبيعي في كل شيء، وسار سيراً تدريجياً إلى أن وصل إلى وجه في السمو كبير، لقد بلغت الإدارات، والعمالات والصناعة، والتجارة في تلك السنوات العشر، التي قضاها ﷺ في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية مبلغاً عظيماً، وأن الترقى والعمران وصل فيها إلى أحدث ما يعرف من الوظائف اليوم في إدارة الكتابة والحساب والقضاء والحرب والصحة ونحو ذلك[١].

ولما صارت المدينة وطن الدولة الإسلامية اتخذ رسول الله ﷺ فيها داراً للحكم بإنشاء المسجد النبوي الذي كان يلتقي ﷺ فيه بأصحابه، ويقابل الوفود، ويودع الغزاة، ويعالج المرضى، ويناقش فيه ما يعن للناس من قضايا وأحكام ويعلمهم ما نزل من قرآن .

٢) وجود الرعية :

الوطن وحده لا يحقق الدولة، فقيمة الأرض بوجود أناس يقيمون فيها، ويرتبطون بها حباً وولاءاً، ويروها داراً لهم ولأبنائهم وللأجيال بعد ذلك، هذا الارتباط بين الإنسان وبيئته هو ما يعرف بروح المواطنة، التي تربط الإنسان بالأرض والناس حيث يخلص الناس للأرض التي يستفيدون بخيرها، ويدافعون عنها، ولا يسمحون لمعتد بالإساءة إليها، ويتعاونون فيما بينهم في تطبيق الدستور الذي يحدد الحقوق ويوضح الواجبات، وينظم النشاط، ويوجد الأمة الواحدة.

لقد اشتد الصراع في المدينة قبل الهجرة بين قبيلتي الأوس والخزرج، فلما كانت الهجرة دخلت القبيلتان في دين الله تعالى، وخلعوا من نفوسهم وحياتهم ربقة الجاهلية، وصاروا النواة الأولى للدولة الإسلامية، وبهجرة مسلمي مكة وغيرهم إلى المدينة آخى الرسول ﷺ

---

(١) التراتيب الإدارية صـ ١١ .

بين المهاجرين الذين أتوا إلى المدينة وبين أبناء المدينة الذي نصروا دين الله، وأخلصوا دينهم لله، وجعلوا المهاجرين كأنفسهم، وتنازلوا لهم عن بعض ما كان لهم خاصة، وبذلك كانت الدولة الإسلامية، القائمة على الإخاء الكامل، خير ضمان لمصلحة الجماعة، وتحقيق آمال الأمة .

يقول السهيلي (آخى الرسول ﷺ بين أصحابه المهاجرين حين نزلوا المدينة، وبين الأنصار أبناء المدينة ليذهب عن المهاجرين وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم ببعض، فلما عز الإسلام، واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة أنزل الله تعالى ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾[١] .

وبذلك استمر التواصل بينهم في المودة، والتعاون، والتناصر والدعوة إلى الله تعالى[٢] وأصبح الولاء هو رابطة الجماعة المسلمة، وتيقن الجميع أنهم يعيشون في أرض الله بشريعة الله وطاعة رسوله ﷺ .

ولم تكن المدينة خالصة للمسلمين وحدهم، وإنما سكن فيها مع المسلمين بعض اليهود مثل قبائل بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة ... وأفراد آخرون يدينون بغير دين الإسلام ولذلك أصدر الرسول ﷺ دستوراً لأهل المدينة جميعاً، يحدد الحقوق والواجبات، وينظم الأعمال، ويوضح جوانب السلطة في المدينة، ويضع منهج التعامل بين المسلمين وغيرهم بالعدل والحق، والمساواة .

٣) السلطة الحاكمة :

في دولة الإسلام التي ظهرت في المدينة كان رسول الله ﷺ هو السلطة الحاكمة وبذلك تحققت كل أركان الدولة ... ومن المعلوم أن مصدر جميع الأحكام هو الله تعالى وفى ذلك ضمان لتحقيق القيم الدينية والدستورية، وهي في مجملها تحقق كرامة الإنسان،

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦ .

(٢) الروض الأنف جـ٢ صـ٢٥٢ بتصرف يسير .

وتمنع الظلم، والاستبداد، والضرر.

والرسول ﷺ هو المتلقى تعالى بالوحي، وهو المسئول عن تنفيذه وتطبيقه، والدعوة إليه .

لقد أقام الرسول ﷺ سلطة الإسلام السياسية في دولة المدينة، فأقام العدالة عن طريق القضاء، ونظم الدفاع، ورسم سياسة الحروب في الغزوات التي باشرها الرسول بنفسه، أو بواسطة قواد سراياه وبعوثه، وبث التعليم بين رعاياها وأمد سلطة الدولة على من انضم إلى الدين الجديد خارج المدينة كما حدث في اليمن، والبحرين وغيرهما، ونظم موارد الدولة المالية بتنظيم الزكاة، وطرق جبايتها وفق ظروف العصر، وعقد المعاهدات مع الجماعات التي كانت محاربة لها، أو التي اختارت طريق السلم إزاء دعوتها، وأنفذ السفارات إلى العالم الخارجي فوضع بذلك أساساً للعلاقات الدولية حيت تكون الدولة الإسلامية طرفاً فيها .

٤) أساسيات الحكم ومبادئه:

بعد الهجرة إلى المدينة المنورة أخذت التشريعات تترل، وتتابع ظهور النظم، وبدأ الناس يعيشون بمنهج الله تعالى في موطنهم الجديد .

وتعد التشريعات الإسلامية هي أساس الحكم ومبدؤه وهي التي يسميها الناس "**دستور الدولة وقوانينها** "، وهي التي تحدد طبيعة الدولة، واتجاهاتها بين الآخرين .

لقد عاشت دولة الإسلام في المدينة بدستوراً إلهي جاء من عند الله بالقيم الإنسانية التي لابد منها لإقامة نظام عادل وحكم سليم، ولذلك كان الصحابة يلجأون إلى رسول الله ﷺ ليتعلموا منهج العمل، وصورة السلوك، وكانوا يسألون عن كل ما لم يحكم فيه رسول الله ﷺ .

وقد تضمنت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الأساسيات التي يحتاجها المسلمون في حركتهم ونشاطهم .

وهكذا ظهرت دولة الإسلام في المدينة كاملة بالمفهوم المعاصر بعدما وجد الوطن والمواطن، وعرف الدستور والتشريع وتحدد الحكم والسلطان، كل ذلك في إطار ديني خالص .

المبحث الثاني
دستور الدولة الإسلامية

بعد استقرار الرسول في المدينة أخذ في إنشاء المؤسسات العملية لقيادة المجتمع الجديد، فأقام المسجد النبوي، وآخى بين المهاجرين والأنصار، ووضع ميثاقاً لأهل المدينة المدينة جميعاً ينظم لهم الحقوق والواجبات ويحدد الأمن والاستقرار للجميع .

تعد الوثيقة التي وضعها رسول الله ﷺ لأهل المدينة أوضح عمل سياسي حتى سماها بعض العلماء (دستور المدينة) لما فيها من دقة، وإبداع .

وقبل أن نورد نص هذه الوثيقة، ونستخرج منها أهم المبادئ الدستورية، أحب أن أشير إلى ملاحظة هامة وهي أن هذه الوثيقة وضعها الرسول ﷺ بوحي الله له، و لم تكن نتيجة مفاوضة ومناقشة مع أحد من الناس، ولذلك لم يشر أحد إلى واضع لها غير رسول الله ﷺ و لم يوقع عليها أحد من الناس، وذلك فضل من الله تعالى لتأسيس دولة الإسلام على الحق والصراط المستقيم، وليستمر معلوماً أن هذه الوثيقة حددت معالم المشروعية للدولة الإسلامية، وقررت ما للناس من حقوق وواجبات، وسأتناول في هذا المبحث إيراد نص الوثيقة على أن أتبعه بتعليق يوضح ما في الوثيقة من مبادئ تنظمية وذلك في مسألتين أوردهما فيما يلي :-

المسألة الأولى
نص الوثيقة

بسم الله الرحمن الرحيم

١) هذا كتاب من محمد النبي، رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم.

٢) أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣) المهاجرون من قريش على ربعتهم (حالهم) يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤) وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥) وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين .

٦) وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٧) وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٨) وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٩) وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٠) وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٢) وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً (مثقلاً بدين) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

١٢ب) وأن لا يحالف (يشترك معه في دية) مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٣) وأن المؤمنين المتقين، أيديهم على كل من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة (عطية) ظلم، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم .

١٤) ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

١٥) وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

١٦)وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

١٧) وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

١٨) وأن كل غازية (غزاة) غزت معنا، يعقب بعضها بعضاً .

١٩) وأن المؤمنين يبئ (يتعادل) بعضهم عن بعض، بما نال دماءهم في سبيل الله .

٢٠) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

٢٠ب) وأن لا يجير مشرك مالاً لقريش، ولا نفساً، ولا يحول (يحجز) دونه على مؤمن .

٢١) وأنه من اعتبط (قتل) مؤمناً قتلاً عن بينه، فإنه قود (قصاص) به إلا أن يرضى ولي المقتول بالعفو، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

٢٢) وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً (قاتلاً) أو يؤويه، وأن من نصره، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه عدل (فداء) ولا صرف (توبة) .

٢٣) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد .

٢٤) وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين، ما داموا محاربين.

٢٥) وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

٢٦) وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .

٢٧) وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

٢٨) وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

٢٩) وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود من بني عوف .

٣٠) وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود من بني عوف .

٣١) وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته .

٣٢) وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٣) وأن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم (الخبث).

٣٤) وأن موالي ثعلبة كأنفسهم .

٣٥) وأن بطانة يهود (وهم اليهود خارج المدينة) كأنفسهم .

٣٦) وأنه لا يخرج منهم أحد من المدينة إلا بأذن محمد .

٣٦ب) وأنه لا ينحجز (يمنع) على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبر هذا.

٣٧) وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

٣٧ب) وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

٣٨) وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٣٩) وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٤٠) وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٤١) وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

٤٢) وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث (أمر منكر) أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .

٤٣) وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٤٤) وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

٤٥) وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، أو يلبسونه (يشتركون فيه) فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم ذلك على المؤمنين، إلا من حارب في الدين

٤٥ب) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

٤٦) وأن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

٤٧) وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ .

المسألة الثانية
المبادئ السياسية للوثيقة

تحدد الوثيقة المبادئ الدستورية التي تنظم سياسة الدولة الإسلامية ومن أهمها :-

أولاً : رئيس الدولة هو رسول الله ﷺ وهو المرجع في التفسير والحكم والقضاء، حيث جاء في فقرة (٢٣) (وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد) وفي فقرة (٤٢) (وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره) كما تقرر الفقرة (٣٦) (أن لا يخرج أحد من غير المسلمين من المدينة إلا بإذن رسول الله ﷺ تحقيقاً لأمن المدينة وسلامتها) .

وبذلك يكون الرسول هو رئيس الدولة الأعلى، وكل من حوله هم أهل شوراه ووزارؤه وعماله في الأقاليم، وقواده على السرايا .

ثانياً: مواطنوا الدولة الإسلامية ليسوا هم المسلمون وحدهم، وارتباطهم بدولة الإسلام ولاء لله ورسوله بعيداً عن عنصرية القبيلة وعصبيتها، المؤمنون أمة متماسكة بالإيمان، تصون حقوق غير المسلمين، وتضمن لهم حق الحياة في وطنهم وإن استمروا على دينهم الذي هم عليه (فقرة:٢ب) (وفقرة ٢٤) مع الانتصار لهم إذا ظلموا، أو اعتدى عليهم (فقرة ١٦) وبذلك فإن المواطنة هي أساس التعاون بين كل مقيم في المدينة بغض النظر عن دينه وجنسه .

ثالثاً: المحافظة على المدينة مسئولية ساكنيها جميعاً (فقرة ٣٩) وقد قررت الصحيفة مسئولية كل مواطن في المدينة في عدم إيواء المجرمين من خارجها، لما لهذا من خطر على الأمن والاستقرار (فقرة ٢٢).

وعلى أهل المدينة عدم إيواء أحد من أهل مكة لحالة الحرب القائمة مع أهل مكة ومنع التعاون مع كل من نصر أعداء المدينة من الأعراب وسكان البوادي وغيرهم(فقرة ٤٣)

وأهل المدينة جميعاً يد واحدة على من اعتدى عليهم (فقرة ٤٤) وعلى المسلمين جميعاً أن يكونوا معاً في الصلح، والمعاهدات، لا ينفرد بذلك أحد دون إذن رسول الله لتبقى وحدة الأمة (فقرة ١٧) .

وبذلك تحددت مسئولية مواطني الدولة إزاء حماية بلدهم، فهم جميعاً يعادون من يعادي المدينة، ولا يسمحون له بدخول المدينة، ولا يتعاونون معه في أي شأن، وهم جميعاً يد عليه من أجل بلدهم ووطنهم .

رابعاً : حددت الوثيقة طرق الفصل بين رعايا الدولة، وذلك بما يلي:

- قررت مبدأ المساواة بين المسلمين (فقرة ١٩).
- بينت ضرورة التعاون في رفع المغارم والديون (فقرة ١٢).
- حتمت أهمية العدل في القضاء والعقوبة، ومنع البغي والظلم (فقرة١٣ ، وفقرة٢١) .
- وضحت شخصية العقوبة، وعدم معاقبة غير الجاني (فقرة ٣٧ب) .

وبذلك استقل القضاء وتحددت المسئوليات، واتضحت معالم العدل في الدولة الإسلامية .

خامساً : فصلت الوثيقة في تحديد العلاقات بين قبائل المدينة، وطوائفها لأن الفقرات من (١ إلى ٢٢) تنظم العلاقة بين المسلمين، والفقرات من (٢٤ إلى ٣٥) تنظم العلاقة بين اليهود، والفقرات من (٣٧ إلى ٤٢) تنظم العلاقة بين المسلمين واليهود في الوطن الواحد، وأن الفقرات (٢٢، ٤٣ ، ٤٤) تنظم العلاقة الخارجية .

وهكذا قامت دولة الإسلام في المدينة على أساس شرع الله، وتعاليم دينه الحنيف، وحددت لمواطنيها حقوقهم، وواجباتهم في صورة ربانية، رائدة .

وأدرك كل من في المدينة من المهاجرين، والأنصار واليهود وسائر القبائل مسئوليتهم بوضوح، وتأكدوا أنها شرع إسلامي يحدد مسار الدولة، وتعاملها مع رعاياها .

ـ المبحث الثالث ـ
حكومة الرسول ﷺ

أقام الرسول ﷺ دولته في المدينة، وباشر شئون الحكم كلها، يقول ابن تيمية (**كان رسول الله ﷺ يتولى جميع ما يتعلق بولاة الأمور، ويولي في الأماكن البعيدة عنه وكان يؤمر على السرايا، ويبعث على الأموال الركوبة السعاة فيأخذونها ممن هي عليه، ويدفعونها إلى مستحقيها الذين سماهم الله في القرآن ... وكان يستوفي الحساب على العمال، يحاسبهم على المستخرج والمصروف**)[١].

وقد ألف الإمام أبو الحسن على بن محمد الخزاعي المتوفي عام (٧٨٩هـ) كتاباً عن حكومة النبي ﷺ وشرحه العلامة المحدث محمد بن عبد الحي المشهور بالكتاني في كتاب سماه (التراتيب الإدارية) وزاد فيه على كتاب الأوزاعي زيادة كبيرة، وحاول أن يستقصي نظام الحكومة النبوية بالتفصيل.

ويعد كتاب الكتاني أوفى من كتب في (حكومة الرسول ﷺ) ولذلك فإنه سيكون المصدر الرئيسي لهذا المبحث، وقد شملت حكومة النبي ﷺ كافة الجوانب التي احتاج إليها الناس، حيث ساستهم بما يتلاءم مع الواقع الذي يعيشون فيه، في إطار تعاليم الله وشريعته .

وقد عين الرسول ﷺ لكل شأن رجاله، وحدد المهام التي يقومون بها، وكأن كل شأن منها يمثل وزارة معاصرة ومن أهم الشئون التي باشرتها حكومة المدينة ما يلي:-

أولاً : شئون الحكم :

باشر الرسول ﷺ السطلة العليا في الدولة لتطبيق شرع الله تعالى وكان يستقبل الوحي من الله تعالى ويبلغه لأصحابه، ويوصله للأقاليم البعيدة، ويشرف على تعليمه وتوضيح المراد منه، واختار من أصحابه من يعاونه في هذه الشئون، وقد اتخذ ﷺ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وزيرين، ولاشك أن حالهما كان مع رسول الله ﷺ يقتضي ذلك فهم أكبر مستشارين معه، تميزا بدقة الفهم، وسعة الإدراك ويكفي أن أبا بكر هو

---

(١) الحسبة صـ٢٧ .

الصديق، وعمر أدرك أموراً نزل الوحي بها، وبسبب هذه الرتبة العظيمة مع رسول الله ﷺ استخلفهما المسلمون من بعده .

أخرج الحاكم عن ابن المسيب قال (**كان أبو بكر من النبي ﷺ مكان الوزير، فكان يشاوره في جميع أموره، وكان ثانيه في الإسلام، وثانيه في الغار، وثانيه في العريش يوم بدر، وثانيه في القبر**) (١).

ويقول ﷺ عن عمر : (**لو كان في أمتي محدثون لكان عمر**) ويقول ﷺ لعمر (**إيه يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك**) (٢).

واتخذ الرسول ﷺ حذيفة بن اليمان ؓ صاحب السر، لثقته فيه فكان يستشيره في أمور خاصة تحتاج إلى إخفاء وستر، جاء في أسد الغابة (**حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، لم يعلمهم أحد إلا حذيفة، أعلمه بهم رسول الله ﷺ وسأل عمر حذيفة :أفي عمالي أحد من المنافقين؟**

قال: حذيفة : نعم واحد.

قال عمر : من هو ؟ قال: لا أذكره.

يقول حذيفة : فعزله عمر، فكأنما دل عليه وعرفه) (٣).

واتخذ ﷺ أنس بن مالك ؓ آذناً له، ليستأذن رسول الله ﷺ فيمن يدخل عليه، ففي صحيح مسلم **أن أبا بكر الصديق جاء يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس قد جلسوا على بابه ولم يؤذن لأحد منهم، فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له**(٤).

واتخذ النبي ﷺ النقباء على الأوس والخزرج في بيعة العقبة الثانية وعين ﷺ عتاب بن أسيد أميراً على مكة، وإقامة مواسم الحجة سنة ثمان(٥) بعد الفتح ... كما ولى باذان على اليمن، ومن بعده تولى ابنه شهر ..... وولي سعد بن عبد الله بن ربيعة على الطائف ......

---

(١) التراتيب الإدارية صـ ١٠٠ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الأدب باب التبسم والضحك جـ٩ صـ٢٤٦

(٣) أسد الغابة جـ١ صـ٥٣٢ ، ٥٣٣ .

(٤) صحيح مسلم حديث رقم ١٤٧٨ .

(٥) الإصابة جـ١ صـ٤٥١ .

وولى عمرو بن سعيد بن العاص على وادي القرى ..

وهكذا اتخذ النبي الولاة على كل المناطق التي دخلت في دين الله تعالى.

وكان ﷺ يكتب للولاة بما عليهم، وما لهم، من ذلك ما كتبه إلى واليه على اليمن عمرو بن حزم ﷺ كتب يقول (**هذا بيان من الله ورسوله، يا أيها الذين آمنوا أفوا بالعقود، عهداً من محمد النبي رسول الله لعمرو بن حزم، حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله، وأن يبشر الناس بالخير، ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه، وينهي الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم، والذي عليهم، ويلين للناس في الحق، ويشتد عليهم في الظلم، وأنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه، ودان بدين الإسلام، فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته، أو يهوديته، فإنه لا يرد عنها، وعلى كل حالم، ذكر، أو أنثى، حر أو عبد، دينار واف، أو عوضه ثياباً، فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله، وذمة رسوله، ومن منع ذلك فإنه عدو لله، ولرسوله، وللمؤمنين جميعاً، صلوات الله على محمد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته**) [١].

ثانياً: شئون التعليم :

حث النبي أصحابه على التعلم وقال لهم (**طلب العلم فريضة على كل مسلم**) فقال (**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم يستغفر له من السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**) [٢]

وأمر النبي ﷺ الناس أن يتعلموا الفقه والقرآن من جيرانهم، وحث كل مسلم أن يهتم بجاره يعلمه، وقد ساق الحافظ نور الدين الهيثمي حديثاً طويلاً في " مجمع الزوائد"

---

(١) سيرة ابن هشام ٥٩٤/٢ — ٥٩٦ .

(٢) المتجر الرابح صـ١١ .

تحت باب تعليم من لا يعلم، فعن علقمة بن سعد بن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه عن جده قال: **خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ثم قال: (ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم ولا يعطونهم ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون، ولا يتعظون، والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفقهون ويتفطنون أو لأعاجلنهم العقوبة)** [١].

وقد أرسل ﷺ مصعب بن عمير ﷺ عقب بيعة العقبة الثانية مع المبايعين إلى المدينة المنورة كي، يقرئ أهلها القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين لأهمية العلم في فهم الإسلام والعمل به .

وأرسل ﷺ معاذ بن جبل لمكة بعد الفتح يفقه الناس في الدين، ويعلمهم القرآن كما أرسله إلى اليمن بعد ذلك، وقد أمر رسول الله ﷺ سعيد بن العاص ﷺ أن يعلم الصحابة الكتابة بالمدينة وكان كاتباً محسناً[٢].

وفى غزوة بدر جعل رسول الله ﷺ فداء الأسير أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، وممن تعلم يومئذ زيد بن ثابت مع جماعة من غلمان الأنصار[٣].

وقال النبي ﷺ للشفاء أم سليم بن أبي حتمة: **(علمي حفصة رقية النملة كما علمتيها الكتابة)** [٤] .

وفى الحديث الصحيح جاء قول النبي ﷺ **(ثلاثة لهم أجران، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران)** [٥].

---

(١) مجمع الزوائد جـ١ صـ١٦٤ .

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر جـ٢ صـ٢٧٤ .

(٣) الروض الأنف جـ٢ صـ٩٢ .

(٤) فيض القدير جـ٤ صـ٣٢٩ ورقية النمل: معناها طرق التزين والاكتحال .

(٥) صحيح البخاري كتاب العلم — باب تعليم الرجل أمته جـ١ صـ١٧ .

وفي هذا ما يؤكد اهتمام النبي ﷺ بتعليم النساء، كما اهتم بتعليم الرجال بل إن الحديث يعطي أجراً على تعليم البنات أكثر مما يعطي على تعليم الذكور .

وقد أعد النبي ﷺ داراً للتعليم عرفت بدار (القراء) قام بالتعليم فيها عبد الله بن أم مكتوم مع مصعب بن عمير[١] ﷺ وهي أشبه بالكتّاب في العصر الحديث .

وقد أشار النبي ﷺ على أصحابه بأهمية تعلم اللغات الأخرى، يقول زيد بن ثابت (أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم له كلمات من كتاب يهود، وقال: إني والله لا آمن يهود على كتابي، يقول زيد: فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له، فلما تعلمت كان ﷺ إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتبهم) ويقول زيد أيضاً: قال لي رسول الله ﷺ : إنها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تتعلم كتابة العبرانية؟ أو قال: السريانية؟ فقلت نعم: فتعلمتها في سبعة عشر يوماً)[٢].

ويرى ابن حجر أنه في قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[٣] إشارة إلى أن النبي ﷺ كان يعرف جميع الألسنة، لأنه أرسل إلى الأمم كلها على اختلاف ألسنتهم، فجميع الأمم قومه بالنسبة إلى عموم رسالته، فاقتضى ذلك أن يعرف ألسنتهم، ليفهم عنهم، ويفهموا عنه وهذا العلم، وهذا الفهم لا يستلزم أن يكون صاحبه قارئاً كاتباً، لأنه ﷺ كان يستعين بأصحابه حين يحتاج إلى قراءة وكتابة.

ويحتمل أن ذلك: لا يستلزم نطقه ﷺ بجميع الألسنة لإمكان الترجمان الموثوق به الذي ينقل حديث رسول الله ﷺ بلغة من يحدثهم جاء في مكاتيب الرسول ﷺ أن جماعة وفدت على رسول الله ﷺ وهو في مكة فلما دخلوا المسجد الحرام لم يعرفوا النبي، فقال رجل منهم بلغته: من أبوان أسران يعني أيكم رسول الله ؟ فلم يفهمه أحد

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٤ صـ١٥٠ .

(٢) الفتح الرباني بترتيب مسند أحمد الشيباني جـ١ صـ١٤٥ .

(٣) سورة إبراهيم الآية ٤ .

فقال النبيﷺ : اشكداور (بمعنى أقبل هنا) [١].

يقول ابن حجر: إن بعض الأحاديث تضمنت كلمات فارسية مثل كلمة سنة بمعنى حسنة، وكلمة سور بمعنى دعوة، وكلمة كخ وهي تفيد الزجر[٢].

ثالثاً الشئون الاقتصادية:

اهتم الرسول ﷺ بالشئون المالية، فقام بتعيين بعض أصحابه على إدارة المال وكان الصحابة يأتون للنبي ﷺ بزكاة أموالهم وكان ﷺ يأخذه منهم لقوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [٣] وعين للصدقات العاملين عليها كما عين على خراج خيبر سواد بن غزية الأنصاري[٤]، وعين حذيفة بن اليمان لجمع صدقات الأزد[٥].... وبعث كهلاً بن مالك الهذلي لجمع الصدقات من هذيل[٦] وهكذا عين للصدقات من يجمعها من سائر القبائل، ويضعها في بيت المال لتصرف في مصارفها الشرعية[٧] ويسمى الله تعالى القائمين على جميع الصدقات وإعطائها لمستحقيها بـ"**العاملين على الزكاة** " وفق قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٨]

وقد أعد النبي ﷺ للصدقة ديواناً، وسجلاً تدون فيه الصدقات ومستحقيها، يقول ابن حزم: كان كاتب رسول الله ﷺ في الصدقات الزبير بن العوام، فإن غاب أو اعتذر

---

(١) مكاتيب الرسول صـ١٥ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الجهاد باب من تكلم بالفارسية جـ٦ صـ١٨٣ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٠٣ .

(٤) التراتيب الإدارية صـ٤٢٣ .

(٥) الإصابة جـ١ صـ٣١٨ .

(٦) المرجع السابق جـ٣ صـ٣٠٨ .

(٧) التراتيب الإدارية صـ٤٢٤ – ٤٢٧ بتصرف .

(٨) سورة التوبة الآية ٦٠ .

قام مال بالكتابة جهم بن الصلت، وحذيفة بن اليمان[١].

وقد تضمن الديوان تحديد كل أنواع المال، وكل الزكوات التي تصل إليه، كما وضح مستحقي الزكاة الذين يقبضونها في إطار الدولة الإسلامية .

وكان الديوان يجمع أموال الزكاة والصدقات، ويتصرف في أموال الكفارات إذا أراد أصحابها .

وكان مال الوقف من مصادر بيت المال في عهد النبي ﷺ من ذلك ما رواه البخاري عن أنس بن مالك قال: (**كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها فيشرب من ماء فيها طيب، فلما نزل قوله تعالى ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله ﷺ إن الله يقول ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.**

فقال رسول الله ﷺ : بخ بخ ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أري أن تجعلها في الأقربين.

قال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله ﷺ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[٣] وجعلها وقفاً فيهم .

وهكذا كان النبي ﷺ يعين للوقف من يديره كما فعل مع أبي طلحة، حيث كلفه بالتصرف فيه على نحو معين لأن البيرحاء صارت وقفاً لأقرباء أبي طلحة بأمر رسول الله ﷺ

يقول الإمام الشافعي: حفظنا الصدقات عن عدد كبير من المهاجرين والأنصار، لقد حكى لي عدد كثير من أولادهم وأهليهم أنهم لم يزالوا يلون صدقاتهم حتى ماتوا، ينقل ذلك عامة المهاجرين والأنصار، لا يختلفون فيه، وكون ذلك الأمر ينتشر بين العامة دليل

---

(١) جوامع السيرة صـ٢٦ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٩٢ .

(٣) صحيح البخاري – كتاب الزكاة – باب الزكاة على الأقارب جـ٢ صـ٣٢٥.

على أنه كان أمراً مشروعاً سار فيه القوم على سنة رسول الله ﷺ واشتهر بين أصحاب رسول الله ﷺ من غير نكير فصار إجماعاً .

وأكثر ما كان في المدينة ومكة من الصدقات كان يدار بمالكيه الأول بعد وقفه فكما وصفت يتصدق به المسلمون من السلف ويديره خلفهم [١] .

وكان ﷺ يعين من يجمع الجزية، وممن تولى قبض الجزية في عهد رسول الله ﷺ أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل[٢].

ونظم النبي ﷺ الأسواق لتسير وفق الشرع الحنيف فحدد مكانها وسعتها، ونظم العمل خلالها، وحذر من أي منكر يقع فيها، وباشر التجارة بنفسه، فباع ﷺ واشترى، وضارب، وشارك، وممن تاجر في عهده ﷺ أبو بكر الصديق، وعمر بين الخطاب، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف .... وغيرهم رضى الله عنهم .

وكثرت المهن التي وجدت في عهد رسول الله ﷺ ، وتعامل بها الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وكان منهم البزاز والبزار، والعطار، والوزان، والصراف والدواء، والجزار، وكان النبي ﷺ يغير موضع السوق إن وجده ضيقاً أو بعيداً أو غير ملائم للمسلمين.

يروي الطبراني عن أسيد ﷺ أن رسول الله ﷺ ذهب إلى سوق النبيط فنظر إليه فقال: (ليس هذا لكم بسوق، ثم رجع إلى سوق آخر فطاف فيه ثم قال: هذا سوقكم، فلا ينتقصن ولا يضرب عليه خراج)[٣].

وكان للزراعة اهتمام عند رسول الله ﷺ حيث يقول عليه الصلاة والسلام (ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له به صدقة)[٤].

وقد تكون الكثرة التي دعا رسول الله ﷺ بها لأنس بن مالك ﷺ حين قال: (اللهم أكثر ماله وولده)[٥] هي الكثرة في الزرع والغرس والأنعام.

---

(١) الأم للشافعي جـ٣ صـ٢٧٦ .

(٢) صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة جـ٧ صـ٩٣ .

(٣) التراتيب الإدارية صـ٦٥٤ .

(٤) صحيح البخاري كتاب المزارعة، باب فضل الزرع جـ٥ صـ٣ .

(٥) الإصابة جـ١ صـ٢١٧ .

يقول الزمخشري عند قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي أمركم بتعمير الأرض بالعمران والزراعة .

وكان المسلمون في زمن رسول الله ﷺ يستوردون من بلاد الشام الدقيق، والسمن، والعسل، والجبن[١] لكنهم بعد فترة حققوا استقلالا ذاتياً، وفاضت عندهم خيرات الله .

وحين نقرأ في كتب الفقه أحكام التجارة والمزارعة والمساقاه وإحياء الموات والإقطاع وكلها أخذت أحكامها من رسول الله ﷺ ندرك على الفور اهتمام رسول الله ﷺ بالعمل عموماً وبالزراعة على الخصوص .

رابعاً الشئون القضائية :

نظم النبي ﷺ القضاء ليتم الفصل في المنازعات بحكم الله تعالى وكان يتخير للقضاء من يتقين النظر، ويحسن الفهم، ويجيد التحليل والمقارنة وعلى رأس من عينهم الرسول ﷺ للقضاء عمر بن الخطاب، وعلى ابن أبي طالب، ومعاذ بن جبل ... وغيرهم.

وكان عليه السلام يختار للقضاء الأعلم بالأحكام الشرعية الفاهم للوقائع البشرية، القوى الذي لا يتردد بعد بذل الجهد المستطاع، القوي الأمين يقول على بن أبي طالب ﷺ لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً وأنا حديث السن قلت: **يا رسول الله تبعثني وأنا شاب أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء؟**

قال: فضرب بيده في صدري، ثم قال: اللهم اهد قلبه وثبت لسانه .

قال: فما شككت بعد في قضاء بين اثنين [٢].

وقد فرض رسول الله ﷺ راتباً للقضاة، جاء في كتاب الهداية أن رسول الله ﷺ بعث عتاب بن أسيد إلى مكة وفرض له، وذكر البعض أن النبي ﷺ فرض له كل سنة أربعين أوقية، وذكر أبو الربيع بن سالم، أنه ﷺ فرض له فى كل قضاء درهماً، وكان شريح القاضي يأخذ على القضاء أجراً [٣] **وتلك لمحة نسوقها لعالم اليوم ليغنوا قضاهم**

---

(١) التراتيب الإدارية صـ٦٤٢ – ٦٤٥، بتصرف .

(٢) سنن ابن ماجة جـ٢ صـ٧٧٤ .

(٣) انظر التراتيب الإدارية صـ٢٩٩، بتصرف .

بالعطاء حتى لا يضعفوا أمام الرشوة والراشين، ويكونوا سبباً في ضياع الحقوق، وحرمان المظلومين من العدل والصواب .

وقد أحدث النبي ﷺ ما عرف في القضاء بديوان المظالم وهو أشبه ما يعرف حديثاً بمحاكم الاستئناف في بعض الحالات، أو محاكم أمن الدولة التي تصدر الحكم وتنفذه في حالات أخرى .

وقد باشر الرسول بنفسه الفصل في المظالم، والمظالم دائرة أوسع من دائرة القضاء، لأنها تجمع بين السطوة السلطانية ونصفة القضاة وتحدد حقوق كل طرف، وتقمع المظالم بين الخصمين، وتزجر المعتدي، وتمضي ما عجز القضاة ومن دونهم عن إمضائه.

وكان ﷺ ينظر في البينات والأدلة والتقارير، واعتماد القرائن والإمارات، ويؤخر الحكم لاستجلاء الحق، وحمل الخصم على الصلح، ويستحلف الشهود، وكان بعض أصحابة يرفعون إليه أحكام ما ظنوا أنهم ظلموا فيها.

ودائرة المظالم كان يليها المصطفى ﷺ بنفسه لأنه كان يتفقد أحكام قضاته وعماله ويناقشهم[١] وهذه المترلة تشبه القضاء العالي، والنقض في العصر الحديث حيث لا قاضي بعده.

وللقضاء أحكام وآداب تعج بها كتب الفقهاء وقد أشبعها علمـــاء الفقه والنظم بحثاً ودراسة .

خامساً: الشئون الصحية :

اهتم الرسول ﷺ بهذا الجانب لأهميته للمسلمين فدعا إلى الصحة الوقائية، والاهتمام بالنظافة ومدح المسلمين لمحافظتهم على الطهارة وتخصيص مسجد يصلون فيه فقال تعالى ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[٢].

وأمر بالعزل الصحي إذا ظهر المرض الوبائي في أرض ما ومعناه أن لا يدخل إلى

---

(١) المرجع السابق صـــ٢٩٩ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٨ .

أرض الوباء من هو خارجها، ولا يخرج منها من هو فيها حتى ينتهي الوباء، يقول ﷺ : **(إذا كان الوباء بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليها)** [١].

واهتم ﷺ كذلك بالصحة العلاجية حيث أمر بالتداوي لأن الله لم يخلق داء إلا وله دواء إلا الهرم، واتخذ ﷺ مكاناً بمسجده يوم الخندق وجعله مستشفى ميدانياً لعلاج جرحي الجهاد، وعهد به إلى الصحابية رفيدة بنت الأسلم .

ونهى النبي ﷺ عن التبول في الماء الراكد، وفى الطرقات، وعرف أصحابة أن النظافة من الإيمان، وأوجب عليهم التخلص من كافة النجاسات التي تصيب الجسد أو الثوب أو الأرض، وفى كتب الفقه أبواب طويلة تبين أحكام الماء والطهارة في الإسلام.

جاء في التراتيب الإدارية أن الحارث بن كلدة الثقفي كان طبيباً من أفاضل أطباء العرب من أهل الطائف، رحل إلى أرض فارس، وأخذ الطب عن أهل تلك الديار، ومن أهل جند نيسابور وغيرها في الجاهلية، وآجاد هذه الصناعة، وطب بأرض فارس، وحصل له بذلك مال كثير، وشهد من رآه ببلد فارس بعلمه، وشاع اسمه بينهم، ثم رجع إلى بلاده واشتهر طبه بين العرب، وأدرك الإسلام وكان رسول الله ﷺ يأمر من كانت به علة أن يأتيه فيستوصفه) [٢] وفى المحافظة على الصحة والتداوي من المرض تحقيق لقوة المسلم التي دعا إليها رسول الله ﷺ في قوله **(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)**[٣]

سادساً الشئون العامة :

ويراد بالشئون العامة الأعمال التي تقوم بها الدولة خدمة للناس، ليقوموا بواجبهم في أمن واستقرار، وتقوم بهذه الوظيفة في العصر الحالي وزارات الحكم المحلي والشئون الاجتماعية والبيئة .

وكان لهذا الجانب اهتمام في عهد رسول الله ﷺ حيث تمت إنارة المسجد النبوي بالسرج، جاء في الإصابة **أن تميم الدرامي حمل معه من الشام إلى المدينة قناديل وزيتاً،**

---

(١) صحيح البخاري ٥٧٢٥ .

(٢) التراتيب الإدارية صـــ٤٧٧ .

(٣) سنن ابن ماجة جـــ١ صـــ٣١ .

ومقطاً، فلما انتهي إلى المدينة، وافق ذلك يوم الجمعة، فأمر غلاماً له يقال له أبو البراد فقام فشد المقط (وهو بضم الميم وسكون القاف وهو الحبل) وأسرجها، فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا هو يزهر فقال: من جعل هذا؟

قالوا: تميم يا رسول الله ﷺ.

قال: نورت الإسلام، نور الله عليك في الدنيا والآخرة، أما إنه لو كان لى ابنة لزوجتكها.

فقال نوفل بن الحرث بن عبد المطلب: لي ابنه يا رسول الله ﷺ تسمى أم المغيرة بنت نوفل، فافعل فيها ما أردت، فانكحه ﷺ إياها على المكان [١].

واهتم النبي ﷺ بالنظافة العامة من ذلك ما روي **عن أبي هريرة أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد ففقدها رسول الله ﷺ فسأل عنها .**

فقالوا: ماتت.

قال ﷺ : أفلا كنتم آذنتموني !!.

فكأنهم صغروا أمرها.

فقال ﷺ: دلوني على قبرها، فدلو عليه فصلى عليها[٢].

وهذا دليل على تقديره ﷺ لعملها، وحثهم عليه.

وقد دعا الإسلام إلى الطهارة والنظافة واهتم بإزالة النجاسات أيا كان موضعها يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٣].

ويقول ﷺ : **(إماطة الأذى عن الطريق صدقة) .**

وقد عين رسول الله ﷺ بعض أصحابه للإشراف على الأسواق والأعمال، جاء في الاستيعاب أن رسول الله ﷺ استعمل سعيد بن سعيد بن العاص بعد الفتح على سوق مكة، ليمنع الاحتكار، والربا، ويحافظ على الحلال المشروع وكـــان هنـــاك

---

(١) الإصابة جـــ١ صـــ١٨٤ – دار التراث العربي .

(٢) صحيح البخاري – كتاب الصلاة – باب كنس المسجد جـــ١ صـــ٥٥٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢٢ .

المحتسب المتطوع[١].

وكان يهتم بتحقيق الأمن للناس، وبخاصة في الليل، حيث أمر ﷺ سعد بن أبي وقاص على الأمن العام، يروي الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمر رسول الله ﷺ بعد مقدمه المدينة ليلة فقال: ليت رجلاً يحرسنا الليلة، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا خشخشة السلاح، فقال ﷺ : من هذا؟

قال الرجل: سعد بن أبي وقاص .

فقال له الرسول ﷺ: ما جاء بك؟

قال سعد : وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه .

فدعا له رسول الله ﷺ [٢].

وكان في دولة المدينة من يشرف على البناء، ويفصل في مخططاتها، ومن ذلك ما جاء في الاستيعاب أن داراً كانت بين أخوين فحظرا في ذلك حظاراً، والحظار كل شيء مانع بين شيئين كأنه جدار، ثم هلكا، وتركا عقباً، فادعى كل منهما، أن الحظار له من دون صاحبه، فاختصم عقباهما إلى النبي ﷺ فأرسل حذيفة بن اليمان يقضي بينهما، فقضي بالحظار لمن وجد معاقد القمط تليه، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: أصبت أو أحسنت [٣].

وفى ترجمة العلاء بن عقبة في الإصابة أن رسول الله ﷺ قال: (من ضيق منزلاً، أو قطع طريقاً، فلا جهاد له) وذلك لما ضيق الناس المنازل، وقطعوا الطرق، فيؤخذ منه أنه ﷺ كان يحب النظام حتى في نصب الأخبية في السفر فكيف لا يحب ذلك في محل الاستيطان والبناء المشيد؟[٤] !! وكان يكره من الناس أن يوسعوا بيوتهم، ويضيقوا طرقاتهم.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ٢ صـ٦٢١ .

(٢) صحيح البخاري – كتاب الجهاد – باب الحراسة في الغزو جـ٦ صـ٨١ .

(٣) الاستيعاب جـ٣ صـ٢٤٦ – والقمط الأربطة من الليف التي تربط الحظار من أسفل .

(٤) التراتيب الإدارية صـ٣١٢ .

وكان ﷺ يخزن الطعام للناس حتى لا يقعوا في مجاعة، وكان ينظم لهم المكاييل، والموازين، ويحدد لهم قيمة الدراهم، والدنانير .

فعن الحسن أنه قال: أذكر أنه ﷺ حملني على عاتقه، فأدخلني في غرفة الصدقة، فأخذت تمرة فجعلتها في فيّ فقال ﷺ: ألقها أما عملت أن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد ﷺ ، فأخرجتها من فمي [١].

وفي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ : **كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه**[٢].

وفى صحيح مسلم يقول النبي ﷺ : **من ابتاع طعاماً فلا يبيعه حتى يكتاله**[٣].

والنقود والأوزان والأكيال المستعملة في عهد رسول الله هي: الدرهم، والدينار، والمثقال (ميزان المثل) والدانق (سدس درهم) والقيراط (سدس دينار بمكة ونصف العشر بالعراق) والأوقية (أربعون درهما) والنش (عشرون درهماً) والرطل (اثنتا عشرة أوقية) والقنطار(متعدد المقدار) .

سابعاً : الشئون العسكرية:

قاد رسول الله ﷺ المسلمين في الغزو، وأرسلهم في سرايا، وشرع لهم ما يكفل النصر والفوز، فأمرهم بأخذ الحذر، وضرورة السرية، وجعلهم يسيرون ليلا ويقبعون نهارً، وعلمهم ضرورة الإحاطة بأخبار عدوهم، والاستعداد له بما يكافئ عدته وعتاده.

وحثهم ﷺ على الجهاد في سبيل الله، وقال لهم ما قاله الله تعالى ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٤].

وعلمهم ضرورة أن يعرفوا قوة عدوهم، ونقاط الضعف فيه، وذلك بإرســال

---

(١) صحيح البخاري -- كتاب البيوع -- باب من ما يستحب من الكيل جـ٤ صـ٣٤٥ .

(٢) صحيح البخاري -- كتاب البيوع -- باب ما يستحب من الكيل جـ٤ صـ٣٤٥ .

(٣) صحيح مسلم -- كتاب البيوع -- باب بطلان البيع قبل القبض جـ٤ صـ١٧ -- ط. دار الشعب.

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٠ ، ١٩١ .

الجواسيس لكشف ما عليه الأعداء وكان عبد الله بن أبي بكر ﷺ في ليلة الهجـــرة يـــأتي لرسول الله ﷺ ولأبي بكر بأخبار قريش، وهو غلام شاب فطن، فكان يبيـــت عنـــدهما، ويخرج من السحر فيبين مع قريش طوال النهار .

وقد بعث ﷺ قبل أن يخرج مع أصحابه من المدينة إلى بدر، طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد، إلى طريق الشام يتجسسان الأخبار ويطلعان على أحوال قافلة قريش التجارية التي يقودها أبو سفيان ثم يرجعان إلى المدينة، فقدماها يوم وقعة بدر، فضرب لهما رسول الله ﷺ سهميهما وبأجرهما[١] مع أنهما لم يحضرا المعركة لأن بعثهما كان جزءاً من المعركة .

وفى سيرة ابن إسحاق أنه ﷺ لما خرج إلى بدر، وبلغ قريباً من الصحراء بعث بسبسة بن عمرو الجهنى حليف بنى ساعدة، وعدى بن أبي الزغباء الجهني حليف بنى النجار، إلى بدر يتجسسان له الأخبار عن أبي سفيان بن حرب وغيره[٢].

وفى سيرة ابن إسحاق أيضاً في غزوة بدر أنه ﷺ ركب بنفسه هو وأبو بكر حتى وقفا على شيخ من العرب، فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني مما أنتما؟

فقال رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك .

قال: أذاك بذاك؟

قال: نعم.

قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله ﷺ .

وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا كذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهي اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش.

فلما فرغ من خبره، قال: مما أنتما ؟

فقال رسول الله ﷺ : نحن من ماء، ثم انصرف عنه[٣].

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ٢ صـ٢٢٠ .

(٢) سيرة النبي جـ١ صـ٦١٤ .

(٣) سيرة النبي جـ١ صـ٦١٦ .

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه فبعث على بن أبي طالب، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر فأصابوا رواة لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج، وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله ﷺ قائم يصلى .

فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما.

فقالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما.

وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه، ثم سلم، وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنهما لقريش، وسألهما: أخبراني عن قريش؟

قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

فقال لهما رسول الله ﷺ : كم القوم؟

قالا: كثر .

قال: ما عدتهم؟

قالا: لا ندرى .

قال: كم ينحرون كل يوم؟

قالا: يوم تسعاً ويوماً عشراً .

فقال رسول الله ﷺ : القوم فيما بين التسعمائة والألف .

ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البحتري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه، ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها[1].

---

(١) السيرة النبوية جـ١ صـ٦١٦ – ٦١٧ .

يقول ابن إسحاق: لما سمع رسول الله ﷺ بما فعلت هوازن بعد فتح مكة بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد، وأمره أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ويأتيه خبرهم، فانطلق ابن أبي حدرد الأسلمي حتى دخل عليهم فأقام بينهم، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله ﷺ وسمع من مالك، وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل على رسول الله فأخبره الخبر[١].

وكان ﷺ يتخذ من المسلمين الجدد، من يقيم بين الأعداء، ليخبروه خبر القوم، من ذلك ما روي **أن العباس عم النبي ﷺ أسلم قبل بدر، فأمره النبي ﷺ بالمكث في مكة، وكان ﷺ يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ وكان المسلمون يثقون به في مكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله ﷺ بالمدينة، فكتب إليه ﷺ: إن مقامك بمكة خير .... ولذلك قال: ﷺ يوم بدر (من لقي منكم العباس فلا يقتله، فإنما أخرج مكرهاً)**[٢].

واتخذ ﷺ يوم الخندق من يخذل **الأحزاب، حيث أمر نعيم بن مسعود الأشجعي أن يخذلهم حيث أسلم نعيم أثناء حصار الخندق فأمره ﷺ بإخفاء خبر إسلامه وأمره بتخذيل القوم .**

فأتى نعيم بني قريظة، وكان نديماً لهم فقال: قد عرفتم ودي لكم.

قالوا: صدقت .

قال: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، به أموالكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان، جاءوا إلى حرب محمد ﷺ وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، لأنهم إن رأوا نهزة أصابوها، وإلا لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين محمد ﷺ ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهناً من أشرافهم.

فقالوا: أشرت بالرأي.

---

(١) المصدر السابق صـ٤٣٩ .

(٢) الإصابة جـ٢ صـ٨١٢ .

ثم أتى قريشاً فقال: قد عرفتم ودي وفراقي محمداً وقد بلغني أمر، رأيت حقاً على أن أبلغكموه نصحاً لكم، إن يهود ندموا على ما صنعوا، وأرسلوا بذلك إلى محمد وقالوا: يرضيك أن نأخذ لك من أشراف قريش وغطفان رجالاً تضرب أعناقهم، ثم نكون معك حتى تستأصل باقيهم.

ثم أتى غطفان فقال لهم مثل ذلك.

فأرسلوا إلى بني قريظة عكرمة في نفر من القبيلتين، فقالوا: لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً.

فقالت القبيلتان: إن الذي حدثكم به نعيم لحق، وأرسلوا إليهم: لا ندفع إليكم رجلاً واحداً .

فقالت قريظة: إن الذي ذكر نعيم لحق[١].

وسياسة النبي ﷺ في التجسس على أعدائه، وتخذيلهم أمر مشروع في قتال الأعداء، لأن من لم يتيقظ لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه، يقول النبي ﷺ (**الحرب خدعة**) [٢].

ويقول النووي (**واتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن، إلا أن يكون في الخداع نقض عهد، أو إزالة أمان فلا يجوز**) [٣].

وكان النبي ﷺ ينظم الجيش الإسلامي بتعيين حامل الراية والمستنفر، والقادة، والميمنة والميسرة، وصاحب السلاح.

وكان عليه السلام يقسم الجيش إلى مقدمة، وجانبين وقلب، وساقه.

وكان ﷺ يجهز الجيش بكل ما أمكنه من سلاح وعتاد، كالمنجنيق، وهو آلة ترمى بها الحجارة، والدبابة وهي آله يدخلها المجاهدون، يستطيعون بواسطتها من نقب الأسوار، وأول دبابة كانت في الإسلام صنعت بالطائف، والعرادة، وهي التي تقصف من بعيد .

---

(١) السيرة النبوية جـ٢ صـ٢٢٩ .

(٢) صحيح البخاري – كتاب الجهاد – باب الحرب خدعة جـ٦ صـ١٨٥ .

(٣) فتح الباري جـ٦ صـ١٨٥ .

وقد وضع ﷺ الحراسة على الثغور، فقد أمر النبي ﷺ أوس بن خولى الأنصاري ليبقى في " ذى طوى " أثناء عمرة القضاء، ليقطع كيد الاعداء، كما خلف بن بشر بن سعد بمر الظهران .

ثامناً شئون الدعوة:

الدعوة إلى الله تعالى من المهام الأساسية للحاكم المسلم لأن عمله منحصر في سياسة الدنيا وحراسة الدين .

وحراسة الدين يكون بمداومة الدعوة إليه بتذكير المؤمنين، وتبليغ الآخرين، وإقامة شرع الله بين الناس وتعيين الأكفاء، وإعداد الدعاة، وتيسير وجود المال، وتهيئة الأحوال لتتم الدعوة لكل الناس، وفى العالم كله بالحكمة والحسن في الوعظ والجدال .

وقد دعا النبي ﷺ الناس إلى دين الله تعالى، وكلف أصحابه بتبليغ من وراءهم الإسلام، فقاموا بذلك خير قيام، وممارسة هذا الجانب الدعوي لرسول الله ﷺ من المسلمات التي أجمع عليها العلماء، لأن الرسول ﷺ كان داعية من أول مبعثة حتى وفاته، وتعد سائر أعماله، وأقواله إبرازاً للدين، ودعوة إليه، وكل النظم الإسلامية تصب في مجال الدعوة إلى الله تعالى، يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[١].

ولذلك سأكتفي بهذه الإشارة التي تفيد أن شئون الدعوة كـانت من اهتمامات حكومة الرسول ﷺ .

أما الحديث عن دبلوماسية الرسول ﷺ في الدعوة ومع الناس فسوف نتكلم عنها بشيء من التفصيل في بإذن الله تعالى فيما بعد :

هذه هي حكومة النبي ﷺ في إطارها العلمي والعملي لتأكيد شمول الإسلام لكل شئون الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الأحزاب الآيات من ٤٥ إلى ٤٨ .

المبحث الرابع
دبلوماسية الدولة الإسلامية
العصر النبوي

تمهيد:

من الألفاظ المعربة كلمة (دبلوماسية) وهي تعني فن التعامل مع الممكن للوصول من خلال هذا التعامل لغايات حسنة، في لين وهدوء ورضا.

وفى العصر الحديث صارت الدبلوماسية علماً واسعاً، يحتاجه كل من يعمل في مجال الاتصالات الداخلية، أو الخارجية.

ولأهمية هذا الفن وجدنا اهتمام المؤسسات العلمية، والجامعات المختلفة بدراسته، وأصبح الحصول على المؤهلات من هذه المعاهد شرطا للعمل في وزارات الخارجية، والسفارات، والعلاقات العامة، وغيرها، أملا في أن يتمكن هؤلاء من الاستفادة بالظروف الموجودة وتحسين الاتصال بالناس، وإبراز النقاط الإيجابية التي تساهم الدولة الإسلامية لمصلحة غيرها، وذلك للوصول إلى الأهداف، والأغراض التي يقصدها المخلصون .

إن الدبلوماسية تكون بالقول والعمل، وتلازم اللين والهدوء، وتعيش بالخلق الطيب والسلوك القويم، وتتم في إطار غاية مقصودة سلفاً، ولذلك فهي في حاجة إلى الإخلاص الجاد، والصدق الواضح، والتعاون على البر والتقوى.

والدبلوماسية بهذا المفهوم منهج ضروري للدعوة إلى الله تعالى، عاشه المسلمون تحت مسميات أخرى مثل النصيحة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهكذا .

وكان للمسلمين سفارات، ولقاءات ومقابلات لتحقيق غايات عليا، تدخل في المفهوم المعاصر للدبلوماسية .

إن التذكير بالخير، والنصح الصادق من الواجبات الدينية التي أمر الله بها يقول الله تعالى ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾[١].

---

(١) سورة الأعلى الآيات من ٩ إلى ١١ .

وهي العمل الهادئ الخالي من العنف والشدة يقول سبحانه وتعالى ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[١].

فالدعوة الإسلامية تذكير مجرد، يراعي أحوال الناس وظروفهم، ويتفهم أهمية الوقوف على مدى تقبلهم للدعوة، وغلبة احتمال انتفاعهم بالذكر، والتأكد من روح المودة، وتمتين صلة الود والمحبة معهم ، لأن السيطرة والإكراه لا يفيدان ... هذه هي الدبلوماسية.

وملازمة الدعوة للدقة القولية، وللحسن في الحديث والنقاش أساس للدبلوماسية الحقة، يقول الله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[٢].

فما الحكمة إلا دقة في القول لمخاطبة العقل، وإقناعه في أسلوب موجز، يتعامل مع الواقع، ويتلاءم مع الحقائق الموجودة، ويصل إلى الغاية بأقصر الطرق وأيسرها، والحسن هو الجمال الذي يخاطب الوجدان، ويجذب العواطف نحو ما يريده المتحدث في لين وهدوء، وهو يتوجه إلى جميع الناس، ويخاطب كافة الطوائف لأنهم إن كانوا من خاصة الناس خاطبهم بالحكمة، وإن كانوا من العامة خاطبهم بالموعظة، وإن كانوا من المعاندين خاطبهم بالجدل الحسن وتلك قمة الدبلوماسية .

وليس في الإسلام ما يمنع من التعامل بلغة العصر من قبيل قول الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٣] حتى يتبين الناس أن الإسلام لا يتعارض مع الحق مهما كان لسانه، وأهله.

والحديث عن الدبلوماسية التي وجدت في المدينة المنورة بعد الهجرة ظهرت في التعامل مع غير المسلمين خارج الدولة الإسلامية، وذلك هو المجال الأوسع للحديث عن

---

(١) سورة الغاشية الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٣) سورة إبراهيم الآية ٤ .

الدبلوماسية، وهو نفسه موضوع الدراسات الحديثة للدبلوماسية، حتى أن كلمة (الدبلوماسية) إذا أطلقت فإنها تنصرف إلى النشاط الخارجي لأي دولة من الدولة وطريقتها في التعامل مع العالم الخارجي .

ولذلك كان حديثي عن الدبلوماسية خاص بالعالم الخارجي، أما التعامل مع الداخل فهو من شئون الحكم، والسيادة، وقد تناولته بالتفصيل في مبحث (حكومة الرسول ﷺ) .

ومن الواجب الإشارة إلى أن الإسلام صبغ دبلوماسيته بقيمه، وخلقه، ولذلك كان التميز، والسبق.

إن الدبلوماسية في الإسلامية تتميز عن الدبلوماسيات المعاصرة بما يلي:

- الدبلوماسية الإسلامية تقوم على مكارم الأخلاق دائماً فهي قائمة على الصدق، ورعاية المصلحة، وملازمة الخير، بخلاف غيرها من الدبلوماسيات التي ترى أن الغاية تبرر الوسيلة بعيداً عن القيم والخلق في بعض الأحيان .

- الدبلوماسية الإسلامية تعمل على تحقيق السعادة، ونشر السلام عن طريق إدخال الناس في الإسلام دين الأمن والأمان وإخراجهم من ظلمات الكفر والضلال بالقول الصادق والنصيحة الأمينة، والدعوة الخيرة، بخلاف الدبلومسيات الأخرى فإنها تعمل على نشر الفساد، وسيطرة الرعب، وإخراج الناس من النور إلى الظلمات وإبعادهم عن الحق بسبب كراهيتهم للإسلام.

- الدبلوماسيات الحديثة تقوم على القوة، والاستعلاء، وتستغل قوتها المادية، والعسكرية في إذلال الآخرين بتهديدهم بالحرمان، من عونهم المادي أو بحربهم والقضاء عليهم، تاركين ما يحققونه لأنفسهم من حرية، وعدالة، ومساواة، وكأنهم خلقوا من طينة خاصة بهم ... في الوقت الذي يرفض الإسلام كل هذا في سياساته، وتوجهه لأنه يتوجه للناس أجمعين بدين واحد وغاية واحدة بأسلوب يعتمد الصدق والخلق والأمان.

إن دبلوماسية الإسلام هي دبلوماسية المبادئ، والقيم، والحق، والعدل، والمساواة ولا صلة لها بغيرها ... والاشتراك في المسمى لا يعني التماثل في المضمون، والأشياء معتبرة بحقائقها وجوهرها، وليست بأشكالها، وصورها.

الدبلوماسية الإسلامية
مع العالم الخارجي

العالم كله موطن الدعوة الإسلامية، ولذلك كان التوجيه إليه بالبلاغ أمر يحتاج إلى الدقة، والحنكة، والحكمة للوصول إلى الإقناع بالحق، وعرض الإسلام بالحسنى، وتحقيق الحرية للناس بعد البيان والتبليغ.

وتلك في حقيقتها هي الدبلوماسية التي استعملها الرسول ﷺ في المدينة المنورة.

لقد بدأ النبي ﷺ يتعامل مع العالم الخارجي، وهو في مكة قبل الهجرة، بأسلوب يتناسب مع واقع المسلمين يومذاك، فهم ضعفاء، وعددهم قليل، ودائماً تنبئ سياسة الخارج على حقيقة الداخل، فكلما كان الداخل قوياً متيناً، كان الانطلاق في الخارج يعادله ولأن رجال الداخل هم جنود الخارج وعليهم مسئولية الحركة بالفكرة داخلاً وخارجاً .

ولذلك اكتفى الرسول ﷺ بتبليغ من هم خارج مكة بصورة المسلم العملية ومدى تعبيره عن الإسلام الحنيف، ومن هذه الزاوية يمكن تفسير هجرة المسلمين إلى الحبشة، فهي وإن كانت فراراً من اضطهاد أهل مكة للمسلمين، وتمهيداً للهجرة الكبرى، وبياناً للناس ليعلموا أن الأرض كلها لله وفيها مخرج للضعفاء والمضطهدين يصونون فيها حياتهم، ويحمون عقيدتهم وأفكارهم ... فهى وإن كانت كذلك فهي دعوة عملية للآخرين .

وتعد الهجرة إلى الحبشة دعوة علمية وعملية لأنها اشتملت على عرض الإسلام على أهل الحبشة من خلال النماذج المؤمنة.

يتضح ذلك من لقاء مهاجرى الحبشة مع النجاشي، في حضرة وفد قريش، المكون من عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد اللذين جاءا إلى الحبشة لإعادة المهاجرين إلى مكة حيث أجرى النجاشي نقاشاً مطولاً مع وفد قريش والمهاجرين أمام جمع كبير من القسيسين والرهبان رجالاً ونساءً .

يروي ابن كثير أن وفد مكة قدم الهدايا إلى النجاشي وبطارقته، وسجد أفراده له.

ثم قال عمرو بن العاص: إن ناساً من أرضنا رغبوا عن ديننا وهم في أرضك!!

قال لهم النجاشي : في أرضي ؟

قالا: نعم فبعث النجاشي وأحضر المسلمين إليه .

فقال جعفر لأصحابه وهم ذاهبون للقاء النجاشي ووفد قريش: لا يتكلم منكم أحد، أنا خطيبكم اليوم .

يقول جعفر : فانتهينا إلى النجاشي، وهو جالس في مجلسه، وعمرو بن العاص عن يمينه، وعمارة عن يساره، والقسيسون جلوس سماطين حوله وخلفه .

قال عمرو وعمارة للنجاشي: إنهم لا يسجدون لك .

فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان قائلين : اسجدوا للملك.

فقال جعفر: نحن لا نسجد إلا لله عز وجل .

فلما انتهينا إلى النجاشي قال: ما منعكم أن تسجدوا ؟

قال جعفر: لا نسجد إلا لله.

فقال له النجاشي: وما ذاك؟

قال جعفر: إن الله بعث فينا رسولاً – وهو الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم عليه السلام من بعده اسمه أحمد، فأمرنا أن نعبد الله، ولا نشرك به شيئاً، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة وأمرنا بالمعروف، ونهانا عن المنكر.

فأعجب النجاشي قوله.

فلما رأى ذلك عمرو بن العاص، قال: أصلح الله الملك إنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم .

فقال النجاشي لجعفر: ما يقول صاحبكم في ابن مريم ؟

قال جعفر: يقول فيه قول الله تعالى : هو روح الله، وكلمته أخرجه من العذراء البتول، التي لم يقربها بشر، ولم يفرضها ولد .

فتناول النجاشي عوداً من الأرض فرفعه فقال: يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد هؤلاء على ما نقول في ابن مريم ولا وزن هذه ثم التفت إلينا وقال : مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه رسول الله ﷺ وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم، لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أقبل نعليه، امكثوا في أرضي ما شئتم، وأمـــر لنا بطعام

وكسوة)[١].

ومن دلالة تأثير الهجرة إلى الحبشة في إسلام الناس إسلام النجاشي نفسه وما روى أن القوم بدأوا يفكرون في الدين الذي صنع هؤلاء القوم، حتى أن وفداً من أهل الحبشة مكوناً من عشرين رجلاً وفد على رسول الله ﷺ وهو في مكة وهو أول وفد جاء لرسول الله قبل الهجرة ليتعلم الإسلام فلما استمع لوحى الله أعلن إسلامه ودخوله في دين الله عز وجل ، يقول ابن كثير: (**إن وفداً من نصارى الحبشة وفد على رسول الله ﷺ وهو في مكة قبل الهجرة حين ظهر أمر الإسلام في أرض الحبشة، جاءوا إليه فكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن الكريم فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له، وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره**).

فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقال: خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتون بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم ركبا أحمق منكم.

قالوا لهم: لا نجاهلكم سلام عليكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا نألوكم في أنفسنا خيراً)[٢].

وهكذا وصلت الدعوة إلى العالم الخارجي بطريقة عملية، مبسطة وحركت جوانب البحث والنظر عند غير المسلمين حتى جاءوا إلى مكة، باحثين مكتشفين.

وتمت الهجرة إلى المدينة المنورة، وأخذ الرسول ﷺ في تأسيس دولته والدفاع عنها، وتعرض لعداوات كثيرة، واضطر وأصحابه لخوض حروب عديدة حتى كانت الحديبية سنة ست من الهجرة في ذي القعدة، ووقعت معاهدة الصلح مع أهل مكة، وبدأت مرحلة نشطة للدعوة في العالم الخارجي وتجلت الدبلوماسية الإسلامية بوضوح،

---

(١) البداية والنهاية جـ٣ صـ٧٠ .

(٢) البداية والنهاية جـ٣ صـ٨٢ .

ونشطت الحركة بالإسلام، وأخذت صوراً عديدة حتى تمكنت من نشر الإسلام في العالم كله وإيصال كلمة الله تعالى إلى العالمين .

ويعد الصلح في حد ذاته عملية سياسية بارعة هدى الله سبحانه وتعالى رسوله إليها، إذ بركت القصواء في الحديبية، وأبت دخول مكة فلما استفسر الصحابة من رسول الله ﷺ قال لهم (**حبسها حابس الفيل عن مكة**) .

وبرزت حكمة التوقف في الحديبية بعد ذلك لأن التوقف في الحديبية، وعدم دخول مكة عنوة، في أشهر الحج أفهم الحجيج والمعتمرين في الجزيرة كلها أن محمداً ﷺ وصحبه يقدرون حرمه الحرم، ولا يريدون عدواناً فيه، وفى نفس الوقت علموا أن محمداً من القوة، والشجاعة ما جعله يأتي بصحبه، ويترل قريباً من مكة ومعه من الرجال ما يقدر بهم أن يدخل مكة رغم أهلها، وأيضاً فإن سوقه ﷺ للهدي من " ذى الحليفة " تأكيد على أنه على الدين الحنيف الذي يعظم البيت، ويقدس حرمة الكعبة، ولديهم من دين إبراهيم عليه السلام خبر عن الهدى يعرفهم بمعنى سوقه .

وتواصل الدبلوماسية الإسلامية عملها ... وتبدأ المفاوضات بين رسل قريش ورسول الله ﷺ ويتم الاتفاق، ويأمر رسول الله ﷺ علياً بأن يكتب .

(بسم الله الرحمن الرحيم) .

فيقول سهيل: لا أعرف هذا ولكن أكتب باسمك اللهم.

فيقول رسول الله ﷺ لعلى : اكتب باسمك اللهم، فكتبها، ثم قال ﷺ : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.

فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك

فقال رسول الله ﷺ : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على ما يلي:

- **وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.**
- **على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم.**
- **ومن جاء قريشاً ممن مع محمد ﷺ بغير إذن محمد ﷺ لم يردوه عليه .**

- **وإن بيننا عيبه مكفوفة .**
- **وأنه لا إسلال ولا إغلال .**
- **وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه .**
- **ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .**
- **وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة .**
- **وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها)[١].**

وتتجلى حسن السياسة في موافقة الرسول ﷺ على بنود الصلح، لأن كفاف الحرب، وتحقيقي السلام أمنية تمناها الرسول ﷺ لينطلق بالدعوة إلى العالم كله، وقد أظهرت الأيام صدق هذه الأمنية، ومدى استفادة الإسلام من هذا الأمان الذي حدده بعشر سنوات .

وأظهرت الوقائع والأحداث أن من الخير للمسلمين أن تكون لهم عيون في مكة، تعرفهم بما يدبر أهلها للمسلمين، وتم ذلك بإبقاء من يؤمن من أهل مكة فيها، كما أدى هذا الشرط إلى فرار بعض مسلمي مكة وبخاصة الشباب، واتخاذهم أماكن في الصحراء للإقامة، وقد جعلوا أماكنهم في طريق القوافل التجارية إلى الشام، وتمكنوا بذلك من الاستيلاء على أموال قوافل قريش ... الأمر الذي جعل القرشيين يطلبون إلغاء هذا الشرط لشدة ضرره عليهم.

كما بينت الأيام أن مصلحة المسلمين أن لا يبقى مرتد بينهم، لأنه بردته عدو للمسلمين، كاره لهم ولدينهم، وبقاؤه في المدينة يضر المسلمين بنقل أخبارهم إلى أعدائهم من أهل مكة، وأيضاً فإن وجود المرتد وسط المؤمنين عامل تخذيل، وانهزام للمؤمنين الضعفاء في إيمانهم، وتقوية لليهود في المدينة وكذلك كان التخلص منهم عمل سديد وفق الله رسوله فيه .

إن تحقيق الحرية الدينية أمر يدعو الإسلام إليه من أول وهلة، وضمانه بالصلح قـــوة

---

(١) البداية والنهاية جـــ٤ صـــ١٦٨ .

للدعوة إلى الله تعالى .

وأكدت الموافقة على إلغاء الكلمات التي اقترحها رسول الله ورفضها سهيل على دبلوماسية الرسول ﷺ العالية لأن الموافقة على إلغاء ما طلبه سهيل من كلمات وعبارات لا تضر المسلمين، ولا تفيد أهل مكة، وهي من الإجراءات الشكلية التي لا صلة لها ببنود الاتفاق ولا تؤثر عليها لأنه لما اعترض سهيل بن عمرو على ذكر (**بسم الله الرحمن الرحيم**) وعلى ذكر أن **محمداً رسول الله**، لم يقف رسول الله عند هذا الاعتراض، وإنما أمر علياً بأن يكتب الذي ارتضاه سهيل، لأنه يؤدي المعنى الذي يريده رسول الله ﷺ ولا يعطل إمضاء الصلح.

ومن دبلوماسية الرسول ﷺ في يوم الحديبية أنه بعد أن وقع الصلح تألم المسلمون، وأبدوا عدم الرضا، فخرج رسول الله إليهم، ولم يكلمهم، وإنما ذهب إلى هديه ونحره، وأتى بالحلاق فحلق شعره، فلما رأى أصحابه ذلك قاموا إلى هديهم فنحروه، وقاموا إلى رأسهم فقصروا، وحلقوا، ولو أخذ الرسول يناقشهم، ويحاول إقناعهم لأخذ وقتاً، ولربما استمر بعضهم يجادل برأيه وهواه، ولظن البعض من أصحابه ﷺ أن الأمر اجتهاد من رسول الله ﷺ لم يتزل به وحي، فلما بادرهم الرسول بالعمل والتنفيذ أطاعوا جميعاً لأنهم رأوا أنه الوحي ابتداء وإنهاء ... وهذه كانت دبلوماسية الرسول ﷺ .

وفى طريق عودة المسلمين إلى المدينة نزل قول الله تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾[١] والمراد بالفتح صلح الحديبية، يقول الزهري (**فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه**)[٢].

وقد نشط الرسول ﷺ وصحابته، رضوان الله عليهم في تبليغ الدعوة الإسلامية إلى العالم كله بعد صلح الحديبية، وظهرت الدبلوماسية الإسلامية في صورة رائعة، طيبة، ومن أهم صورها ما يلي :-

---

(١) سورة الفتح الآيات من ١ إلى ٣ .

(٢) البداية والنهاية جـ٤ صـ١٧٠ .

ـ أولاً ـ
إرسال الرسائل

أنشأ النبي ﷺ للكتابة ديواناً عرف بـ" ديوان الانشاء " ويقصد به الموضع الذي يجلس فيه الكتاب، وهو أول ديوان وضع في الإسلام، وذلك أن النبي ﷺ كان يكاتب أمراءه، وأصحاب سراياه من أصحابه، ويكاتبونه، وكتب إلى من قرب ومن بعد من ملوك الأرض، يدعوهم إلى الإسلام .

واتخذ من أصحابه من يكتب له، وقد ذكر ابن عساكر أنهم كانوا خمساً وعشرين صحابياً فذكر منهم علياً، وأبا بكر، وعمر، وعثمان، وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن الأرقم، وأبي بن كعب، وثابت بن قيس بن شماس، وخالد بن سعيد بن العاص، وأخاه (أبان) وحنظلة بن أبي عامر الأسدي، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، وشرحبيل ابن حسنة، وعبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، والزبير بن العوام، ومعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي، والمغيرة بن شعبة، وخالد بن الوليد، والعلاء بن الحضرمي، وعمرو بن العاص، وجهيم بن الصلت، وعبد الله بن رواحة، ومحمد بن مسلمة، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح)[١].

وقد أوصلهم العراقي إلى اثنين وأربعين كاتباً[٢] وأوصلهم الدكتور / عبد الحي الفرماوي إلى ست وأربعين صحابياً [٣].

وقد اتخذ النبي ﷺ كتاباً يعرفون لغة من سيكتب إليهم، وعلى رأسهم زيد بن ثابت وأبي بن كعب، وعبد الله بن الأرقم رضي الله عنه يقول ابن إسحاق (كان زيد بن ثابت رضي الله عنه يكتب الوحى، ويكتب إلى الملوك وينوب عنه عبد الله بن الأرقم وكان إذا غاب عبد الله بن الأرقم، وزيد بن ثابت، واحتاج رسول الله ﷺ أن يكتب إلى أمراء الأجياد والملوك أمر من حضر أن يكتب له .

وكان اختيار الرسول لكتابه على أساس اتصافهم بالصـــدق، والأمانة والـــورع

---

(١) التراتيب صــ١٩١، الاستيعاب جــ١ صــ٥١ .

(٢) التراتيب الإدارية صــ١٩٢ .

(٣) رسم المصحف ونقطه، مخطوط صــ١٨ ، ١٩ .

والدقة والضبط، يقول أبو بكر لزيد بن ثابت (**إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، فقد كنت تكتب الوحي لرسول الله، فتتبع القرآن وأجمعه**)[١] فبين بذلك علة اختياره وهي اتصافه بالعدالة التامة، والضبط والإتقان يقول ابن حجر : لأنه لو لم تثبت أمانته، وكفايته، وعقله لما استكتبه النبي ﷺ وإنما وصفه بالعقل، وعدم الاتهام دون ما عداهما إشارة إلى استمرار ذلك فيه[٢].

وكان الكتبة من الصحابة رضوان الله عليهم يكتبون على اللوح، والرق (الجلد المرقق) والكـــاغد (الصحيفة)، واللخاف (الحجارة البيضاء الرقيقة) والنحاس والحديد، وعسيب النخل، وفي عظم أكتاف الإبل، والغنم، والأدم[٣].

وقد تميزت رسائله ﷺ بالمواصفات التالية:-

١) كان ﷺ يضع عنواناً ثابتاً لرسائله هو (**من محمد ﷺ رسول الله إلى فلان**) ويجعل العنوان قسمين مفصول بينهما مثل :

(**من محمد رسول الله** .... **إلى فلان**) ....

٢) كان ﷺ يصدر رسائله بـــ (**بسم الله الرحمن الرحيم**) تبركاً باسمه العظيم يقول ابن حجر : جمعت كتبه ﷺ إلى الملوك، وغيرهم فلم يقع لي شيء منها البداءة بالحمد، بل بالبسملة)[٤].

٣) كان يبدأ رسائله بعد البسملة بذكر اسمه ﷺ وهو المرسل واسم المرسل إليه أو شهرته.

٤) كان يقرن اسم المرسل إليه بوصف حسن وتقدير واضح لما في ذلك من جذب نفسي، وإثارة عقلية فإن كان المكتوب إليه ملكاً ذكر بعد اسمه "عظيم القوم الفلانيين" وربما كتب **ملك القوم الفلانيين**، وربما كتب: **صاحب مملكة** كذا.

٥) كان ﷺ يعبر عن نفسه في أثناء كتبه، بلفظ الإفراد، مثل إني، ولي، وجاءني،

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الحكام – باب يستحب للكاتب أن يكون أميناً جـــ١٣ صـــ١٨٣ .

(٢) فتح الباري جـــ١٣ صـــ١٨٤ على صحيح البخاري .

(٣) التراتيب الإدارية صـــ ١٩٧ .

(٤) فتح الباري جـــ٨ صـــ٦٨ .

ووفد عليّ، وما أشبه ذلك، وربما أتى بلفظ الجمع مثل بلغنا، وجاءنا، ونحو ذلك، وكان يخاطب المكتوب إليه عند الإفراد بكاف الخطاب، مثل لك، وعليك، وتاء المخاطب، مثل أنت قلت كذا وكذا، وجعلت كذا، وعند التثنية بلفظها مثل إنهما، ولكما، وعليكما، وعند الجمع بلفظة مثل أنتم ولكم، وعليكم، وما أشبه ذلك[١].

٦) كان ﷺ يكتب في رسائله: أما بعد، ويضعها فاصلة بين المقدمة وعرض الموضوع ليتحدد الهدف من الرسالة، ويعلم المرسل إليه الأمر المطلوب منه .

٧) كان يختم رسائله ﷺ بالسلام، فيقول لأهل كفر: والسلام على من اتبع الهدى.

٨) كانت الرسائل تذيل باسم كاتبها، وبخاتم رسول الله ﷺ المكتوب فيه (محمد رسول الله) وكان يبدأ الكتابة من أسفل إلى أعلى على أن يضع في كل سطر كلمة، ليكون لفظ الله في السطر الأعلى[٢] وصورته هكذا

الله
رسول
محمد

٩) كانت الرسائل تؤرخ بالهجرة[٣] حيث عرف التأريخ بها في زمنه ﷺ .

وقد كانت الرسائل عملاً دبلوماسياً، حسناً بلغت الإسلام، وخاطبت الأمم والملوك بالحسنى، واشتملت على الحقائق التالية:-

أولاً : وجهت الرسائل إلى الملوك والأمراء فهم قادة الناس، ورعيتهم على دينهم، وهم مسئولون عن توجيههم قد تضمنت الرسائل ما يفيد مسئولية الملوك عن رعاياهم ، ومن ذلك قوله ﷺ (... **فإنما عليك إثم المجوس**) ، (**عليك إثم الإريسيين**) ، (**عليك إثم الأكاريين**) وبذلك تعد هذه الرسائل تبليغاً لعالمية الإسلام بصورة عملية لأنها دعوة إلى القادة والملوك ورعاياهم .

ثانياً : كانت الرسائل تتناسب مع المرسل إليهم لهجة، وأسلوباً واستدلالاً، ولذلك كانت تتكلم عن المسيح، والكتاب إذا كان المرسل إليه من أهل الكتاب، وتتلكم عن مساوئ الكفر والضلال إذا كان المرسل إليه كافراً كالمجوس.

---

(١) التراتيب الإدارية صـ٢٠٣ .

(٢) الرسائل النبوية صـ١١٨ .

(٣) انظر التراتيب الإدارية صـ٢٢٢ وفيها كلام حسن عن وضع التاريخ الهجري .

ثالثاً: كانت الرسائل واضحة في موضوعها فهي كلها تدعو إلى التوحيد وطاعة الله وتتضمن الإنذار والتبشير، وتربط دوام الملك بالإيمان، وتخوف من زوال الملك حين الاستمرار على الكفر والمعصية .

وها هي نصوص بعض رسائله ﷺ :-

- ١ -

رسالته ﷺ إلى هرقل (عظيم الروم)

أرسل ﷺ إلى هرقل عظيم الروم رسالة وحملها الصحابي دحية الكلبي ونصها :

(**من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾**[١] والإريسيون هم رعايا الدولة الرومانية من المزارعين والعمال .

- ٢ -

رسالته ﷺ إلى كسرى (عظيم الفرس)

أرسل ﷺ إلى كسرى عظيم الفرس، رسالة حملها الصحابي عبد الله بن حذافة، ونصها:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد ﷺ رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس)[٢].

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٤ .

(٢) مكاتيب النبي صـــ ٩٠.

- ٣ -

رسالته ﷺ إلى النجاشي

أرسل ﷺ إلى النجاشي، رسالة حملها الصحابي عمرو بن أمية الضمري ونصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم، ملك الحبشة، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله، الملك القدوس، المؤمن، المهمين، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة، الحصينة، فحملت بعيسى فخلق من روحه، ونفخه، كما خلق آدم بيده، ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني فتؤمن بي، وبالذي جاءني فإني رسول الله، وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفراً، ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءوك فأقر ودع التجبر، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجعل، وقد بلغت، ونصحت، فأقبلوا والسلام على من اتبع الهدى) [1].

- ٤ -

رسالته ﷺ إلى المقوقس (عظيم مصر)

أرسل ﷺ إلى المقوقس عظيم الروم بمصر، رسالة حملها الصحابي حاطب بن بلتعة ونصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله، إلى المقوقس عظيم القبط بمصر سلام على من اتبع الهدى، أما بعد ... فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾

والعالم المعاصر في إطار دبلوماسيته الحديثة يهتم بالرسائل المتبادلة بين الملوك والرؤساء لأهميتها في تحسين العلاقات بين الدول ولذلك كان إقرار الإسلام لها سبقاً إسلاميا يذكر ويشكر .

---

(١) مكاتيب النبي صـ١٢١ .

- ثانيا -
بعث السفراء

عرف العرب قديماً كلمة السفير، واستعملوها في خطابهم، من ذلك قول على لعثمان بن عفان (**إن الناس قد أسفروني**) أي جعلوني سفيراً بيني وبينك، كما تفيد معنى الإصلاح بين الناس لأن السفير ينتقل بين المتخاصمين[١] وتفيد جمع الآراء وقت التنازع، وهي مشتقة من السفر الذي يفيد الرحلة والتنقل .

وكانت السفارة هي وسيلة الاتصال بين الأمم والشعوب القديمة، وبخاصة في وقت الحروب والخصومات، واستمرت إلى العصر الحديث مع تغيير في المنهج والأسلوب .

وتميز السفير في الإسلام على من سبقه، بأنه كان صاحب دعوة، يؤمن بها ويحمل رسائلها، ويدافع عنها، بأسلوب المؤمن الدقيق، والسياسي البارع.

وقد تخير النبي ﷺ من أصحابه رضوان الله عليهم، الأعرف بدينه، الجميل في خلقته، الكريم في خلقه، القوي في شجاعته، الأمين في عمله ونشاطه، الحليم في صبره، الداهية في قوله وعمله، أرسلهم فرادى لمواجهة ملوك الأرض وشعوبها، ودعوتهم إلى الله تعالى، فبعث دحية الكلبي إلى عظيم الروم، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الأسكندرية وبعث سليط بن عمرو أحد بنى سليط عامر بن لؤى إلى ثمامة بن أثال، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين وبعث شجاع بن وهي الأسدري إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وبعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث ملك اليمن، وأغلب السفراء تم بعثهم في العام التاسع من الهجرة [٢].

وقد حمل هؤلاء السفراء كتب رسول الله ﷺ إلى الناس، ولكنهم لم يكونوا مجرد حاملين للرسائل، وإنما كانوا سفراء، ودعاة يحملـــون دينهم، ويعملـــون له، ويدعون إليه بالحسنى، ويردون عنه زيف الضالين، وشبه المحرفين.

فهم سفراء النبي ﷺ وأهل دبلومـــاسيته، لذلك كـــان يوصيهم بالخلق الكريم،

---

(١) انظر: كتب اللغة .

(٢) سيرة النبي لابن هشام جـ٢ صـ٦٠٧ .

والتعامل السهل، يروي البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ كان يقول لأصحابه (**يسروا ولا تعسروا إنما بعثتم ميسرين لا معسرين**)[١].

ويروي البخاري أيضاً بسنده عن أبي سعيد بن بردة عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً وأبا موسى إلى اليمن وقال لهما (**يسرا ولا تعسرا، بشرا ولا تنفرا تطاوعا ولا تختلفا**)[٢].

يقول ابن حجر (**كان ذلك شأنه ﷺ في حق كل من بعثه إلى جهة من الجهات**)[٣].

وحين ننظر إلى أعمال هؤلاء السفراء وأقوالهم ندرك دورهم في الدعوة إلى الله تعالى، ونعلم بيقين أن هؤلاء السفراء لم يكونوا رجالاً عاديين، وأنهم تميزوا بعدة صفات أهمها:

١) الفهم الدقيق للإسلام، وإحاطتهم التامة بكل ما نزل من القرآن الكريم وبكل ما حدث به ﷺ لأنهم أجابوا عن كل مسألة سئلوا عنها، وأفتوا بحكم الله فيما سمعوا ورأوا .

٢) خبرتهم الواسعة بالجهات التي ذهبوا إليها والناس الذين بعثوا إليهم، ولذلك كانوا يتحدثون معهم في عقائدهم حديث الخبير الذي يعرف حقائق الشيء ظاهراً وباطناً ويناقشون أدلتهم، ويردونها بالصواب .

٣) تحليهم بحسن الخلق، والصبر الجميل، وحسن الحيلة، والبعد عن الانفعال، وبذلك تمكنوا من تحقيق الغاية التي ذهبوا إليها.

٤) تمتعهم بحسن الفهم، وحسن الخطاب، وحسن العرض، ولذلك كانوا يتكلمون مع من يحادثهم في مسائل هامة، في بداهة عالية، وهدوء رصين.

٥) صدقهم في الاعتقاد، ولذلك وفوا لإيمانهم، وحافظوا على حقوق محدثيهم وعرضوا قضيتهم بكل صدق، ووضوح، بلا تردد أو مداراة.

٦) شجاعتهم الشخصية النابعة من ثقتهم في الله، واعتزازهم بالانتساب إليه جعلهم يؤكدون صدق الإسلام وإن خالف ما عليه الناس.

إن هذه الصفات جعلتهم سفراء لله ورسوله، حين تحدثوا مع من أرسلوا إليهم، يتضح

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الوضوء – باب صب الماء على البول جـ١ صـ٣٢٣ .

(٢) صحيح البخاري – كتاب الجهاد – باب ما يكره في التنازع جـ٦ صـ١٦٣ .

(٣) الروض الأنف جـ٤ صـ٢٤٩ .

ذلك حين ننظر في كلمات السفراء لمن ذهبوا إليهم.

من ذلك ما ذكره دحية الكلبي لقيصر الروم، قال له :

(يا قيصر أرسلني من هو خير منك، والذي أرسله هو خير منه ومنك، فاسمع بذل، ثم أجب بنصح، فإنك إن لم تذلل لم تفهم، وإن لم تنصح لم تنصف.

قال: هات .

قال: هل تعلم أكان المسيح يصلى .

قال: نعم .

قال: فإني أدعوك إلى من كان المسيح يصلى له، وأدعوك إلى من دبر خلق السموات والأرض والمسيح في بطن أمه .

أدعوك إلى هذا النبي الأمي الذي بشر به موسى، وبشر به عيسى بن مريم بعده، وعندك من ذلك أثارة من علم تكفي من العيان، وتشفي من الخبر .

فإن أجبت كانت لك الدنيا والآخرة، وإلا ذهبت عنك الآخرة وشوركت في الدنيا، وأعلم أن لك رباً يقصم الجبابرة، ويغير النعم .

فأخذ قيصر الكتاب فوضعه على عينيه ورأسه وقبله، ثم قال: أما والله ما تركت كتاباً إلا وقرأته، ولا عالماً إلا وسألته، فما رأيت إلا خيراً، فأمهلني حتى أنظر من كان المسيح يصلي له، فإني أكره أن أجيبك اليوم بأمر أرى غداً ما هو أحسن منه فأرجع عنه، فيضرني ذلك لا ينفعني [1].

وحين ننظر في حديث دحية تجده يعرف بمقام الله ومقام رسوله ﷺ وضرورة الخضوع والخشوع لله تعالى، ونقد ما عليه القيصر بأسئلة تحتاج إجابتها إلى معرفة الحقيقة كما هي في التوراة والإنجيل قبل التحريف، وإنما تحدث دحية عن الله وعن الرسول وعن موسى وعيسى عليهم السلام لأنها أمور مشتركة بينه وبين قيصـــر، وهذا أدعى للإجابة .

ومنه أيضاً ما ذكره العلاء الحضرمي للمنذر بن ســـاوي ملك البحرين، قال له **(يا**

---

(١) الروض الأنف جـ٤ صـ٤٢٩ .

منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغره في الآخرة.

إن هذه المجوسية شر دين، ليس فيها تكرم العرب، ولا علم أهل الكتاب، ينكحون ما يستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتكر على آكله، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة .

ولست بعديم عقل، ترى ولا تدرك !!.

هلى ينبغي لمن لا يكذب أن لا تصدقه !!؟.

ولمن لا يخون أن لا تأمنه !!؟

ولمن لا يخالف أن لا تثق به !!؟

فإن كان هذا هكذا، فهو هذا النبي الأمي، الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد في عفوه، أو نقص من عقابه، إن كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل البصر.

فقال المنذر: قد نظرت في هذا الأمر الذي في يدي، فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت في دينكم، فوجدته للآخرة، والدنيا، فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت، ولقد عجبت أمس، ممن يقبله، وعجبت اليوم ممن يرده، إن من إعظام من جاء به أن يعظم رسله، وسأنظر) [1].

وهكذا بين العلاء الحضرمي في إيجاز بديع ما في المجوسية من عيوب، وما في الرسول من محاسن، وما في الإسلام من عظمة وخير ... الأمر الذي جعل المنذر يشهد بما سمع، ويقول ما قال .

ومن ذلك ما ذكره عمرو بن العاص للجلندى، قال له: (**يا جلندي إنك وإن كنت منا بعيداً، فإنك من الله غير بعيد.**

إن الذي تفرد بخلقك أهل أن تفرده بعبادتك، وأن لا تشرك به من لم يشركه فيك.

واعلم أنه يميتك الذي أحياك، ويعيدك الذي بدأك .

فانظر في هذا النبي الأمي الذي جاء بالدنيا والآخرة، فإن كان يريد به أجراً

---

(١) الروض الأنف جـ٤ صـ٢٥٠ .

فامنعه، أو كان يميل به هوى فدعه، ثم انظر فيما يجيء به: هل يشبه ما يجيء به الناس، فإن كان يشبهه، فسله العيان، وتخير عليه في الخبر، وإن كان لا يشبهه فاقبل ما قال، وخف ما وعد .

قال الجلندي: إنه والله لقد دلني على صدق هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول من أخذ به، ولا ينهي عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويغلب فلا يضجر، وأنه يفي بالعهد، وينجز الموعود، وأنه لا يزال سر قد اطلع عليه يساوي فيه أهل، وأشهد أنه نبي) [١].

وبتأمل مقالة عمرو بن العاص نجده يوضح دلالة الخلق على الألوهية وعلى قدرة الله تعالى، ويبين ما للرسول من صفات تجعله قدوة الخير، ورائد النجاة .

ومن ذلك ما ذكره المهاجر بن أبي أمية للحارث بن عبد كلال، حيث قال:

(يا حارث إنك كنت أول من عرض عليه النبي ﷺ نفسه فخطئت عنه، وأنت أعظم الملوك قدراً.

فإذا نظرت في غلبة الملوك فانظر في غالب الملوك .

وإذا سرك يومك فخف غدك .

وقد كان قبلك ملوك ذهبت آثارها، وبقيت أخبارها، عاشوا طويلاً، وأملوا بعيداً، وتزودوا قليلاً، منهم من أدركه الموت، ومنهم من أكلته النقم.

وإني أدعوك إلى الرب إن أردت الهدى لم يمنعك، وإن أرادك لم يمنعه منك أحد.

وأدعوك إلى النبي الأمي الذي ليس له شيء أحسن مما يأمر به، ولا أقبح مما ينهي عنه، واعلم أن لك رباً يميت الحي ويحيي الميت، ويعلم خائنة الأعين، وما تخفى الصدور.

فقال له الحارث: قد كان هذا النبي عرض نفسه على فخطئت عنه، وكان ذخراً لمن صار إليه، وكان أمره أمراً سبق، فحضره اليأس وغاب عنه الطمع، ولم يكن لي قرابة أحتمله عليها، ولا لي فيه هوي أتبعه له، غير أني أري أمراً لم يوسوسه الكذب، ولم يسنده الباطل، له بدء سار، وعاقبة نافعة، وسأنظر) [٢].

---

(١) الروض الأنف جـ٤ صـ٢٥٠ .

(٢) الروض الأنف جـ٤ صـ٢٥١ .

إن هذه المواعظ التي واجه بها صحابة رسول الله ﷺ الملوك والرؤساء، تدل بوضوح على عبقرية هؤلاء الصحابة، ومدى تمتعهم بالمزايا التي يجب أن يتحلى بها السفير في مفهوم الدبلوماسية المعاصرة.

إن الجو الذي قيلت فيه هذه الكلمات يوضح أهميتها، إنها قيلت لملوك وأمراء، وهم بين جنودهم، ووزرائهم، وحاشيتهم، و لم يكن أحد منهم قد دخل في الإسلام بعد بينما المتحدث رجل واحد، هو سفير رسول الله ﷺ .

فدلالة الموقف واضحة في تأكيد شجاعة، وقوة شخصية سفير رسول الله ﷺ وتبين في نفس الوقت قوة ولائه للقضية التي جاء من أجلها .

لقد دار الحديث حول قضايا العقيدة فدعوا إلى الإيمان بالله الواحد، ونبذ عبادة غيره، مع تقديم الدليل المناسب لكل منهم.

فمع قيصر الروم يدلل السفير على وحدانية الله التي تؤكد بشرية المسيح وعبوديته لله، وقدم الله يؤكد رسالة عيسى عليه السلام .

ومع المنذر المجوسي يدلل بهوان النار وضررها على عدم صلاحيتها للألوهية، وأن الألوهية الحقة هي لله الخالق .

وهكذا سار كل سفير في كلمته اتجاهاً يتناسب مع محدثه، بلا اصطدام معه، وبطريقة تدعوه إلى النظر والتدبر .

لقد ركزوا في كلماتهم السابقة على أهم أركان الإيمان وأساسيات العقيدة وهي:

- الإيمان بالله الواحد الأحد فهو الأول والآخر وهو القادر الحكيم .
- الإيمان بالرسول النبي الأمي المبشر به في التوراة والإنجيل، وما في دعوته من خير دليل على صدقه .
- مسئولية الإنسان عن نفسه أمر محتم، وللإنسان عقله وفكره ويجب عليه أن يتدبر فيمن كان يصلى المسيح له، وفى قيمة النار وما فيها من هوان وضياع، وبها يحترق العصاة يوم القيامة ... وفى ملك الدنيا ونعيمها لإدراك من يعطيها ويتحكم فيها .
- الإيمان بالآخرة بما فيها من حساب وجزاء .

و لم يتكلموا في غير هذه الأركان، لأن الإسلام كله يأتي تبعاً لهذه القضايا .

إن هؤلاء السفراء هم نماذج الدعاة في العالم كله، وقد تمكنوا من نشر الإسلام في الناس، لحسن خلقهم، وسعة معارفهم، وحسن خطابهم، وجمال عرض قضيتهم .

إن أهم ما أتصفوا به عملياً من خلال ما سبق ذكره ما يلي:

١) الحسن والجمال الخلقي، حتى لا ينفر الناس منهم .
٢) الشجاعة، والثقة، والإقدام في صدق وإخلاص .
٣) الالتزام بمكارم الأخلاق في القول والسلوك .
٤) معرفة الإسلام معرفة حقيقية، مع صدق العقيدة، والخضوع لشرع الله.
٥) إتقان كل منهم للغة من بعث إليهم .
٦) تفهم واقع من بعثوا إليهم، ومحادثتهم في الأقضية التي تهمهم، وتعايشهم.
٧) تعد كلماتهم المذكورة من أحسن المواعظ التي تقال للملوك، والأمراء والملأ من الناس .
٨) كان حامل هؤلاء على السفر، هو الإخلاص لدين الله تعالى حيث لا أجر يأخذونه، ولا جاهاً ينالونه، وإنما غايتهم رضى الله والجنة .

ـ ثالثاً ـ
استقبال الوفود

من دبلوماسية الرسول ﷺ استقباله للوفود عقب فتح مكة، فلقد بدأت قبائل العرب في إرسال أفراد ينوبون عنهم، إلى رسول الله ﷺ في المدينة لمعرفة حقيقة دعوته، وللسؤال عن أهم القضايا التي تهمهم قبل الدخول في الإسلام، يقول ابن إسحاق (**وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام وبأمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ﷺ وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس، وهاديهم، وأهل البيت وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله ﷺ، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودخلت فى الإسلام عرف العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فأرسلوا وفودهم إلى المدينة ليعلموا حقيقة الدعوة، فلما عرفوا دخلوا في دين الله أفواجاً يضربون إليه من كل وجه**)[١].

وكان مقدم الوفود سنة تسع من الهجرة، ولذلك سمى العام التاسع بعام الوفود.

وقد وضع النبي ﷺ نظاماً حسناً لاستقبال الوفود، يقوم على النقاط التالية:-

١) تهيئة مكان نزول الوفود :

أعد رسول الله ﷺ عدداً من دور المدينة لإنزال الوفود بها، ومنها دار رملة بنت الحارث النجارية، وهى دار واسعة، وفيها نخل وزروع، وقد نزل بها وفد سلامان، ووفد تميم بن عيينة بن حصن، ووفد بنى حنيفة ووفد بني كلاب ... ومنها دار المغيرة بن شعبة، ونزل بها الأحلاف من ثقيف ... ومنها دار أبي أيوب الأنصارى ونزل بها وفد نجران ... ومنها دار يزيد بن أبي سفيان، ونزل بها وفد همدان ... ومنها دار بلال، وقد نزل بها ملك أيلة حين قدم مع أهل الشام، واليمن .

٢) إكرام الوفد :

أمر النبي ﷺ أصحابه بأن يحسنوا استقبال الوفود، ويكرموا وفادقم فقاموا بذلك خير قيام، ففي طبقات ابن سعد أن وفد بنى حنيفة نزلوا دار رملة بنت الحارث، وأجريت

---

(١) سيرة النبي لابن هشام جـ٢ صـ٥٦٠ .

عليهم ضيافة فكانوا يؤتون بغداء وعشاء، مرة خبزاً ولحماً، ومرة خبزاً ولبناً، ومرة خبزاً وسمناً) [١].

وفيه أن النبي ﷺ رحب بوفد تجيب، وأكرمهم، وحباهم، وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم، ووفادتهم .

٣) الاستعداد للقاء الوفد :

اتخذ النبي ﷺ قبة في المسجد النبوي يستقبل فيها الوفود، وجعل خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينه وبينهم، ويأذن لهم عند رسول الله ﷺ [٢].

وكان الرسول ﷺ حين يلتقي بالوفد يلبس أحسن ثيابه، ويأمر أصحابه بذلك، فقد لبس ﷺ وأبو بكر وعمر يوم استقبال وفد كندة حللاً يمانية [٣]وقد بنى الصحابة لرسول الله ﷺ دكة من طين، يجلس عليها، حين يستقبل الوفود [٤] ليراه الجميع ويعلموا أنه رسول الله ﷺ

٤) الاستماع للوفد أولاً :

كان الرسول ﷺ يستقبل الوفد، ويستمع منه أولاً، ليعرف موضوعه، ومذهبه وبعد ذلك يرد عليه، أو يكلف أحداً من أصحابه بالرد، وأكتفي هنا بإيراد نموذجين:

النموذج الأول:

قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ وتكلم خطيبهم فقال (**الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثرهم عدداً، وأيسرهم عدة فمن مثلنا في الناس ؟**

ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم ؟

فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا [٥] **ثم**

---

(١) طبقات بن سعد جـ١ صـ٣١٦ .

(٢) السيرة النبوية جـ٢ صـ٥٣٩ والقبة: خيمة مضروبة .

(٣) طبقات ابن سعد جـ٤ صـ٣٤٦ .

(٤) سنن النسائي جـ٨ صـ ١٠١، ١٠٢ .

(٥) الروض الأنف جـ٤ صـ٢٠٣ .

جلس فقال رسول الله ﷺ لثابت بن الشماس، أخي بن الحارث بن الخزرج: قم فأجب الرجل في خطبته .

فقام ثابت فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله.

ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمهم نسباً، وأصدقهم حديثاً، وأفضلهم حسباً، فأنزل عليه كتابه وأئمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين .

ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس حسباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فعالاً .

ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعا رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم) [١].

قال ابن إسحاق (فلما فرغ ثابت بن الشماس من قوله، قال الأقرع بن حابس (وأبي، إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا) [٢].

فلما فرغ الطرفان من الشعر والخطب أسلم القوم، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم [٣].

النموذج الثاني :

قدم ضمام بن ثعلبة وافداً على بني سعد بن بكر، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه فقال: أيكم ابن عبد المطلب.

---

(١) الروض الأنف جـ٤ صـ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٢) الروض الأنف جـ٤ صـ٢٠٦ .

(٣) المرجع السابق جـ٤ صـ٢٠٦ .

فقال رسول الله ﷺ : أنا ابن عبد المطلب .

قال: أمحمد ؟

قال: نعم .

قال: يا ابن عبد المطلب، إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة، فلا تجدن بها على في نفسك .

قال: لا أجد في نفسي، فسل عما بدا لك .

قال: أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله بعثك لنا رسولاً ؟

قال: اللهم نعم .

قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟

قال: اللهم نعم .

قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس .

قال: اللهم نعم .

قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة، الزكاة والصيام، والحج، وشرائع الإسلام كلها، ينشده عند كل فريضة منهما كما ينشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف إلى بعيره راجعاً .

فقال رسول الله ﷺ : إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة)[١].

إن المواجهة الصادقة بين الوفود، ورسول الله ﷺ كثيراً ما كانت تحقق الثمار المطلوبة، وكانت وسيلة مهمة، وأساسية في إسلام قبائل الجزيرة العربية كما هو واضح من إســـلام

---

(١) الروض الأنف جـــ٤ صـــ٢٠٩ .

الجزيرة كلها بعد فتح مكة بلا قتال .

٥) الإهداء للوفد :

يروي البخاري بسنده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أوصى عند موته بثلاث منها إجازة الوفود بعده بمثل ما كان يجيزهم ﷺ [١].

وقد أعطى النبي ﷺ فروة بن عمرو الجذامي اثنى عشر أوقية من الفضة، وأعطى كل واحد من وفد تميم مثل ذلك، وفعل ذلك مع كل من وفد عليه .

وسر هذا الإهداء أنه يولد الحب، ويعظم الإخلاص، ويبرز حسن المعاملة.

٦) توديع الوفود :

كان النبي ﷺ يحسن توديع الوفود، كما يحسن استقبالهم، وكان يوصيهم بالدعوة، ويبعث معهم من يعلمهم القرآن إن احتاجوا إليه .

* * *

وهكذا ...

تعامل رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم مع الوفود على اعتبار أنهم أضياف أتوا إليه، فاحسنوا لقياهم، وفهموا سبب مجيئهم، وقدموا أمامهم صورة عملية للإسلام في سلوك المسلمين وخلقهم، وعلموهم ما لديهم من معرفة، وبينوا لهم دينهم، وطلبوا منهم الدخول في الإسلام ... وقد تأثرت الوفود بما رأوا، واقتنعوا بالإسلام وأسلموا، وتبعهم أهلوهم في الإيمان .

وهذه الوسيلة تترجم عملياً في العصر الحديث في صورة المؤتمرات التي تجمع العلماء لمناقشة مسائل معينة أمام كل من يهتم بهذه المسائل ويمكن الإفادة منها في مجال الدعوة إلى الله تعالى .

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الجهاد – باب إجازة الوفد جـ٦ صـ١٧٠ .

ـ رابعاً ـ
العلاقات الدولية

بعدما تأسست دولة الإسلام في المدينة أخذ رسول الله ﷺ يوثق علاقته بالدول الأخرى ليتمكن من تبليغ الدعوة إلى الناس جميعاً، ولذلك أرسل الرسائل، وبعث السفراء، واستقبل الوفود، ليصل الإسلام إلى كل مكان .

وكان النبي ﷺ يعرض على أهل البلاد البعيدة أن يختاروا إحدى ثلاث :

أولاها : أن يدخلوا في الإسلام ولهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم.

ثانيها : أن يدفعوا الجزية عن كل شاب حالم جرت عليه الموسى، وحينئذ يكون من أهل الذمة، الداخلين مع المسلمين في عهد، وأمان.

ثالثها: فإن أبوا الأولى، والثانية، فليس أمامهم إلا الثالثة، وهى القتال حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويقبلوا بالإسلام أو بالجزية .

إن التخيير بين هذه الأمور الثلاثة مندرج في إطار الحرية، والمساواة، والكرامة الإنسانية .

لأن الاختيار الأول إن رضوا به فهو تقرير لحقوق الإنسان في إطار المبادئ الدستورية المقررة، لأن الاختيار يتم بحرية الإنسان الكاملة، وبذلك يصير مع المسلمين واحداً منهم يتحمل ما يتحملون من مسئولية، ويكلف بما يقومون به من أعمال .

والاختيار الثاني لا يتعارض مع حقوق الإنسان أيضاً، لأن الجزية قدر مالي ضئيل، لا يساوي شيئاً أمام الضرائب التي كانوا يدفعونها للملوك، والسلاطين، والمسلمون أنفسهم يدفعون أكثر من هذه الجزية زكاة، وصدقة، وكفارات، ولذا عدت الجزية مخرجاً حسناً لمن يريد أن يتمسك بدينه، ويعيش حراً في دولة يسودها الإسلام، وكل دافع للجزية يتمتع بحماية الدولة، ويضمن الحياة في إطار مؤسسات تعمل لضمان الضرورات التي لابد منها لسائر الناس .

وقد استجابت بلدان كثيرة، واختارت دفع الجزية، يقول الشافعي : **صالح رسول الله ﷺ نصارى نجران على الجزية، وفيهم عرب وعجم، وصالح أهل اليمن على**

الجزية، المقررة وفيهم عرب وعجم[١].

وعن ابن شهاب: أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران في علمنا، كانوا نصارى، ثم قبل رسول الله ﷺ الجزية من أهل البحرين، وكانوا مجوساً، وممن تولى قبض الجزية في عهد رسول الله ﷺ أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل)[٢].

وقد دخل كل من رضى بالجزية في عهد الذمة مع المسلمين بعدما رأوا عدل الإسلام واستقامة المسلمين، وحب الجميع للأمانة والوفاء .

وقد لاحظنا أن دفع الجزية لم يدم طويلاً لأن أهل الذمة لم يطل بهم المقام، ودخلوا في دين الله تعالى والتزموا بدفع الزكاة والصدقات والكفارات وهي أكثر بكثير من مقدار الجزية حباً في الإسلام وإخلاصاً لدين الله تعالى .

واستمر المسلمون في الدعوة إلى الإسلام على هذا النمط حتى تم فتح بلاد العالم، ورضيت بالإسلام، وآمنت بالله ورسوله، ودخل الناس في دين الله أفواجاً وبقيت الممالك القوية كفارس، والروم، بعيدة عن سلطة السيادة الإسلامية حتى تمكن المسلمون منهم في زمن الخلفاء الراشدين، وتحقق للإسلام ما أراد من الفوز، والانتشار .

إن أهم المبادئ الإسلامية في التعامل الدولي هي :

١) الوفاء بالعهد :

فأي عهد يتم الاتفاق عليه يجب الوفاء به لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾[٣] وقوله تعالى ﴿ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[٤] وقوله تعالى ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾[٥].

---

(١) التراتيب الإدارية صـ٤٢٠ .
(٢) التراتيب الإدارية صـ٤٢١ .
(٣) سورة المائدة الآية ١
(٤) سورة الأنعام الآية ١٥٢ .
(٥) سورة النحل الآية ٩١ .

فإذا وجد داع لنقض العهد، فلابد من إنذار المعاهد وتعريفه بنقض العهد وسببه، ليكون جميع الأطراف متساوين في العلم بما آل إليه الأمر يقول الله تعالى﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (١).

٢) الالتزام بالقيم الأساسية :

تقوم السياسية الإسلامية على تكريم الإنسان، وضمان حريته، والتزام العدل والرحمة في معاملته (٢) وهذا التكريم حق ثابت لكل إنسان وقد رأينا هذا الثبوت في مبحث القيم الإسلامية للنظام السياسي .

وحافظ المسلمون على القيم الإخلاقية النبيلة فصدقوا في عهدهم، وصانوا الأمانات التي وكلت إليهم، و لم يتحدث التاريخ عن غدر أو خداع لأن ذلك لا يتفق مع دين الله تعالى.

٣) المحافظة على السلم :

السلم هو الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم لقوله تعالى ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ (٣)﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٤) ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (٥) ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (٦)

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن

---

(١) سورة التوبة الآية ٤ .

(٢) انظر المبحث الرابع من الفصل الأول .

(٣) سورة الأنفال الآية ٦١ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٠٨ .

(٥) سورة النساء الآية ٩٤ .

(٦) سورة النساء الآية ٩٠ .

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1].

فدل كل ذلك على أن الأصل العام في العلاقات الخارجية بين المسلمين وبين غيرهم هو السلم، وليس الحرب، فقد أمر الله تعالى بالجنوح إلى السلم، وبين أن الشيطان يعمل لإشعال الحرب، وإحياء الفتن، وعلى المسلم أن يتعامل مع التصرفات الظاهرة، ويتجاوب معها في يقظة وحذر.

وعلى هذا فإن الحرب أمر عارض طارئ لدفع الشر والفساد، وقمع العدوان، والدعوة إلى الإسلام دائماً تكون كما كانت بالحجة والبرهان لا بالسيف والقوة .

ويعتبر موقف الإسلام من غير المسلمين هو موقف المؤيد للسلام في كل مكان، إذا تحققت مصلحة الدعوة الإسلامية .

إن الدعوة إلى الله تعالى بلاغ أمين لوحي الله تعالى، ومصلحتها تتحقق بأمرين :

الأمر الأول : السماح لها بالحركة الحرة إلى الناس .

الأمر الثاني : عدم التصدي لحملة الدعوة، وعدم منعهم من الاتصال بالناس .

وهذان الأمران حق طبيعي للإنسان تحقيقاً لحريته وكرامته وبتحققهما ينتشر السلام ويتحقق العدل .

إن الإسلام استأصل من النفوس جذور الأحقاد الدينية، والعداوات التي تحركها الأطماع المادية، وقضي على الفوارق الجنسية، والعصبية وتناحر الطبقات، وأحل محلها روح المحبة، والإنسانية والتسامح والرضا، والتعاون في سبيل الخير العام، كما انتزع " الأنانية " الطاغية التي من شأنها أن تخلق منافسة بين الشعوب، وبالتالي تؤدي إلى نشوب حروب طاحنة بقصد الاستعلاء في الأرض، أو السطوة على ثروات وتراث الآخرين .

أما إذا استمر العدوان على البلاد الإسلامية، واستمر الأعداء في الإساءة لدين الله تعالى، فحينئذ يصير الجهاد أمراً مشروعاً لإنقاذ البلاد، والعباد، والدين من الهوان، والضياع .

وقد ينتهي الجهاد بالنصر، أو بتوقيع ميثاق مع المحاربين، أو بهدنة مؤقتة، وكل ذلك له في الشرع الإسلام حكم وأحكام .

---

(١) سورة الممتحنة الآية ٨ .

الفصل الثالث

الخلافة الرشيدة

ويشمل المباحث التالية:-

المبحث الأول: التعريف بالخلافة .

المبحث الثاني: شروط صحة البيعة .

المبحث الثالث: بيعة الخلفاء الراشدين .

المبحث الرابع : الفرق بين الخلافة والبابوية .

المبحث الخامس: تطور الخلافة بعد عصر الراشدين.

تمهيد:

يعد بحث الخلافة الرشيدة من أهم أبحاث النظام السياسي، وبخاصة للمجتمعات التي ترفض علمانية الدولة، وتجعل الإسلام مصدراً رئيسياً للتشريع، وتعمل على إعادة أمجاد الأمة العظيمة .

إن أبناء هذه المجتمعات تمتلئ قلوبهم بحب الله ورسوله، وترتبط أمالهم وأعمالهم بهدى الإسلام الحنيف، الذي يحدد لهم الصراط المستقيم، ويهديهم إلى سعادة الدنيا والآخرة .

وحتى يكون المسلم على بينة في هذه القضية الهامة، قضية الخلافة، كانت هذه الدراسة التي أرجو من رائها إبراز المسائل التالية:-

- أعرف بالخلافة في لسان علماء الأمة الذين كتبوا في النظام السياسي .
- تتبع بيعة الخلفاء الراشدين، وبيان مدى تطابقها من القيم الدستورية الإسلامية، وبخاصة قيمة " الشورى ".
- تطور نظام الخلافة بعد الخلفاء الراشدين .

أسأل الله تعالى أن يوفقني فيما أكتب، وأن يجعل بيني وبين القارئ قبولاً، ومودة، ورضى .... فهو سبحانه على كل شيء قدير، وسيأتي هذا الفصل مشتملاً على المباحث التالية:-

- **المبحث الأول** : التعريف بالخلافة .
- **المبحث الثاني** : شروط صحة البيعة .
- **المبحث الثالث** : بيعة الخلفاء الراشدين .
- **المبحث الرابع** : الفرق بين الخلافة والبابوية .
- **المبحث الخامس**: تطور الخلافة بعد عصر الراشدين .

والله ولي التوفيق ،،،

المبحث الأول
التعريف بالخلافة

أطلق المسلمون على من ولى الأمر بعد رسول الله ﷺ اسم الخليفة وسموا النظام بالخلافة .

والخلافة في اللغة : مأخوذة من خلف، يقال: خلف فلان فلاناً إذا جاء بعده ومن الاستعمالات المشهورة السلف والخلف، ويقال: خلفته أي جئت بعده ويقال استخلفته أي طلبت منه أن يكون بعدي وجعلته خليفتي، والخليفة الذي يستخلفه من كان قبله ... وجمعه خلائف، والخلفاء .

والخلافة هي الإمارة وهي الخليفي، وفي حديث عمر (**لولا الخليفي لأذنت**) لولا الخلافة لكنت مؤذناً .

ويقال في هؤلاء القوم خلف لمن مضى، أي يقومون مقامهم [(١)].

وأبو بكر الصديق ﷺ هو أول من سمي بالخليفة، لأنه خلف أمر الناس بعد رسول الله ﷺ ولما سماه الناس خليفة الله نهاهم عن ذلك، وقال لهم: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله ﷺ [(٢)] وحجته أن الاستخلاف يكون في حق الغائب، وليس في حق الحاضر لأن الله لا يغيب أبداً .

وتعتبر مصطلحات الخلافة، والإمامة، وإمارة المؤمنين، ذات معنى واحد عند الجمهور[(٣)] لأنها تعني الرئاسة التي لا رئاسة فوقها .

وقد ورد لفظ " خليفة " في القرآن الكريم يقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[(٤)] وذلك القول قبل خلق آدم عليه السلام ليأمرهم بالسجود له بعد تسويته ونفخ الروح فيه .

---

(١) راجع المعنى اللغوي في لسان العرب والصحاح، وكتب غريب الحديث .

(٢) الأحكام السلطانية لأبي يعلى صـ ١١ .

(٣) مغني المحتاج للشربيني جـ٤ صـ١٣٢ .

(٤) سورة البقرة الآية ٣٠ .

جاء في محاسن التأويل أن المعنى، إني جاعل قوماً يخلف بعضهم بعضاً، قرنا بعد قرن، أو جاعل خليفة منكم، لأنهم كانوا سكان الأرض، فخلفهم فيها آدم وذريته، أو جاعل خليفة مني، لأن آدم كان خليفة الله في أرضه[١].

ويقول سبحانه ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾[٢] أي استخلفناك في الأرض، وجعلناك ملكاً لتعدل بين الناس في القضاء، وتحكم بشرع الله تعالى بذكاء وفطنة، وبهذا كان داود عليه السلام نبياً وخليفة .

معنى الخلافة في الاصطلاح :

وردت عدة تعريفات للخلافة تتقارب في معناها ودلالاتها ومنها :-

يعرفها الماوردي بأنها : **رئاسة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين والدنيا**[٣]

ويعرفها الآمدي بأنها : **رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص** [٤]

ويعرفها الآمدي كذلك بأنها : خلافة شخص من الأشخاص للرسول ﷺ في إقامة قوانين الشرع، وحفظ حوزة الملة، على وجه يجب اتباعه على الكافة[٥].

والتعريف الثالث هو أدق التعاريف لأنه يجعل الخلافة هي منصب الرئيس الأعلى للدولة الذي يمتد سلطانة على كافة الأمة بعد رسول الله ﷺ، كما أنه يجعل الخلافة في أي شخص يختاره الناس من بينهم ليقوم بتطبيق شرع الله فيهم .

أما التعريف الأول والثاني فإنهما يجعلان الولاة، والقضاة، والآمرين بالمعروف والداعين لله خلفاء، مع أنها ليست كذلك، والتعريف الثاني يدخل النبوة في الخلافة

---

(١) محاسن التأويل جـ٢ صـ٩٤ وما بعدها بتصرف .

(٢) سورة ص الآية ٢٦ .

(٣) الأحكام السلطانية صـ٣ ط المحمودية .

(٤) المواقف جـ٨ صـ٣٥٤ .

(٥) أبكار الأفكار جـ٢ صـ١٠٦٩ .

فكلاهما رئاسة عامة .

إن الخلافة رئاسة عليا بعد رسول الله، والخليفة هو الرئيس الأعلى للدولة الذي لا رئيس فوقه، وهو الذي يلتزم بإقامة الدين، وتدبير مصالح الناس، اقتداء برسول الله ﷺ .

وسميت رئاسة الخلفاء الأربعة بالخلافة الرشيدة، لالتزامهم بقيم الإسلام ومبادئه، وإخلاصهم، في أعمالهم لله ، ورسوله، وسلوكهم طريق الخير والصواب، وصدق البيعة لهم من الأمة كلها، وهذا هو الرشاد بعينه .

يقول الدكتور/ صلاح دبوس : تعريف الخلافة بأنها رئاسة عليا لا يمنع تعدد الخلفاء، وهذا يتفق مع ما انتهى إليه كثير من العلماء من أن هذا الأمر من الأمور الاجتهادية، لأن " العقد لإمامين في صقع متسع الأقطار بحيث لا يسع الواحد تدبيره — محل اجتهاده " مقبول [١].

ويتبين من تعريف الخلافة أن سلطة الخليفة تتناول أمور الدين، وسياسة الدنيا على أساس شرائع الإسلام وتعاليمه، لأن هذه التعاليم تستهدف تحقيق مصالح الناس في عالمي الدنيا والآخرة، أي أن العنصر العقدي، والإنساني ، والأخلاقي يسير جنباً إلى جنب مع العنصر المادي، وتتآزر العناصر لإقامة المجتمع الفاضل، المستقر، المرفه، المتمكن في الأرض، الذي يقيم العزة والسيادة الفعلية وتتعاضد فيه الهداية الإلهية مع الإرادة البشرية، والقوى العقلية.

يقول ابن خلدون: تقتضي الخلافة حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذا أحوال الدنيا كلها عند الشارع معتبرة بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين، وسياسة الدنيا.

وقد فرق ابن خلدون بين الملك اللاديني والخلافة الرشيدة، فقال: وجب أن يرجع في حقيقة الملك إلى قوانين سياسية مفروضة، يسلمها الكافة، وينقادون إلى أحكامها ... فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها، كانت سياسية

---

(١) الخليفة صـــ٢٩ .

عقلية، وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسية دينية وهي الخلافة ومعنى ذلك أن ابن خلدون يرى أن الملك يقوم على قوانين عقلية وضعية، والخلافة تعتمد على أحكام الدين وتعاليمه ... والذى نسلم به أن السلطة الرئاسية نوعان، **إحداهما تستمد مشروعيتها من العقل، وتأخذ قوانينها منه، والثانية ترجع في كل شئونها إلى الوحي بلا ارتباط بمسمى معين[١] فالمضمون يحكم على الاسم وليس العكس .**

يقول الدكتور محمد يوسف موسى : إن جميع الفقهاء الذين تصدوا لتعريف الخلافة قدموا أمور الدين، والعناية به، وحفظه على أمور الدنيا بمعنى، جعل الثانية تابعة للأولى، وبيان أن سياسة الدنيا يجب أن تكون بالدين وشرائعه، وتعاليمه[٢].

وبهذا تغاير الخلافة أساساً أي سلطة تسير على هدى القوانين الوضعية وتقتصر على تنظيم العلاقات الاجتماعية، على أساس الفكر الوضعي لأنها لا تلتفت لأمر الآخرة أصلاً ولا تربط بين الدنيا والآخرة .

ومن تعريف الخلافة، وتوضيح مفهومها يتضح أن الخلافة ليست نظاماً، لا هوئياً مقدساً، وأنها تعنى قيام الخليفة بالأمر لينفذ الأوامر والنواهي كما كان يفعل رسول الله ﷺ اقتداء به في السلطة والحكم والتنفيذ .... ويجوز عليه ما يجوز على سائر الناس، ولذا وجب نصحه، والالتفاف حوله، وإعانته بالحق .

---

(١) المقدمة صـ١٥٨، ١٥٩ .

(٢) نظام الحكم في الإسلام صـ٩ .

ـ المبحث الثاني
شروط صحة اختيار الخلفاء

حافظ الخلفاء الراشدين في بيعتهم على الشورى لأنهم بويعوا البيعة العامة بعد الخاصة والتزموا بالشروط التي لابد منها لصحة الاختيار وهي :

الشرط الأول:

أن يعلن الخليفة قبل بدء علمه التزامه بأحكام الكتاب والسنة، وتعهده بتطبيق جميع الأوامر والنواهي الواردة فيهما، وكان أبو بكر أول من سن ذلك في خطابه الشهير (**أطيعوني ما أطعت الله فيكم**) وتبعه عمر في أول خطبة له فقال (**فورب الكعبة لأحملن العرب على الطريق**) ولما وقف عبد الرحمن بن عوف على المنبر، ودعا عثمان للمبايعة قال له : (**أتبايعني على الكتاب والسنة، وسيرة الشيخين يعني أبا بكر وعمر ؟**) فبايعه على ذلك

وكان على ابن أبي طالب أوضح الخلفاء في هذا المعنى، يقول الطبري : (**لما خرجت الخوارج من الكوفة أتى علياً أصحابه وشيعته، فبايعوه وقالوا :**

- **نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت .**
- **فشرط لهم سنة رسول الله ﷺ .**
- **فجاءه ربيعة بن أبي شداد الخثعمي، فقال له على: فبايع على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ ؟**
- **فقال ربيعه: على سنة أبي بكر وعمر .**
- **فقال له على: ويلك! لو أن أبا بكر وعمر عملا بغير كتاب الله، وسنة رسوله لم يكونا على شيء من الحق)** (١).

وهذا الشرط يستند إلى صريح القرآن الكريم الذي يؤكد ضرورة الحكم بما أنزل الله تعالى ، حيث تكررت آية واحدة بصورة متتابعة، في سورة واحدة، و لم يتغير فيها إلا لفظ واحد .

---

(١) تاريخ الطبري جـ٥ صـ٧٦ .

يقوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[١].

ويقول تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٢].

ويقول تعالى ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٣] .

وهذا مما يدل على ضرورة الحكم بما أنزل الله والالتزام بشرعه، ولا يقال إن الآيات نزلت في بني إسرائيل لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومادام حكم الله قد وجد فمن الضروري الحكم به.

إن التزام الحاكم بتنفيذ أحكام الكتاب والسنة قاعدة دستورية إسلامية خالصة، تقيد بها الخلفاء الراشدون الأربعة، واستفادوا بكافة الأدلة الشرعية المقررة اعتماداً على الكتاب والسنة ولابد من هذا الالتزام مع أي حاكم مسلم .

وهذا الشرط يشبه ما يقوم به رؤساء اليوم وهو البدء بحلف اليمين أمام الهيئة المنتخبة.

الشرط الثاني :

أن تتوفر الحرية الكاملة للأمة في البيعة، وأن لا يكون فيها أي نوع من أنواع الضغط أو الإكراه، وأن لا يشوبها أي عامل من العوامل التي تفسدها، أو تبطلها، سواء أكان ذلك العامل نفسياً، أو خلقياً، أو إغراء بمنصب، أو موعدة بمال، أو ما ماثل ذلك من الأسباب التي تجعل البيعة باطلة من أساسها، وإذا بطلت البيعة لا يترتب عليها أي حكم .

إن توفر جو الحرية هو ضمانة التعبير عن الرأي الحقيقي، كما جري في بيعة الخلفاء الراشدين، ولذا صحت البيعة، والتزمت بها الأمة، وصار الجميع تحت إمرة الحاكم طاعة، ونصحاً، وأمانة.

وما دامت الأمة صالحة، ومستقيمة على منهج الشريعة فإنها ستبايع من الناس من يستحق أن يكون خليفة، أما إذا كانت الأمة في فساد وتمارج فإن أمرها يقوم على

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٥ .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٧ .

المحسوبية والعصبية والعنصرية وحينئذ لا تصح لها بيعة واختيار.

الشرط الثالث:

وجود المعارضة، ذلك بأنه إذا ما توفرت الحرية، كانت المعارضة من نتائجها الطبيعية لأنها تظهر الحق، وتبين السوالب، وتجعل الناس في بصيرة من أمورهم، وإذا فقدت المعارضة كان الحكم مطلقاً لا أثر للشورى فيه، ولا تصح الشورى معه، ولهذا رأينا معارضة قامت ضد خلافة أبي بكر، ورأينا معارضة قامت أيضاً في وجه خلافة عمر، ولكن أبا بكر تغلب عليها بالإقناع، وقامت شبه معارضة في بيعة عثمان، كان على صاحبها، غير أن التقى العميق الذي تحلى به الصحابة المعارضون، لم يجعل من معارضتهم شيئاً يذكر إذ سرعان ما عادوا إلى الحق وبايعوا الخليفة لأنه أحق بها، وأما المعارضة التي قامت ضد خلافة على بن أبي طالب في دمشق بقيادة معاوية بن أبي سفيان فلها ظروف أخرى تدخلت فيها عوامل الأثرة وروح القبيلة ولا يقاس عليها [١].

الشرط الرابع :

أن تتم البيعة من عامة المسلمين، وأي عمل يسبق البيعة العامة فلا يعدو أن يكون مجرد ترشيح لا أثر له إذا لم تنضم إليه البيعة العامة التي هي أساس بيعة الخلفاء .

فبيعة أبي بكر ﷺ في سقيفة بني ساعدة تعد ترشيحاً ولذا سميت بالبيعة الخاصة، وترشيح أبي بكر لعمر ﷺ ترشيح وليس بيعة .

إن البيعة الصحيحة، التي يتوفر فيها جو الحرية، لابد أن يحضرها الجميع وترافقها المعارضة إن وجدت، وعلى هذا فإن الأكثرية هي التي تقرر شخص الحاكم الذي تنتخبه، وللأقلية أن تعارض، أو أن تسكت، وقد وقع هذا في بيعة أبي بكر واعتبرت بيعته صحيحة، ومارس سلطات الخلافة بالاستناد إليها.

وقد أخذت البيعة العامة للخلفاء الأربعة من مختلف الأقاليم بعدما كلف الأمراء بمباشرة هذه المهمة، والإشراف على البيعة العامة التي هي من أهم أعمالهم .

والفقهاء يستعملون لفظ (الجمهور) ويعنون به الأكثرية، وهذا المعني وارد في كتب

---

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي صـ٢٧٤ – ٢٧٦ بتصرف .

اللغة، ففي لسان العرب (**جمهور الناس أي جلهم**) فإذا مر بك مثلاً (وجمهور الفقهاء على هذا الرأي) فإن المراد أكثريتهم، وعلى هذا فإن المسلمين قد فطنوا إلى نظام الأكثرية والأقلية منذ الصدر الأول، وأخذوا به في أم المسائل التي قم المجتمع ومنها الخلافة، واعتبروا أن ما ذهبت إليه الأكثرية ملزم للأقلية .

إن أهل الاجتهاد، وأهل الحل والعقد، يقومون بترشيح من يرونه خليفة، ويبايعونه بيعة خاصة، ويعد ذلك تجمع الأمة كلها في مكان ما لمبايعة الإمام المرشح بيعة عامة، وعدد أهل الحل والعقد ليس محدداً، فقد كانوا في سقيفة بني ساعدة خمسة، وجعلهم عمر ستة لمن بعده، وجعلهم بعض الفقهاء ثلاثة ليكونوا حاكماً وشاهدين، وبعضهم يجعله واحداً لأن العباس قال لعلي: أمدد يدك أبايعك، وتقدير العدد اجتهاد محض بلا دليل نصى، ولذلك كانت البيعة العامة هي أساس الاختيار، وعمدته .

- المبحث الثالث -
بيعة الخلفاء الراشدين

في وقت بيعة الخلفاء الراشدين كانت الدنيا ظلاماً، حيث كان الأكاسرة والقياصرة يحكمون الناس باسم الحق الإلهي المقدس، فقيصر الروم هو ظل الله في الأرض، وقداسته إلهية، وليس على الناس إلا الخضوع، والطاعة، وكان الأكاسرة في فارس آلهة يعبدهم الناس وليس للآدمين من الأمر شيء .

في وسط هذا الواقع انتشر الظلم في العالم كله، وتحول البشر إلى قطعان مملوكة للآلهة، وممثليهم، وتعودت الجماهير هذه الحياة فعاشوها مرغمين .

وما يقال عن ديموقراطية عند الرومان أو الفرس فهي مسميات استخدمت لفرض الاستبداد وتشريع الظلم يقول الأستاذ عباس العقاد : إن الديمقراطية التي كانت في اليونان القديمة كانت من قبل الإجراءات أو التدبيرات السياسية التي تتقى بها الفتنة ويستفاد بها من جهود العامة في أوقات الحرب على الخصوص، و لم تكن هذه الديمقراطية مذهباً قائماً على الحقوق الإنسانية أو منظوراً فيه إلى حالة غير حالة الحكومة الوطنية، فهى على الجملة إجراء مفيد وتدبير لا محيد عنه، لاستقرار الأمن في الدولة.

وكانت خلاصة فلسفة أفلاطون الحكومية أن الرعية بمثابة القاصرين الذين لا يزالون بحاجة إلى الأوصياء، ويجوز في حكمهم أن يخدعوا كما يخدع الأطفال بالحكايات والأساطير.

وتكلم أرسطو عن المساواة في الحرية بين المواطنين كأنها ضمان لصلاح الحكم لا شأن له بالحقوق الإنسانية التي يستحقها كل إنسان في كل أمة[١].

وأي حديث عن الشورى والبيعة في عالم ذاك الزمان لا معنى له، ولا مفهوم له، لأنه ضرب من الفوضى، والعبث وكلام لا وجود له.

أما الدولة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ فقد التزمت بما آمنت به، وصدقت بكلمات ربها، يقول الله ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[٢] ويقول سبحانه وتعالى ﴿ وَأَمۡرُهُمۡ

---

(١) الديموقراطية في الإسلام صـ١٤ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٩ .

﴿ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1] فحكم الرسول والخلفاء من بعده الناس بحكم الله تعالى، وجعل الأمر شورى بين الناس، وصار للرعية حقوق وواجبات تحدد مناط المسئولية والجزاء .

ولذلك ظهرت البيعة بالمفهوم السياسي، لأول مرة في حياة الناس، وكانت بيعة أبي بكر ﷺ هي أول بيعة سياسية بعد رسول الله ﷺ وبعدها كانت بيعة بقية الخلفاء الراشدين وهم :-

١) أبو بكر الصديق ﷺ .

٢) عمر بن الخطاب الفاروق ﷺ .

٣) عثمان بن عفان ﷺ .

٤) على بن أبي طالب ﷺ .

و لم تأخذ البيعة مع الخلفاء الأربعة شكلاً واحداً، وإنما تعددت صورها بتعدد ظروف كل منها، إلا أنها جميعاً التزمت بالشروط الشرعية التي جعلت البيعة بيعة صحيحة، انعقدت بها الخلافة، وتم نصب الإمام، فلقد تمت بيعة أبي بكر الصديق بالبيعة الخاصة في سقيفة بني ساعدة، وتمت بيعة عمر بن الخطاب بترشيح أبي بكر له بعدما استشار كبار الصحابة، وتمت بيعة عثمان بتعيين عمر لأهل الشورى، ووضع نظاماً شورياً لانتخاب واحد من أهل الشورى الستة، وتمت بيعة على من جمهور المسلمين الموجودين في المدينة، أما الموجودون في غير المدينة فلم يبايعوا، وبخاصة أبناء الشام وأتباع معاوية وبعد البيعة الخاصة لكل خليفة كانت البيعة العامة التي اشترك كل أفراد المجتمع على مسمع من الجميع، وبذلك تتم الشورى .

إن بيعة الخلفاء الأربعة تمت وفق التصور الصحيح للشورى، ولذلك جعلها العلماء أساس الحكم والعمل بالشورى بعد ذلك، والعلماء يرجعون إلى ما حدث في بيعة الخلفاء الأربعة ويجعلون أساساً للمشروعية التي ينادون بها لأنها طرق صحيحة حافظت على القيم المطلوبة للبيعة الصحيحة .

---

(١) سورة الشورى الآية ٣٨ .

وذلك يتضح من معرفة الطرق الأربعة لاختيار الخلفاء الراشدين التي سأتحدث عنها بما يلي :-

-١-
بيعة أبي بكر ﷺ

أصيب المسلمون بالذهول يوم وفاة رسول الله ﷺ إلا أنهم لم يغفلوا أهمية استمرار السلطة الحاكمة، فاتجهوا بعد الوفاة مباشرة لاختيار الحاكم الذي سيخلف رسول الله ﷺ

وكان أول من سارع إلى ذلك زعماء الأوس والخزرج الذين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة الأنصارى ليبايعوا زعيم الخزرج " سعد بن عبادة " معتمدين على أنهم سكان المدينة الأصليين، وهم الذين أووا المهاجرين، ونصروا الإسلام، وآثروا إخوانهم على أنفسهم، وهم المفلحون بشهادة الله لهم، يقول الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[1].

وعلم أبو بكر باجتماع الأنصار فلقي بعض المهاجرين لمدارسة الأمر، فقال بعضهم انطلقوا بنا إلى إخواننا الأنصار، فإن لهم في هذا الحق نصيباً.

قال عمر بن الخطاب ﷺ : فانطلقا نريدهم **(أنا وأبو بكر، وأبو عبيدة بن الجراح).**

فلما دنونا منهم، لقينا منهم رجلان صالحان، فذكرا ما تمالأ عليه القوم .

وقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟

قلنا: نريد إخواننا من الأنصار .

فقال: لا عليكم أن لا تقربوهم، أقضوا أمركم .

فقلت: والله لنأتينه، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة .

وحدث حوار طويل يدل على ما عند القوم من وعى بسياسة الأمور .

---

(١) سورة الحشر الآية ٩ .

قال: أحد الأنصار : أما بعد ... فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتـــم معشر المهاجرين رهط وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر)[١].

أما المهاجرون فتكلم عنهم أبو بكر الصديق بحلم ووضوح فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولم يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً[٢]... يا معشر الأنصار إنا والله ما ننكر فضلكم، ولا بلاءكم في الإسلام، ولا حقكم الواجب علينا، ولكنكم عرفتم أن هذا الحي من قريش بمنزلة من العرب ليس من غيرهم، وأن العرب لن تجتمع إلا على رجل منهم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، فاتقوا الله ولا تصدعوا الإسلام، ولا تكونوا أول من أحدث في الإسلام .

فتراجع الأنصار وعلموا أن الخلافة حق المهاجرين .

فرشح أبو بكر أحد اثنين، عمر وأبا عبيدة.

فقال عمر: بل نبايعك أنت فأنت سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ وذكر الحاضرين بفضل أبي بكر قائلاً: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يصلى بالناس، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ وذكرهم بموقفه في حادثة الهجرة.

قالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر .

ثم بايعه عمر .

وبايعه المهاجرون .

ثم بايعته الأنصار .

وقد عرفت بيعة أبي بكر في السقيفة بالبيعة الخاصة، وكانت يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة هجرية .

وفى اليوم التالي (الثلاثاء) خرج أبو بكر إلى المسجد فبايعه الناس فيما عرف بالبيعة، العامة بعد خطبة ألقاها عمر بن الخطاب، بين مكانة أبي بكر في الصحبة والهجرة، وأبو بكر

---

(١) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي صـــ٥٦ والدافة أي العدد القليل، يختزلونا: أي يبعدونا وينفردوا بالأمر، يحضنونا : أي يخرجونا .

(٢) المرجع السابق صـــ ٥٧ .

صامت لا يتكلم، حتى انتهى عمر من خطبته وطلب من أبي بكر الصعود إلى المنبر لتلقي البيعة من الناس في المدينة، وبعدها كانت بيعة الأقاليم .

وبعد البيعة العامة هذه خطب أبو بكر في الناس قائلاً: **إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرد عليه حقه، إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله**[1].

ومن طريق بيعة أبي بكر الصديق ﷺ تتجلي الحقائق التالية:-

١) اتفاق المهاجرين والأنصار على بيعة أبي بكر ﷺ .

٢) بايع الصحابة أبا بكر بيعتين، بيعة خاصة في السقيفة، وبيعة عامة في اليوم التالي بالمسجد النبوي.

٣) لم يستمر الخلاف وقتاً بعدما اقتنع الأنصار في السقيفة بالحق .

٤) لم يتأخر أحد من المهاجرين عن بيعة أبي بكر، وما قيل من أن علياً تأخر في بيعته ستة أشهر يرده ما جاء في البداية والنهاية أنه بايع في اليوم الذي جرت فيه البيعة العامة، وقد بيّن على سبب غضبة فقال (**ما غضبنا إلا لأنا أ خرنا عن المشاورة، وإنا نري أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله ﷺ إنه صاحب الغار، وثاني اثنين وإنا لنعلم شرفه وكبره، ولقد أمره النبي ﷺ بالصلاة بالناس وهو حي**)[2] .

وهكذا تولى أبو بكر ﷺ الخلافة بعد رسول الله ﷺ واستمر خليفة في الناس حتى **توفاه الله تعالى ليلة الثلاثاء، لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشرة، واستمرت خلافته ﷺ سنتين، وثلاثة أشهر وعشر ليال .**

---

(١) عصر الخلافة الراشدة ص ٥٠ – ٥٣ بتصرف .

(٢) البداية والنهاية جـ٦ صـ٣٤١ .

-٢-

بيعة عمر بن الخطاب ﷺ

عاش عمر بن الخطاب ﷺ مع أبي بكر الخليفة عامين تولى خلالهما أمر القضاء في المدينة فخبره أبو بكر ﷺ، وعلم عنه أكثر مما كان يعرفه ورسول الله بين الناس .

ولما اشتد المرض بأبي بكر ﷺ دعا عبد الرحمن بن عوف ﷺ، فقال له : **أخبرني عن عمر بن الخطاب .**

فقال: ما سألتني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني .

فقال أبو بكر : وإن .

فقال عبد الرحمن بن عوف: رأيي والله أفضل من رأيك فيه .

ثم دعا عثمان بن عفان، فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب .

فقال عثمان: أنت أخبرنا عنه .

فقال أبو بكر: على ذلك يا أبا عبد الله .

فقال عثمان: اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله .

فقال أبو بكر: يرحمك الله والله لو تركته ما عدوتك .

وشاور بعده سعيد بن زيد، وأسيد بن الحضير، وغيرهما من المهاجرين والأنصار، وسمع بعض أصحاب النبي ﷺ بما يريده أبو بكر بترشيح عمر فدخلوا على أبي بكر فقال له قائل منهم: **ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته.**

فقال أبو بكر: **أجلسوني، أبالله تخوفوني! خاب من تزود من أمركم بظلم، أقول لله استخلفت عليهم خير أهلك، أبلغ عني ما قلت من ورائك، ثم اضطجع.**

ودعا عثمان بن عفان، فقال اكتب :-

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلف عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم إلا خيراً، فإن عدل فذلك ظني

به، وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امــرئ ما اكتســب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[1] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ثم أمر بالكتاب فختمه وخرج به عثمان بن عفان مختوماً من عند أبي بكر [2].

ثم بعث أبو بكر إلى عمر فدعاه وقال له: **يا عمر، أبغضك مبغض وأحبك محب وقد يكون فيما يبغض الخير، وفيما يحب البشر .**

قال:: فلا حاجة لي فيها .

قال: لكن لها بك حاجة، قد رأيت رسول الله ﷺ وصحبته، ورأيت أثرته أنفسنا على نفسه، حتى إنا كنا لنهدي لأهله فضل ما يأتينا منه، ورأيتني وصحبتي، وإنما اتبعت أثر من كان قبلي، والله ما نمت فحملته، ولا شبهت فتوهمت، وإني على طريقي ما زغت اعلم يا عمر، إن لله حقاً في الليل لا يقبله في النهار، وحقاً في النهار لا يقبله في الليل

وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق، وحق لميزان لا يكون فيه إلا الباطل أن يخف .

إن أول من أحذرك نفسك وأحذرك الناس، فإنهم قد طمحت أبصارهم، وانتفخت أجوافهم، وإن لهم لحيرة عن ذلة تكون، وإياك أن تكون، وإنهم لن يزالوا خائفين لك، فرقين منك ما خفت من الله وفرقته، وهذه وصيتي وأقرأ عليك السلام[3].

ولما كتب أبو بكر رضي الله عنه بترشيح عمر للخلافة بعده، وقدم النصح له ... ثقل المرض عليه وأحس بقرب الموت أراد أن ينصح الناس ويبرر لهم الحكمة فيما قام به فجمعهم وخطب فيهم خطبة جامعة .

يقول عاصم بن عدى (جمع أبو بكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله إلى المنبر، فكانت آخر خطبة خطبها، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها، فإنها غدارة، وآثروا الحياة على الدنيا وأحبوها، فبحب كل واحدة

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢٢٧ .

(٢) مناقب أمير المؤمنين صــ ٦٠ ، ٦١ .

(٣) المرجع السابق صــ ٦٤ ، ٦٥ .

منهما تبغض الأخرى، وإن هذا الأمر الذي هو أملك بنا، لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله، ولا يتحمله إلا أفضلكم مقدرة، وأملككم لنفسه، وأشدكم في حال الشدة، وأسلسكم في حال اللين، وأعملكم برأي ذوي الرأي، لا يتشاغل بما لا يعنيه، ولا يحزن لما ينزل به، ولا يستحي من التعلم، ولا يتحير عند البديهة، قوى على الأمور، لا يجوز لشيء منها حدة بعدوان ولا تقصير، يرصد لما هو آت عتاده من الحذر والطاعة، وهو عمر بن الخطاب ثم نزل) [١].

وبذلك تكون خلافة عمر تمت بترشيح أبي بكر وموافقة أهل الحل والعقد وهذه هي البيعة الخاصة، وبعد ذلك كانت البيعة العامة في المسجد حيث بايعه أهل المدينة، وبعد ذلك بايعه أهل البلدان الأخرى.

وطعن عمر بن الخطاب ﷺ يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين، فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر، وإحدى وعشرين ليلة.

---

(١) مناقب أمير المؤمنين صـ ٥٩ .

-٣-

بيعة عثمان ﷺ

يفصل الطبري في تاريخه خطوات البيعة لعثمان، ابتداء من تفكير عمر بن الخطاب بعد طعنه، وأنا أنقل هنا رواية الطبري لوضوحها، وتفصيلها لسائر خطوات بيعة عثمان ﷺ ليتضح ما كان حتى تمت البيعة .

يقول الطبري (إن عمر بن الخطاب، لما طعن، قيل له: يا أمير المؤمنين ! لو استخلفت

قال: من أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً استخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: **إنه أمين هذه الأمة**، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته، فإن سألني ربي قلت، سمعت نبيك يقول: إن سالماً شديد الحب لله .

فقال له رجل: أدلك عليه؟ إنه عبد الله بن عمر .

فقال عمر: قاتلك الله ! والله ما أردت الله بهذا، ويحك! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته؟ لا إرب لنا في أموركم، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً يصرف عنا آل عمر، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمر أمة محمد، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر، إني لسعيد، وأنظر فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، ولن يضيع الله دينه، فخرجوا .

ثم راحوا فقالوا: يا أمير المؤمنين! لو عهدت عهداً .

فقال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم، أن أنظر فأولي رجلاً أمركم، هو أحراكم أن يحملكم على الحق — وأشار إلى عليّ — ورهقتني غشية، فرأيت رجلاً دخل جنة قد غرسها، فجعل يقطف كل غضة ويانعة، فيضمها إليه، ويصير تحته، فعلمت أن الله غالب أمره، ومتوف عمر، فما أريد أن أتحملها حياً وميتاً، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ **إنهم من أهل الجنة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم، ولست مدخله، ولكن أدخل الستة: عليّ وعثمان ابنا عبد مناف، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ والزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته، وطلحة الخير بن**

عبيد الله، فليختاروا منهم رجلاً، فإذا ولوا واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه، إن ائتمن أحداً منكم، فليؤد إليه أمانته، وخرجوا .

فقال العباس لعلي: لا تدخل معهم .

قال علي: أكره الخلاف .

قال العباس: إذن ترى ما تكره .

فلما أصبح عمر دعا علياً وعثمان وسعداً وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام فقال: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض، إنني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم، فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها، فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم .

ثم قال: لا تدخلوا حجرة عائشة، ولكن كونوا قريباً، ووضع رأسه، وقد نزفه الدم فدخلوا، فتناجوا، ثم ارتفعت أصواتهم .

فقال عبد الله بن عمر: سبحان الله إن أمير المؤمنين لم يمت بعد، فأسمعته فانتبه .

قال عمر : ألا أعرضوا عن هذا أجمعون، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصل بالناس صهيب، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً، ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر: فإن قدم في الأيام الثلاثة، فأحضروه أمركم، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم، ومن لي يرضى بطلحة ؟

فقال سعد بن أبي وقاص: أنا لك به، ولا يخالف إن شاء الله.

فقال عمر: أرجو ألا يخالف إن شاء الله، وما أظن أن يلي إلا أحد هذين الرجلين: علي أو عثمان، فإن ولي عثمان، فرجل فيه لين، وإن ولي علي ففيه دعابة، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق، وإن تولوا سعداً فأهلها هو وإلا فليستعن به الوالي، فإني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف، ونعم ذوي الرأي عبد الرحمن بن عوف، مسدد رشيد، له من الله حافظ، فاسمعوا منه.

وقال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة! إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم .

وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم .

وقال لصهيب: صل بالناس ثلاثة أيام، وأدخل علياً، وعثمان، والزبير، وسعداً، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة إن قدم، وأحضر عبد الله بن عمر، ولا شيء له من الأمر.

وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً، وأبى واحد، فاشرخ رأسه، أو اضرب رأسه بالسيف.

وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان، فاضرب رؤوسهما.

فإن رضى ثلاثة رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم، فحكموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم لهن فليختاروا رجلاً منهم.

فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين، إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.

فلما مات عمر وأخرجت جنازته، تصدى عليّ وعثمان: أيهما يصلي عليه.!!

فقال عبد الرحمن: كلا كما يحب الإمرة، لستما من هذا في شيء، هذا إلى صهيب، استخلفه عمر يصلى بالناس ثلاثاً، حتى يجتمع الناس على إمام.

فصلى عليه صهيب، فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور ابن مخرمة، ويقال في بيت المال، ويقال في حجرة عائشة بإذنها، وهم خمسة معهم ابن عمر، وطلحة غائب، وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم .

وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب، فحصبهما سعد وأقامهما بعيداً، وقال: تريدان أن تقولاً، حضرنا وكنا في أهل الشورى!

فتنافس القوم في الأمر، وكثر بينهم الكلام .

فقال أبو طلحة: أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها! لا والذي ذهب بنفس عمر، لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم، ثم أجلس في بيتي فأنظر ما تصنعون

فقال عبد الرحمن: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟

فلم يجيبه أحد .

فقال عبد الرحمن : أنا أنخلع منها.

فقال عثمان: أنا أول من رضى، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول (**أمين في الأرض أمين في السماء**).

فقال القوم : قد رضينا — وعلى ساكت .

فقال عبد الرحمن: ما تقول يا أبا الحسن ؟

قال على : أعطنى موثقاً لتؤثرن الحق، ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، وتألوا الأمة فقال عبد الرحمن: أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم، على ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه، ولا آلوا المسلمين، فأخذ منهم ميثاقاً، وأعطاهم مثله.

فقال لعليّ: لإنك تقول: إني أحق من حضر بالأمر، لقرابتك، وسابقتك، وحسن أثرك في الدين، و لم تبعد، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟

قال على: عثمان .

فقال ثم دخل إلى عثمان وقال له: تقول شيخ من بنى عبد مناف، وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه، لى سابقة وفضل، لم تبعد، فلن يصرف هذا الأمر عني ولكن لو لم تحضر، فأي هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟

قال: على .

ثم خلا بالزبير، فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان، فقال: عثمان.

ثم خلا بسعد، فكلمة، فقال: عثمان .

فلقي على سعداً فقال ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[1] أسألك برحم ابنى هذا من رسول الله ﷺ وبرحـــم عمي حمزة منك ألا

(١) سورة النساء الآية ١ .

تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً على، فإني أدلى بما لا يدلى به عثمان.

ودار عبد الرحمن لياليه، يلقي أصحاب رسول الله ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد، وأشراف الناس، يشاورهم، ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان، حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل، أتى منزل المسور بن مخرمة، فقال: ألا أراك نائماً، و لم أذق في هذه الليلة كثير غمض؟ انطلق فادع الزبير وسعداً .

جاء عبد الرحمن للزبير وسعد، فدعاهما، فبدأ بالزبير، فقال له خل ابنى عبد مناف (عثمان وعلى) وهذا الأمر .

قال: الزبير نصيبي لعلى .

وقال عبد الرحمن لسعد: أنا وأنت كلالة، فاجعل نصيبك لي فأختار .

قال سعد: إن اخترت نفسك فنعم، وإن اخترت عثمان، فعلى أحب إليّ أيها الرجل! بايع لنفسك، وأرحنا، وارفع رؤوسنا .

قال عبد الرحمن : يا أبا إسحاق! إني قد خلعت نفسي منها، على أن أختار، ولو لم أفعل، وجعل الخيار إلى، لم أردها ... ولا يقوم مقام أبي بكر وعمر بعدهما أحد فيرضى الناس عنه !

قال سعد : فإني أخاف أن يكون الضعف قد أدركك، فامض لرأيك، فقد عرفت عهد عمر .

وانصرف الزبير وسعد .

وأرسل المسور بن مخرمة إلى على، فناجاه عبد الرحمن طويلاً، وهو لا يشك أنه صاحب الأمر، ثم نهض.

وأرسل المسور إلى عثمان، فكان في نجيتهما، حتى فرق بينهما أذان الصبح .

فلما صلوا الصبح، جمع الرهط، وبعث إلى من حضره من المهاجرين، وأهل السابقة، والفضل من الأنصار، وإلى أمراء الأجناد، فاجتمعوا حتى التج المسجد بأهله، فقال عبد الرحمن : أيها الناس! إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم ؟!

فقال سعيد بن زيد : إنا نراك لها أهلاً .

فقال عبد الرحمن : أشيروا علي بغير هذا .

فقال عمار: إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع علياً .

فقال المقداد بن الأسود: صدق عمار، إن بايعت علياً، قلنا: سمعنا وأطعنا.

قال ابن أبي سرح: إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان .

فقال عبد الله بن أبي ربيعة : صدق، إن بايعت عثمان، قلنا: سمعنا وأطعنا.

فشتم عمار ابن أبي سرح وقال: متى كنت تنصح للمسلمين ؟

فتكلم بنو هاشم، وبنو أمية، فقال عمار: أيها الناس! إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه، وأعزنا بدينه، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟

* فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يا ابن سمية، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ؟

فقال سعد ابن أبي وقاص: يا عبد الرحمن! افرغ قبل أن يفتتن الناس .

فقال عبد الرحمن : إني قد نظرت وشاورت، فلا تجعلن، أيها الرهط، على أنفسكم سبيلاً، ودعا علياً، فقال: عليك عهد الله وميثاقه، لتعملن بكتاب الله، وسنة وسوله، وسيرة الخليفتين من بعده؟

قال على : أرجو أن أفعل، وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي .

ودعا عثمان، فقال له مثل ما قال لعلى، قال: عثمان: نعم، فبايعه)[1].

وهكذا تمت البيعة لعثمان بأخذ رأي الناس أينما كانوا، ولما بايعه أهل الشورى البيعة الخاصة وبعدها اجتمع المسلمون في المسجد وبايعوه البيعة العامة، وقد قتل عثمان ﷺ لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة، واستمرت خلافته [illegible]د عشر عاماً، وأحد عشر شهراً، وخمسة عشر يوماً ﷺ .

---

(١) تاريخ الطبري جـ٤ صـ٢٧٢ — ٤٣٥ .

-٤-

بيعة علي ﷺ

بعد مقتل عثمان ﷺ بقيت المدينة خمسة أيام بلا خليفة، وكان الأمير فيها قائد الثوار الغافقي بن حرب، يقول الطبري في تاريخه: (بقيت المدينة بعد مقتل عثمان ﷺ خمسة أيام، وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر، فلا يجدونه.

يأتي المصريون علياً فيختبئ منهم، ويلوذ بحيطان المدينة، فإذا لقوه باعدهم، وتبرأ منهم، ومن مقالتهم مرة بعد مرة.

ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه، فأرسلوا إليه حيث هو رسلاً فباعدهم، وتبرأ من مقالتهم .

ويطلب البصريون طلحة، فإذا لقيهم باعدهم، وتبرأ من مقالتهم، مرة بعد مرة.

وكان الثوار مجتمعين على قتل عثمان، مختلفين فيمن يهوون حيث يرى أهل كل إقليم صحابياً، فلما لم يجدوا ممالئاً ولا مجيباً، جمعهم الشر على أول من أجابهم، وقالوا: لا نولي أحداً من هؤلاء الثلاثة فبعثوا إلى سعد بن أبي وقاص وقالوا : إنك من أهل الشورى، ورأينا فيك مجتمع، فأقدم نبايعك .

وهذا النص يفيد بوضوح أن الصحابة الذين أراد الثوار استخلافهم رفضوا التولية بعيداً عن الشرعية، وتمسكوا بالمبادئ التي شرعها الإسلام لتولية الخلافة .

طالت المدة بالثوار، فخافوا من توسع الفتنة، وتغير الأحوال، وخاف كبار الصحابة من انتشار الفوضى والاضطراب في المدينة فذهبوا إلى علي بن أبي طالب ورجوه أن يتولى الأمر، يروي الطبري في التاريخ بسنده عن محمد ﷺ بن الحنفية فيقول: كنت مع أبي حين قتل عثمان ﷺ فقام فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول الله ﷺ .

فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل، ولابد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة، ولا أقرب من رسول الله ﷺ .

فقال: لا تفعلوا، فإني أكون وزيراً، خير من أن أكون أميراً.

فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين، حتى نبايعك .

قال على: بايعوني في المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفياً، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين.

فقال عبد الله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتي المسجد، مخافة أن يشغب عليه، وأبى هو إلا المسجد، فلما دخل، دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايعه الناس[1].

وهكذا تمت بيعة على ﷺ .

إن واقع المسلمين بعد مقتل عثمان أدى إلى تخلف جماعة عن مبايعة على حينما رأوه يؤجل القصاص لعثمان لقوة الثوار وصعوبة معاقبتهم، فلما رأى على تأجيل معاقبتهم رفض الأمويون بيعة على ﷺ وأخذوا ينددون بموقفه، ولذلك تمت بيعة على فمن وجد في المدينة وقتها وامتنع الأمويون وأشياعهم عن مبايعة على بحجة تأجيله القصاص من قتلة عثمان وأخذ معاوية يباشر سلطة الخليفة من دمشق ... واستمر معارضاً لعلي حتى استفحلت الفتنة بينهما، وقد قتل على ﷺ لخمس عشر يوماً خلون من رمضان سنة أربعين للهجرة، واستمرت مدة خلافته أربع سنوات وثماني أشهر وعشرة أيام ﷺ .

وكان من رأى على أن يقتص لعثمان لأن ذلك حق واجب، لكنه يرى ضرورة الاستعداد، والتمكن أولاً حتى تتحقق له القدرة على مؤاخذة القتلة .

وبملاحظة بيعة الخلفاء الأربعة أرى ما يلي :-

١) تمت بيعة أبي بكر الخاصة وفق الشورى في جميع مراحلها، بينما تمت بيعة عمر بن الخطاب بالعهد من أبي بكر، وتمت بيعة عثمان باختيار أهل الشورى وأما بيعة على ابن أبي طالب فقد تمت برأي الجمهور، ومع الأربعة كانت البيعة العامة في المسجد .

٢) كانت هناك معارضة في بيعة الخلفاء الأربعة إلا أنها كانت تنتهي بنزول الأقلية على رأي الأغلبية.

---

(١) المرجع السابق جـ٤ صـ٤٢٩ .

- المبحث الرابع -
الفرق بين الخلافة والبابوية

ادعى بعض المستشرقين أن الخلافة تشبه البابوية لقيامهما - كما يزعم - على الحق المقدس لكل منهما، ولأن كل منهما يقوم مقام الرسول ﷺ ولأن كل منهما يحكم في الناس وفق تفسيره للنصوص المقدسة .

والحقيقة أن الخلافة تختلف اختلافاً كلياً عن البابوية لعدة أمور :-

أ- البابا ينتخبه الكرادلة (أرفع الرتب في الكنيسة بعد البابا) بينما الخليفة ينتخبه عامة الناس وخاصتهم وفق شروط معينة .

ب- البابا شخص مقدس، وهو ظل الله في الأرض، بينما الخليفة مسلم عادي ينتخبه الناس لصفائه ومزاياه وعلمه وفقهه وهو يعمل فيهم بشرع الله تعالى .

ج- يشترط في البابا أن يعيش حياة الرهبنة، ويبتعد عن الحياة المادية في أديرة خاصة للرهبان، بينما الخليفة شخص يعيش مع الناس واحداً منهم إلا أنه يتميز بصفات يمكن أن تحقق لآلاف الناس بعيداً عن الرهبنة لأن الإسلام لا رهبانية فيه .

د- البابا يملك الغفران والحرمان فيوزع صكوك المغفرة، ودخول الجنة لمن يرضى، ويلصق بمن لا يرضى عنه تهمة الهرطقة التي تؤدى به إلى العذاب والألام، والخليفة لا يملك شيئاً من هذا لأنه عبد مسئول مكلف .

هـ- البابا يختص بتفسير الكتاب المقدس، وإظهار الأحكام بناء على وحي الله له لأنهم يرون أنه يتصل وحده بالله ولذلك لا يرد له قول، وليس للخليفة شيء من هذا، لأن فهم القرآن الكريم، والسنة النبوية أمر عام للعلماء، والمجتهدين وأصحاب الفهم من سائر الناس [١] والخليفة واحد منهم يجتهد معهم في الوصول للحكم الصحيح بقدر طاقتهم البشرية .

و- الخليفة حاكم لا حاكم فوقه من الناس يخضع لحكم الله، ومسئول عن تنفيذ الشرع، ومبادئ الإسلام، يجوز عزله، ومحاكمته، وتقبل استقالته، وعلى الأمة أن تراقبه

---

(١) روح الدين الإسلامي - للأستاذ/ عفيف طبارة صـ٣١٤ بتصرف .

وتحاسبه، والبابا ليس كذلك، فهو ظل الله في الأرض يوحي إليه والبركات تتنزل عليه، لا يجوز عزله، ولا مراقبته، وهو الوحيد الذي يلهمه الله تعالى، وبدوره يوزع الخير والبركات لأتباع الكنيسة .

ز- يقرر المسيحيون أنفسهم أن المسيحية ليس فيها قوانين اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية وسائر النظم متروكة لعقول الناس .. ويرون ذلك هي الحرية وعلى ذلك فلا صلة للبابا بهذه الأمور وهو غير مسئول عنها وهي من شئون الدنيا ... بينما يذهب الإسلام إلى مسئولية الخليفة عن كل هذه الأمور لأنه مسئول عن شئون الدنيا والدين .

ح- الخليفة مسلم مسئول أمام الله تعالى يحاسبه كما يحاسب سائر الناس ولا عصمة له بينما البابا هو ممثل الغفران، وهو الذي يخلص الناس من الآثام، ويدخلهم الجنة ببركات السيد المسيح وهو في نظر أتباعه معصوم .

فلا شبه بين الخليفة والبابا ... ولا بين الخلافة والبابوية ..

ط- استقرت الأمور بعد صراع عنيف بين الملوك والقساوسة إلى عزل الكنيسة عن شئون الدنيا واكتفائها بمجموعة من الطقوس الدينية بينما الخليفة هو رئيس عام يتولى شئون الدين والدنيا معاً .

ـ المبحث الخامس ـ
تطور الخلافة بعد عصر الراشدين

بمقتل عثمان ﷺ بدت الخلافات تعصف بالمجتمع الإسلامي، ووقعت بين المسلمين معارك عنيفة، راح ضحيتها عدد كبير من المؤمنين كان كاف لفتح أوربا كلها .

كان من رأي معاوية وأتباعه بالشام أن يبدأ على ﷺ بالقصاص من قتله عثمان ﷺ وهذا أمر يتمناه على ﷺ لكنه لا قبل له به، لأن قتلة عثمان في قوة ومنعة يعجز على ﷺ عن محاكمتهم، وإجراء حكم الله فيهم، ولذلك رأى تأخير القصاص حتى يتمكن منه .

واستمر الخلاف بين على ومعاوية، في هذه الجزئية الفرعية، وطال الجدل حولها، وتدخل دعاة الفتنة، وأنصار الشيطان حتى أخذ الخلاف شكلاً سياسياً واسعاً امتد إلى قتال مسلح .

عزل على ﷺ بسلطة الخلافة معاوية ﷺ عن إمارة ولاية دمشق، و لم يمتثل معاوية، فبدأ الخلاف واستمر بينهما حتى قتل على ﷺ وبايع أشياعه ولده الحسن فتنازل الحسن عن حقه في الخلافة، وتمت البيعة لمعاوية عام أربعين من الهجرة وقد عرف هذا العام بعام الجماعة، لتجمع المسلمين فيه تحت إمام واحد، بعدما كانوا متفرقين.

وبعد أن أخذ معاوية البيعة نقل مقر الخلافة إلى دمشق وكان على ﷺ قد نقلها من المدينة إلى الكوفة .

وبدأ المسلمون يعيشون نظاماً سياسياً يختلف عن عصر الخلفاء الراشدين، حيث بدأ الخلفاء يتخذون الدور، والقصور، ويحيطون أنفسهم بالحجاب والخدم ويسمون أنفسهم بالملوك مع المحافظة على لقب (أمير المؤمنين) [1] ويعيشون حياة الترف والتنعم ويهتمون بجميع ثروات الدنيا .

وحتى تستمر الخلافة في ذويهم أخذوا يأخذون البيعة لأبنائهم وإن لم يكونوا أهلاً للإمارة في كثير من الأحيان .

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٣ صـ١٩٨ .

وقد استحدث الأمويون ولاية العهد لأبنائهم، وطوروها إلى ولاية العهد الثنائية، إذ كانوا يولون العهد لاثنين في وقت واحد، ليكون الواحد منهم بعد الثاني، كما فعل ذلك (مروان بن الحكم) إذ ولى عبد الملك ولده، ومن بعده ولى أخاه عبد العزيز .

وهكذا كانت الخلافة الأموية، وقد خرج منها حكام أكفاء مثل عمر بن عبد العزيز ﷺ وقد امتد حكم الدولة الأموية حتى عام ١٣٢هـ .

وبعدها تولت الدولة العباسية، فشجعت العصبية، وسارت على قاعـدة الملك الوراثي، وكان الخلفاء منهم يعهدون بالخلافة إلى أطفال لم يبلغوا سن الرشد، فلقد عهد الرشيد إلى ابنه الأمين وعمره خمس سنوات، وأسندوا ولاية العهد إلى أكثر من واحد كما فعل المهدى، والرشيد، والمتوكل.

وبدءاً من عام ٢٣٢هـ بدأ نفوذ الأتراك في الدولة العباسية، وتقلص دور الخلفاء، وصار الأتراك يلعبون بالخلفاء، ويعزلونهم، ويفعلون معهم ما يشاءون.

وصار الأتراك هم أصحاب السلطة التنفيذية، ولا شيء لخلفاء بني العباس وتتعاقب السنون، وتبدأ الدويلات في الإنفصال عن دولة الخلافة .

فنشأت الدولة البويهية ببغداد عام ٣٣٤هـ وسمى صاحبها وهو معز الدولة البويهي نفسه (أمير الأمراء) مع إبقاء رمز الخلافة العباسية بلا أدنى سلطة لأنه كان يختار واحداً من بني العباس ويعلنه خليفة بلا أدنى سلطة له .

وقامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب عام ٢٦٧هـ على أساس الوراثة والتشيع، لأبناء فاطمة وأخذت في توسيع رقعة سلطاتها، فسيطرت على بلاد المغرب ومصر وأسست الجامع الأزهر لتدريس المذهب الشيعي واستمرت في التوسع والحركة حتى تغلب عليها صلاح الدين الأيوبي فأسس الدولة الأيوبية في مصر والشام .

ونشأت الدولة السلجوقية في بلاد الشام عام ٤١٠هـ وحاولت أت تمد نفوذها إلى العراق عام ٤٤٧هـ وأعلن رجالها الخلافة في دمشق .

ونشأت الخلافة الأموية في الأندلس عام ٣١٧هـ واستمرت قرابة خمسة قرون وأسست في الأندلس حضارة راقية فأنشأت الجامعات ونشطت الحركة العلمية، وحاولت نشر الإسلام في أروبا ... إلا أنها في النهـاية ضعف حكامها وانشغلوا بالدنيا فسـقطت

الأندلس وخرج المسلمون منها .

وقامت الدولة الأيوبية، ودولة الأغالبة، والأدارسة، وتحول العالم الإسلامي إلى دويلات عديدة، مستقلة كل منها عن الأخرى تحت إدارة وحكومة تدعى كل منها الإدارة والخلافة .

وقامت دولة المماليك في مصر، ودولة المرابطين ودولة الموحدين في المغرب ... وغيرها .

ثم كانت الخلافة العثمانية التي استمر عدة قرون، وضمت أغلب الدويلات الإسلامية، إلا أن الاستعمار الغربي أخذ يعمل على إسقاط الخلافة العثمانية، حتى تمكن من ذلك باحتلال كل الدول الإسلامية، وإيجاد سلطة مستقلة في كل دولة عن الخلافة العثمانية، وأخيراً تمكن كمال أتاتورك من إعلان إسقاط الخلافة عام ١٩٢٤م.

وهكذا سقطت الخلافة تاريخياً عام ١٩٢٤م إلا أنها لم تسقط في حكم شرع الله تعالى، ويجب على المسلمين أن يعملوا لإعادتها ولو بصورة تناسب تطور العصر الحديث، وتقدم العمران والحضارة.

الفصل الرابع

فقـــه الخــلافـــة

ويشمل المباحث التالية:-

المبحث الأول: حكم نصب الخلافة .

المبحث الثاني: طرق اختيار الخليفة .

المبحث الثالث: صفات الخليفة .

المبحث الرابع: حقوق الخليفة وواجباته .

المبحث الخامس: نواب الخليفة ومعاونوه .

المبحث السادس: المسلمون المعاصرون والخلافة .

تمهيد:

فيما مضى من الفصول، والمباحث تحدثنا عن الأسس النظرية للحكم وتطبيقاتها في عصر رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده .

وذكرنا أن تطور الحكم في الدولة الإسلامية تغير كثيراً عن الواقع الإسلامي الصحيح وأدخل في حياة المسلمين نماذج للحكم غير ملتزمة بالمبادئ والأسس التي عاشها عصر السلف الصالح .

ولذلك أحببت أن أجعل هذا الفصل في دراسة فقه الخلافة، لأبين الأحكام الشرعية المتصلة بهذا الجانب الحيوي الهام بعيداً عن أخطاء التطبيق، وتغير النظام، ليكون الناس على بينة من أمرهم، ويتضح الحق، ويظهر الصواب .

ولذلك سيأتي هذا الفصل مكوناً من المباحث التالية :-

- **المبحث الأول** : حكم نصب الخلافة .
- **المبحث الثاني** : طرق اختيار الخليفة .
- **المبحث الثالث**: صفات الخليفة .
- **المبحث الرابع**: حقوق الخليفة وواجباته .
- **المبحث الخامس** : نواب الخليفة ومعاونوه .
- **المبحث السادس** : المسلمون المعاصرون والخلافة .

وذلك فيما يلي :-

ـ المبحث الأول ـ
الحكم الشرعي لنصب الخلافة

نصب الخلافة أمر ضروري لحياة الأمة، حيث لا قيام للأمة إلا بوجود السلطة العليا التي تنظم الحياة وتحكم الناس بشرع الله تعالى، ولأن تحقيق المصالح لا يتم إلا باجتماع، ولا يستقيم الاجتماع إلا بوجود رأس يضبطه وينظمه.

لا يصلح الناس فوضى لا سراه لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتني إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
وإن تجمع أوتاد وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

وحين نستعرض آراء الفرق والمذاهب الإسلامية في نصب الخليفة نرى أنها انقسمت إلى ثلاثة آراء أوردها فيما يلي بأدلتها لأصل في النهاية إلى الرأى الذي أراه راجحاً بعون الله تعالى .

وآراء المذاهب والفرق في إقامة الخلافة في شريعة الله تعالى انقسمت إلى ثلاثة آراء هي :

– أولاً –
القائلون بجواز الإمامة

يذهب الشيعة الإمامية[١]، والزيدية إلى أن إقامة الخليفة أمر واجب، فيتفقون في حكم الوجوب مع أهل السنة إلا أنهم يجعلونه واجباً على الله سبحانه وتعالى لا على الأمة، لأن الله تعالى أوجب على نفسه فعل الأصلح وهو لطيف رحيم بعبادة [٢] يقول الله تعالى﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[٣] وبذلك يقوم الخليفة بأمر الله في الناس

---

(١) الفرق بين الشيعة الإمامية والشيعة الزيدية أن الشيعة الإمامية يرون النص على إمام معين ليكون خليفة المسلمين، ولا يصح تجاوزه مطلقاً وهو على ﷺ وبنوه حتى الإمام الثاني عشر .

أما الزيدية فإنهم يقولون بالإمامة إلا أنهم لا يحددونها في أشخاص بذواتهم، وإنما يحددون أوصافاً يشترطونها فيمن يعين للخلافة ورأى الزيدية قريب من مذهب أهل السنة .

(٢) يرى الشريف الرضى أن اللطف هو خلق القدرة للعبد، وإكمال العقل، ونصب الأدلة، وتهيئة وسائل فعل الطاعة، وترك المعصية وتلك رحمة من الله للعبيد .

(٣) سورة الأنعام الآية ٥٤ .

يستدل الشيعة على مذهبهم بما يلي:-

١) الإنسان مدني بطبعه يحتاج إلى غيره ولا يمكنه أن يستقل بذاته بحيث يفزع كل فرد لما يحتاج إليه أصحابه ويقوم بمهمته في خدمة إخوانه، وبذلك تتم المحافظة على النوع، وتستقيم الحياة للجميع .

ولما كان الاجتماع بلا إرادة ورئاسة مظنة التغالب والتناوش والقهر والعدوان، الأمر الذى يحدث الهرج، والمرج ويوقع الفتن وبخاصة أن الله خلق في الإنسان قوى بهيمية وشهوية ... كل هذا يحتم وجوب نصب الخليفة ليضع للناس قواعد السلوك، ويحدد مسار التعامل، ويؤاخذ الناس بما يعملون .

٢) تولية واحد من الناس بواسطة الناس لا يؤدي إلى تحقيق المطلوب من تعيين الخليفة لأن اختيار الناس لرئيسهم يغلب فريقاً على فريق، وحينئذ يضيع هدف نصب الخليفة، لأنه حينئذ ينحاز لفريقه ويجور على غيرهم، .

ولابد من نصب إمام معصوم، يحقق العدل، ويمنع الظلم.

ومن المعلوم أن علم الناس قاصر، وهم عاجزون عن معرفة الشخص المعصوم والله سبحانه وتعالى هو الذي يعين للناس هذا الإمام المعصوم عن طريق الرسول ﷺ لأن العصمة من الأمور الباطنة التي لا يعلمها إلا الله تعالى، وقد تحقق هذا الوجوب – في رأيهم – بنص الوحى على اختيار على بن أبي طالب وبنيه من بعده .

٣) العصمة لآحاد الناس قدر إلهي يختار لها من يشاء، فهو سبحانه وتعالى يخلق الشخص المعصوم، وعليه سبحانه أن يعينه للخلافة .

٤) نصب الإمام رحمة ولطف، وكل رحمة ولطف واجب على الله، فنصب الإمام واجب على الله تعالى وهم يتصورون اللطف إلهاماً من الله ومعونة، وقد تحققت هذه الرحمة بالنص على على ﷺ وبينه.

٥) أقام الله تعالى الأنبياء حجة على العباد، يقول الله تعالى ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1].

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ .

وعليه سبحانه وتعالى أيضاً أن يقيم الخليفة حجة على الناس قياساً على اختياره سبحانه وتعالى للرسل، لأن الحكمة من وجود الإمام هي نفس الحكمة من وجود الرسول.

٦) يستدلون بأدلة نقلية وعقلية على أن الله تعالى ورسوله ﷺ نص على اختيار علي رضي الله عنه للخلافة ومن بعده أبناؤه وفق تسلسل معلوم عندهم (**وهذه أدلة سأوردها في المبحث الثاني وهي في جملتها أدلة مردودة**)

يقرر هؤلاء أن هذا الواجب قد تم بالنص على تعيين الأئمة من آل بيت النبي بدءاً بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن بعده أبناؤه وذريته.

جاء في كتاب أعيان الشيعة (أنه يجب على الإمام أن يكون معصوماً، حافظاً للشرع، فلو لم يكن معصوماً لم يؤمن من الزيادة في المطلوب منه، أو التنقيص منه، ولأنه معلم للأمة ما يجهلونه من أحكام الشرع فلو لم يكن معصوماً لعلمهم الخطأ، كما أن صدور الذنب منه يؤدي إلى عدم الوثوق بأقواله، وذلك ينافي الغرض المطلوب من إمامته، فالدليل الدال على عصمة النبي دال على عصمة الإمام، لأنه خليفته، والقائم مقامه في حفظ الشرع، وتأديته إلى الأمة، ولقوله تعالى خطاباً لإبراهيم عليه السلام ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1] وغير المعصوم ظالم لنفسه، فلا ينال عهد الإمامة الذي هو من الله تعالى، وأنه يجب أن يكون الإمام أفضل أهل زمانه وأكملهم، لأن تقديم المفضول على الفاضل قبيح[2] وفعل القبيح مستحيل على الله تعالى.

وبالنظر في هذا النص نرى أنه يشير إلى النقاط التي استدل بها، وهي :-

أ- عصمة الخليفة ضرورة لأداء وظيفته على الوجه المطلوب.

ب- الخليفة معلم الناس وعصمته تؤدي تعاليم الناس الصواب .

جـ- عدم عصمة الخليفة تؤدي إلى خطأ ينتج عدم الثقة فيه وبذلك تضيع الغاية من نصبه .

د- يحتاج الخليفة إلى العصمة كعصمة النبي ﷺ لأن مهمتهما واحدة .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٤ .

(٢) أعيان الشيعة جـ١ صـ٦،٧ .

و- وعد الله أن لا ينال عهده ظالم ولذلك وجب تعيين الإمام خالياً من الظلم.

ز- لا يصح تقديم المفضول على من هو أفضل منه .

وجاء في كتاب شرح الباب الحادي عشر للإمام الطوسي ما نصه: **يجب أن يكون الإمام معصوماً، وإلا تسلسل، لأن الحاجة الداعية إلى الإمام هي ردع الظالم عن ظلمه، والانتصاف للمظلوم منه، فإن جاز أن يكون الخليفة غير معصوم لافتقر إلى إمام آخر، ويكون حينئذ التسلسل وهو محال، ولأنه لو فعل المعصية، فإن وجب الإنكار عليه سقط محله من القلوب، وانتفت فائدة نصبه، وإن لم يجب سقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو محال)**[1].

وكلام الطوسى يركز على عصمة الخليفة أيضاً بدعوى أن عدم عصمة الخليفة يؤدى إلى التسلسل في الاختيار لأنه لو لم يكن معصوماً لوقع في الظلم الأمر الذي يدفع إلى وجوب تولية غيره فيقع في الظلم مرة أخرى فيجب تعيين غيره ... وهكذا يستمر التسلسل ويضيع الحق ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وعلى ذلك فالإيمان بالإمام المعصوم ركن من أركان الدين عند الشيعة قام النبي ﷺ به، وعينه بالنص كما تقول الإمامية، أو بالوصف كما يرى الزيدية .

ويذهب الشيعة إلى أن من حق الإمام أن يلجأ إلى التقية بمعنى أن يخفى شخصيته أمام غير الشيعي ليأمنه، ويرون اختفاء الإمام الثاني عشر تطبيقاً لهذا المبدأ، ويدعون أنه المهدي المنتظر، فهم يعيشون بلا إمام إلا أنهم في انتظار ظهوره ويستبدلون به المراجع والآيات والأئمة

ويلاحظ أن الإيمان بالإمام المعصوم ركن من أركان العقيدة عند الشيعة لم يقل به غيرهم، وهم بهذا يخالفون أهل السنة في أصل إيماني، وركن من أركان العقيدة .

- ثانيا -
القائلون بجواز الإمامة

يذهب أصحاب هذا الرأي، وهم المحكمة الأولى، والنجدات من الخوارج، وبعض المعتزلة إلى أن نصب الخليفة ليس واجباً شرعياً على الأمة، بل هو أمر جائز ولا لوم على

---

(١) شرح باب الحادي عشر صـ٤٥ .

الناس إن تركوا اختيار الإمام، وإن اختاروه فهو شأنهم لأنه أمر جائز، وليس واجباً.

يستدل هؤلاء على جواز الإمامة، وعدم وجوبها بأن نصب الإمام يؤدي إلى لحوق أضرار عديدة بالناس منها:-

١) طاعة الإمام يتناقض مع مبدأ الحرية أحياناً، لأن الخليفة قد يأمر بأمر يتناقض مع رغبة أحد الرعايا، وينفذه بسلطانه، وبذلك تضيع حرية المعارض وهذا لا يجوز.

٢) تنصيب الإمام يتناقض مع مبدأ المساواة حيث يكون الإمام بسلطته في المقام الأعلى اجتماعياً، ويكون الرعايا في مقام أدنى منه.

٣) الإمام غير معصوم من الخطأ ومن النادر توفر الشروط الواجبة فيه في شخص ما، وقد يؤدي خطأ يقع فيه الإمام إلى أضرار بالغة تصيب الأمة، والأولى حينئذ عدم تنصيب إمام.

وأصحاب هذا المذهب لا يمنعون إقامة الخلافة، ولكنهم يرون جوازها لا وجوبها، كما أنهم لم يتساهلوا في شأن إدارة شئونهم، و لم يتركوا أمر تنظيم حياتهم للفوضى ولكنهم يذهبون إلى ضرورة اشتراك الجميع في تنفيذ الأحكام الشرعية بصورة توافقية تلقائية ورأيهم قائم على مثالية خيالية، لأن الناس إذا عاشوا بلا قيادة تعم الفوضى وينتشر الفساد

ومن العجب أن تصورهم للحرية والمساواة، وحرصهم على ذلك جعلهم لا يقولون بوجوب الإمامة، وهذا أمر يضر الحرية والمساواة والعدل معاً، لأن الحرية تحتاج لمن يحرسها ويحميها، والمساواة والعدل يحتاجون كذلك إلى سلطة قادرة تحكم وتنفذ... وذلك لا يكون إلا بإمام للناس ... وهذا يبين ضعف القائلين بجواز الإمامة.

- ثالثاً -

مذهب وجوب الإمامة

يذهب أهل السنة والجماعة وجمهور العلماء إلى أن نصب الخليفة واجب أوجبه الله تعالى على الأمة مستدلين بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية وبالإجماع وبالمعقول وهي كما يلي:-

أدلتهم من القرآن الكريم:

يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ

مِنكُمْ﴾[1] والآية تأمر المسلمين بطاعة أولى الأمر، وأولو الأمر هم الحكام، ويرى ابن حزم في الآية دليلاً على وجوب نصب الإمام، لأن التزام الأمة بالحكم الشرعي واجب، ولا يتم ذلك إلا بوجود حاكم فوجب نصب هذا الحاكم، وإقامته، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب [2] وعطف أولى الأمر على الرسول بلا ذكر الأمر بالطاعة معهم بيان في أن طاعتهم واجبة إذا استقاموا على أمر الله ورسوله .

أدلتهم من السنة النبوية :

جاء في السنة أن رسول الله ﷺ قال: (**لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم**)[3]وقد بين الحديث أن تعيين الأمير واجب لأن تركه لا يحل .

يقول الإمام الشوكاني: إذا كان الله شرع لكل ثلاثة فصاعدا أن يؤمروا عليهم واحداً منهم، للسلامة من الخلاف، وتجنب الفوضى، فمشروعيته لعدد أكبر، وللأمة أولى، ولذلك وجب نصب الإمام[4].

أدلة الإجماع :

أجمع الصحابة على بيعة أبي بكر ﷺ يوم وفاة رسول الله ﷺ وهذا الإجماع دليل على وجوب نصب الخليفة، وقد أجمعت الأمة على هذه البيعة في المسجد النبوي في اليوم الثاني وفى الولايات بعد ذلك .

قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد: **أشهدت وفاة الرسول ﷺ؟** .

قال سعيد: نعم .

قال عمرو : فمتى بويع أبو بكر؟

قال سعيد: يوم مات رسول الله ﷺ كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة

قال عمرو: فخالف عليه أحد ؟

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٢) الفصل جـ٤ صـ٨٧ .

(٣) مسند أحمد جـ٢ صـ١٧٦ .

(٤) نيل الأوطار جـ٨ صـ٢٦٥ .

قال سعيد: لا ، إلا مرتد، أو من كان قد كاد أن يرتد .

قال عمرو: فهل قعد أحد من المهاجرين .

قال سعيد: لا، تتابع المهاجرون على بيعته، من غير أن يدعوهم أحد [١].

وأجمع الصحابة كذلك على بيعة سائر الخلفاء الراشدين.

يقول الإيجي: إنه تواتر إجماع المسلمين في الصدر الأول، بعد وفاة النبي ﷺ على امتناع خلو الوقت من إمام، حتى قال: أبو بكر ﷺ في خطبته المشهورة، حين وفاته عليه السلام: **من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت**، ولابد لهذا الدين ممن يقوم به ... فبادر الكل إلى قبوله وبايعوه خليفة وتركوا له أهم الأشياء، وهو دفن رسول الله ﷺ ولم يزل الناس على ذلك، في كل عصر إلى زماننا هذا، من نصب إمام متبع في كل عصر مع تعدد الأوطان، وكثرة الدول[٢] .

وواضح من قول العلماء إن الإجماع منصب على ضرورة وجود الحاكم في كل وطن وليس المهم تحديد شكل الحكم، من خلافة أو غيرها ما دام الشرع هو المطبق[٣].

فثبت بذلك وجوب نصب الإمام.

أدلة المعقول :

يستدل أهل السنة على مذهبهم بالمعقول أيضاً، ويقولون :-

١) توفير النظام، والقضاء على الفوضى يؤدي إلى استقامة الخلق في عملهم، وحياتهم، ولذا وجب تعيين الخليفة ليسوس الناس بالحق، تأسياً برسول الله ﷺ ليستقيم أمر الناس .

٢) قيام الإنسان بوظيفته التي خلق لها، وهي تعمير الأرض لا تتم إلا بإمام يحرس الدين والدنيا، ويعمل لخدمة البلاد والعباد .

٣) قيام الإسلام بنظمه في الناس، لا يتحقق، ولا تظهر فوائده إلا في ظل سـيـاح

---

(١) تاريخ الطبري جـ٣ صـ٢٠٧ .

(٢) المواقف صـ٦٠٣

(٣) نظام الإسلام صـ١٩٥ .

متين من القوة المانعة، والسطوة الرادعة، يحمى أهل الحق، ويرد أهل الباطل، وينشر منهج الله في الناس، وبذلك يقوم الإسلام، وينتشر ومن المعلوم أن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وإقامة الإسلام واجب فصار نصب الإمام واجباً هو الآخر .

٤) إقامة العدل يحتاج إلى القضاء، وإلى تنفيذ الأحكام، وبدون الحاكم لا يوجد قضاء، ولا يعاقب معتد، ولا ينفذ حكم ما .

٥) تحتاج الدولة المسلمة إلى القيام بدورها مع دول العالم حيث تتعاون معهم، وتباشر مهام إيصال الدعوة إليهم وتعيين من ينافح عن الدين ويشرحه، وهذا أمر لابد له من حاكم .

ـ رد أهل السنة ـ

يرد أهل السنة وجمهور العلماء على مخالفيهم، ويناقشون آراءهم وأدلتهم بالتفصيل:

أ- الرد على القائلين بالجواز :

يرى أهل السنة أن المصالح التي تتحقق بوجود الخليفة أكثر بكثير من المضار التي تلحق بالناس عند عدمه، وارتكاب أخف الضررين واجب شرعاً .

وأيضاً فإن اختيار الخليفة وفق شروط معينة، واعتماد الشورى منهجية الحكم، ومشاركته لأهل الحل والعقـــد يقلل من المضار المحتملة بقدر الإمكان، وبذلك يكون اختيار الخليفة واجباً بشروطه وأحكامه .

إن الحرية الحقيقة هي التي تتم في نظام يصونها للجميع، في إطار الحق والواجب، حيث الحاكم يوجه، ويراقب، ويجازي .

إن المساواة لا تعني انعدام الفوارق بين الناس، لأن الفوارق الاجتماعية أمر مقرر طبعاً وعقلاً، وهي موجودة بين كل الكائنات الحية بالضرورة.

إن القول بالحرية المطلقة، والمساواة المطلقة مع عدم وجود سلطة وحكم يحول البشر إلى جماعة من الوحوش، يأكل بعضها بعضاً، وتمتلئ الأرض فساداً، وظلماً، وطغياناً، ومن هنا كانت ضرورة الحاكم.

وكون الإمام غير معصوم لأ يؤدي إلى ترك الإمامة، لأن الإمام في الإسلام يختار وفق مواصفات ضرورية لابد منها، ومعها التزامه بتطبيق شرع الله تعالى، وعليه أن يستشير أهل الاجتهاد والرأي، ويقبل النصح، ويستقصى الصواب في كل مسألة، وبعد ذلك يكون توفيق الله تعالى، ومهما كان خطؤه بعد ذلك فهو أيسر، وأهون من ترك الخلافة بالكلية في حياة الناس .

إن الفريق الذي ينادي بجواز الخلافة ينشد تحقيق المثل العليا، ويجعل كل مسلم جزءاً في تنفيذ أحكام الشرع دون وجود قوة مسيطرة ... وذلك خيال لم يتحقق ولن يتحقق أبداً .

ولابد من الخلافة للناس لتحقيق العدل، والحرية، والمساواة في إطار الضوابط الشرعية المقررة .

أ- ألرد على الشيعة :

يرد أهل السنة والجمهور أيضاً على الشيعة بعدما يوافقونهم في وجوب الإمامة لأن قول أهل السنة بالوجوب غير قول الشيعة به، فأهل السنة يقولون: هو واجب على الأمة، والشيعة يقولون: هو واجب على الله، والفرق بين القولين كبير ... ولذلك رد أهل السنة قول الشيعة بما يلي :-

١) استدلال الشيعة على تعيين الإمام على كرم الله وجهه للخلافة، والنص عليه من رسول الله ﷺ استدلال مردود، لأن ما أوردوه من أحاديث فهي إما أحاديث ضعيفة، أو مؤوله بغير ما ذهبوا إليه، وسيأتي تفصيل القول في هذه الأحاديث .

يقول ابن حزم: وعمدة هذه الطوائف كلها في الاحتجاج أحاديث موضوعة مكذوبة، ومن المستحيل على الصحابة العدول المبشر بعضهم بالجنة أن يكتموا خبراً عن الرسول ﷺ لاسيماً في شأن الإمامة ذات الأثر الخطير والشهير لأنه لو صح قول النبي ﷺ لشاع خبره بين الصحابة، وعم ذكره وبخاصة بعد وفاة رسول الله ﷺ لاهتمام جميع الصحابة بما حدث .

ومن المعلوم أن الأخبار الهامة تسير بها الركبان إلى كل العالم فور حدوثها لأهميتها

وشهرتها و لم يحدث ذلك مع أدلة الشيعة الحديثية .

وهل يعقل أن يتم التعيين من النبي ولا يعلم المعيّن ؟

وعلى فرض أن علياً ﷺ وأشياعه علموا بالتعيين فلماذا لم يتمسك بحقه، ويخاصم عليه، ويقطع دابر الخلاف الذي حدث لاختيار الخليفة ؟

- لقد ذكر العباس لعلى أهمية الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرة وقبل اختيار أبي بكر ومع ذلك لم يتحرك على ... ولو كان هناك نص يزكيه لأبرزه ؟!!

- عند اختيار عمر ﷺ للخلافة اشترك على ﷺ و لم يتحدث عن تعيين، و لم يشر إليه مما يدل على عدم وجوده أصلاً .

- في اختيار عثمان ظهر حرص علي على الخلافة لأهليته لها، ومع ذلك لم يذكر نصا بعينه، أو حديثاً يؤيده ولو وجد نص لظهر، ولرواه على أو العباس أو أحد ممن كان يرى علياً هو الأولى بالخلافة يومذاك وكانوا كثيرين .

٢) ولو كان على كرم الله وجهه معصوماً كما تقول الشيعة لاستغنى بعصمته عن النبي ﷺ في التعليم وغيره، مع أنهم يسلمون بأنه كان محتاجاً للنبي ومؤتماً لأنه لو لم يكن محتاجاً لرسول الله لكان خارجاً عن الدين .

٣) القول بعصمة الإمام يقودنا إلى القول بعصمة أمرائه، وولاته، وقضاته، لأن الإمام لا يلي من الأمر شيئاً أكثر منهم، والشيعة لا يرون عصمة هؤلاء، فلا فائدة إذاً في قولهم بعصمة الإمام[١].

٤) يرى الشيعة أن علياً ﷺ معصوم من الخطأ، ومع ذلك يذهبون إلى أنه أخطأ في بعض الأشياء، ومنها قبوله التحكيم مع معاوية ﷺ .

٥) يقول ابن تيميه : لم يأمر النبي ﷺ بطاعة الأئمة مطلقاً، بل أمر بطاعتهم في طاعة الله دون معصيته كما هو واضح من نص الآية، وهذا يبين أن الأئمة الذين أمر الرسول بطاعتهم في طاعة الله ليسوا معصومين .

٦) القول بعصمة الإمام يؤدي إلى انعدام الشورى، لأنه لا حاجة إلى الشورى

---

(١) التمهيد لأبي بكر الباقلاني صـــ ١٨٥ .

حينئذ لعدم جدواها مع إمام لا يخطئ في قول أو في فعل .

٧) فى صحيح مسلم عن عوف عن مالك الأشجعى قال **سمعت النبي ﷺ يقول : خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتعلنوهم ويلعنوكم .**

قيل يا رسول الله: أفلا ننابذهم بالسيف ؟

قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يدا من طاعة [1].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: **إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون ، وتنكرون فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع.**

قالوا يا رسول الله ألا نقاتلهم ؟

قال: لا ما صلوا، لا ما صلوا) [2].

وهذه الأحاديث تشير إلى أن الأئمة منهم الأخيار، ومنهم الأشرار ومنهم المحبوب يدعي له، ومنهم المكروه يبغضه الناس، فهم إذا غير معصومين .

٨) القول بوجوب شيء على الله لا يليق بمقام الله تعالى ولا يجب عليه سبحانه وتعالى شيء إلا ما أوجبه سبحانه وتعالى على نفسه، وليس منها تحقيق عصمة على ﷺ ، فله سبحانه الإرادة المطلقة، ومشيئته نافذة، يقول الله تعالى ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾[3]

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[4].

٩) اللطف الذي يقول به الشيعة إلهام يصنعه الله في القلوب والقول به لا يعد نصاً والاستدلال عليه بقوله تعالى ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[5] لا يجوز لأن تفسير

(١) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب خيار الأئمة وشرارهم جـ١٢ صـ٢٤٥ .

(٢)صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب وجوب الإنكار على الإمام جـ١٢ صـ٢٤٣ .

(٣) سورة القصص الآية ٦٨

(٤) سورة يس الآية ٨٢

(٥) سورة الأنعام الآية ٥٤ .

الرحمة بالعصمة ليس صحيحاً لأن الرحمن شاملة لجوانب عديدة متعددة المعنى والتصور.

١٠- يقول ابن حزم: إن عمدة ما احتجت به الإمامية أن قالوا: لابد من أن يكون إمام معصوم عنده جميع علم الشريعة .

والجواب عليهم، أن ذلك هو النبي ﷺ نفسه في حياته وبعد مماته إلى يوم القيامة، فبلاغ رسول الله ﷺ قائم بعد موته إلى يوم القيامة[١] محفوظ ثابت بحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية .

١١) ونتساءل أخيراً مع الشيعة .

أين هذا الإمام المعصوم ؟!

إنهم يقولون باختفائه وأن الإمام الثاني عشر هو المهدي المنتظر، وأنه سيرجع ليملأ الأرض عدلاً .

ونتساءل كذلك .

كيف يقوم الإمام المختفي، غير الظاهر بهداية أتباعه وهو غائب عنهم ؟

– وكيف تصفونه بالغائب مع أنكم لا تعرفون أي شيء عنه ؟!

– وماذا تفيد عصمته وهو غائب لا أثر له ؟

إن إماماً يقوم بين الناس لا عصمة له أنفع للناس مما تقولون ؟!

وهل الإنسان الذي يعصمه الله يعيش هكذا طريداً، ضعيفاً، مختفياً؟؟

وهل الآيات والأئمة معصومون كالإمام الذي ينوبون عنه ؟؟ أم أن أمر الشيعة الآن كسائر المسلمين لا عصمة لمن يقودهم ؟!!

وهذه مسألة لها أهمية لأن عنهم من يرى عصمة الآيات والأئمة.

الترجيح :

بالنظر في ردود أهل السنة على القائلين بجواز نصب الخليفة ظهر ضعف رأيهم، وظهر كذلك ضعف مذهب الشيعة في الإمامة، وبذلك يترجح مذهب الجمهور في وجوب نصب الإمام واختياره بصفاته من جمهور الأمة، وبذلك يتحقق سلطان الله في

---

(١) الفصل في الملل والنحل جـ٤ صـ٩٤، ٩٥ .

الأرض في صورة عملية حقيقية بواسطة هذا الإمام الظاهر، ومعه مستشاروه، ومعاونوه، من أهل الحل والعقد، الذين يجتهدون معه في تطبيق شرع الله تعالى بدقة وإحكام على قدر طاقة البشر .

وسوف يوفقه الله لإصابة الحق ما دام ملتزماً بما أملاه عليه شرع الله .

وعلى هذا ولي الأمر الخلفاء الراشدون أمر المسلمين بلا عصمة يزعمونها.

يقول أبو بكر بعد أن بايعه الناس: **أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فلا طاعة لي عليكم.**

ويقول عمر : ماذا أنتم فاعلون لو رأيتم في اعوجاجاً.

قالوا : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا .

فالإمام غير معصوم والأمة معه تعينه، وتنصحه وتنصره ... والله الموفق .

المبحث الثاني
طرق اختيار الخليفة (الإمام) *

ذهب العلماء إلى تحديد طرق اختيار الخليفة استنباطاً من طرق اختيار الخلفاء الراشدين التي سبق ذكرها .... ومن أرائهم المذهبية في وجوب الخلافة ... وذكروا في ذلك طرقاً أربعة هي :

الطريقة الأولى
تعيين الإمام بالنص

ذهب الشيعة إلى أن الله تعالى عين للخلافة علياً وبنيه من بعده، وذلك لطف منه ورحمة بعبادة، واستدلوا على ذلك بأدلة عديدة هي :

١) أدلة القرآن الكريم :

استدل الشيعة بقول الله تعالى ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾[١] فذهبوا إلى أن قرابة رسول الله ﷺ تنحصر في علي وفاطمة وأبنائهما، ويرون أن المودة المطلوبة هي طاعتهم والإنقياد لهم وذلك يستلزم أن يكونوا الأئمة فيهم لتتحقق الطاعة الشرعية .

ويستدلون أيضاً بقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾[٢] ويرون أنه لا اختيار لمؤمن مع أمر الله وقضائه، وعلى ذلك فالله اختار رسوله واختار علياً وأبناءه للرسالة والإمامة،وهذا يوجب على المسلمين الطاعة والانقياد .

---

* يلقب الرئيس التنفيذي والأعلى في النظام الإسلامي بعده ألقاب هي الخليفة والإمام والأمير وقد استعمل لفظ الامير في احتماع السقيفة حين قال الأنصار (**منا أمير ومنكم أمير**) ومعنى الأمير في لغات العالم رئيس الدولة.

وقد سمي أبو بكر بالخليفة جاء في مقدمة ابن خلدون : أن الصحابة سموا أبا بكر ﷺ بعد بيعته " خليفة " يعنون بذلك خليفة رسول الله ﷺ فلما ولى عمر بن الخطاب استثقلوا أن يسموه خليفة خليفة رسول الله وقال عمر إن هذا أمر يطول كلما جاء خليفة تقولون : خليفة خليفة خليفة .... رسول الله – بل أنتم المؤمنون، وأنا أميركم فسمي بأمير المؤمنين، والإمام ما يؤتم به ويقتدي، وقد أطلقه الشيعة على علي ﷺ وهي أخت الخلافة وبمعناها .

والعلماء يطلقون على رئاسة الدولة الإمامة الكبرى تمييزاً لها عن الإمامة الصغرى التي تكون في الصلاة (انظر مقدمة ابن خلدون، وتاريخ الطبرين والخلفاء للسيوطى) .

(١) سورة الشورى الآية ٢٣ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٦ .

والشيعة يوجهون الآيات نحو الخلافة ويفسرونها بها لتتوافق مع مذهبهم مع أنها بعيدة عن ذلك تماماً، لأن مودة القربى تكون بالحب والعطاء كما تكون بطاعة الرسول ﷺ لقرابته مع أهل مكة جميعاً ومعنى الآية لا أطلب أجراً على دعوتي، وإنما أسألكم أن توادوني في قرابتي لكم فتؤمنوا بي وتصدقوني ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ كانت له قرابة بأهل مكة جميعاً فاستحثهم بهذه القرابة ليؤمنوا بدعوته .

وأيضاً فإن المراد بالاختيار المنهي عنه هو الاجتهاد مع نص الوحي لأنه لا اجتهاد مع النص، والمؤمنون هم أول المطيعين لأمر الله لا خيار لهم معـــه
وقد وصفهم الله بذلك في الآية .

ونحن نسأل :-

- **أليس الدخول في الإسلام، وحب أقرباء النبي له ﷺ مودة ؟!**
- **ولم نبعد عن هذا المعني وهو الأقرب والأولى إلى معنى تعارضه الأدلة ؟!**
- **وهل هناك خيار للمؤمن مع أمر الله مطلقاً ؟**
- **ولم حصر المعنى في الإمامة وجر الآية إلى غاية بعيدة عن مرادها ؟؟**

٢) أدلة السنة :

يورد الشيعة مجموعة من الأحاديث ويجعلونها دليلاً على ما ذهبوا إليه من تعيين على بن أبي طالب خليفة للمسلمين بالنص مع أنها لا تشهد لهم ومن هذه الأحاديث :

أ- حديث غديرخم :

أخرج الطبراني والنسائي وأحمد والحاكم عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ خطب الناس في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وقال في خطبته (**يا أيها الناس، إن الله مولاى، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله**) [١]

والواقع أن هذا الحديث غير صحيح، قال الإيجي: لا صحة للحديث، إذ لم ينقله أكثر أصحاب الحديث، بل إن علياً لم يكن يوم الغدير مع النبي، بل كان في اليمن، وإن سلم فرواته

---

(١) حديث ضعيف رواه الألباني في السلسلة الضعيفة .

لم يرووا مقدمة الحديث[١].

يقول ابن تيميه: مع افتراض أن النبي قاله يوم الغدير فإنه لم يرد به الخلافة قطعاً ولكن الشيعة يزكون الحديث، ويعتبرونه صحيحاً لأنه يوافق هواهم[٢].

يقول الباقلاني: إن لكلمة "مولى" معان كثيرة، فمنها المولى بمعنى الناصر، ومنها المولى بمعنى ابن العم، ومنها المولى بمعنى المكان والقرار، ومنها المولى بمعنى المعتق المالك للولاء، ومنها المولى بمعنى الجار، ومنها المولى بمعنى الصهر، ومنها المولى بمعنى الحلف، فهذا جميع ما يحتمله قول مولى، وليس من معنى هذه اللفظة أن المولى إمام واجب الطاعة، والذي قصده النبي بهذه الكلمة — على فرض صحتها — يحتمل أمرين:

أحدهما — من كنت ناصره على دينه وحامياً عنه بظاهري وباطني وسري وعلانيتي فعلى ناصره على هذه السبيل.

والثاني — من كنت محبوباً عنده، وولياً له على ظاهري وباطني، فعلي مولاه، أي أن ولاءه ومحبته من ظاهره وباطنه واجب، كما أن ولائي ومحبتي على هذه السبيل واجب[٣].

وبذلك ينصرف الحديث عن مراد الشيعة، ولا يصح استدلالهم به.

ب- حديث المنزلة:

حينما خلف النبي علياً على المدينة بعد خروجه لغزوة تبوك، قال المنافقون: **إنما خلفه لأنه يبغضه، فبلغ ذلك علياً، فبكي واشتكى إلى النبي قائلاً: أتخلفني في النساء والصبيان؟ فرد النبي: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي.**

وهذا حديث صحيح متواتر، فسره الشيعة بما يثبت لهم خلافة علي، وقالوا: إن تشبيه علي بهارون يثبت له كل منازل هارون مع موسى فيما عدا النبوة، ومن منازله الأخوة والوزارة، والخلافة، وولاية الأمر بعده لو عاش بعد موسى، وكونه شريكاً في أمره.

وقال أهل السنة: ليس الحديث حجة على إمامة علي، لكونه مخصوصاً بواقعة حال معينة، وهي الاستخلاف على المدينة، كما يستخلف كل قائد أحداً بعده في إدارة ولايته حال

---

(١) المواقف صـ٤٠٥.

(٢) المنتقى من منهج الاعتدال صـ٤٢٣.

(٣) التمهيد صـ١٦٤ وما بعدها وانظر نهاية العقول للرازي صـ٢٦٣.

غيبته، ثم إن النبي قد خلف علياً في أهله، وليست الخلافة في الأهل كالخلافة على البشر، والاستخلاف المقيد بالغيبة لا يكون باقياً بعد انقضائها، كما لم يبق في حق هارون[١].

وقد أجاب الباقلاني على ذلك بأنه لا يجب أن نفهم من هذا الحديث بأنه نص على خلافة على بعده، لأن معنى ذلك أني أستخلفك على أهلي وعلى المدينة إذا توجهت إلى هذه الغزوة، وهذا واضح من سياق الحديث الذي رواه سعد بن أبي وقاص قال: إن علياً لحق بالنبي بعد أن استخلفه، وقال له : أتتركني مع الأخلاف؟

فأجابه الرسول بقوله: **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**

جـ- حديث الراية يوم خيبر :

قال: النبي ﷺ محدداً أوصاف على لقيادته معركة خيبر: **لأعطين الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يده).**
يروى الشيعة هذا الحديث وهو حديث صحيح رواه البخاري والترمذي والحاكم، فهذه الصفات أصبحت خاصة بعلي، مما يدل على أفضليته وبالتالي أحقيته للإمامة، لأن الإمامة للأفضل .

ورد أهل السنة على الاستدلال بهذا الحديث بأنه لا ملازمة بين كونه محباً لله ولرسوله ومحبوباً منهما، وبين كونه إماماً، كما لا يلزم من إثباتهما له نفيهما عن غيره[٢] لأن الحب توجه قائم على الإخلاص والصدق والتخلق وليس بلازم أن يحقق الإمامة فقد أحب الله عباداً له أحبوه وأخلصوا في عبادته و لم يصيروا أئمة فقد قال الله في حق أبي بكر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[٣] وقال في حق أهل بدر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[٤]) وبذلك فحب الله لعبده لا يعني تعيينه للخلافة [٥].

---

(١) نظرية الإمامة صـ٢٢٥ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق صـ٢٣١ وما بعدها .
(٣) سورة المائدة الآية ٥٤ .
(٤) سورة الصف الآية ٤ .
(٥) نظرية الإمامة صـ٢٣١ ، ٢٣٢ .

الطريقة الثانية
ولاية العهد

أجاز الفقهاء تولية الخلافة بعهد من الخليفة السابق لشخص جامع لصفات الخليفة ليتولى أمر الناس من بعده ... وهذه الطريقة تعرف بولاية العهد .

ويستدل الفقهاء على ذلك بما فعله أبو بكر فلقد عهد أبو بكر بالخلافة من بعده لعمر، وعهد عمر بالخلافة من بعده لواحد من الستة الذين عينهم عمر قبل وفاته.

ويجب أن نلاحظ أن بيعة عمر وعثمان ليست عهداً مطلقاً بل هي ترشيح لابد معه من البيعة العامة التي لابد منها لتتم البيعة .

وبهذا يتضح أن الخلافة لا تورث، وقد ذكر ابن حزم الإجماع على ذلك[1].

الطريقة الثالثة
القهر والغلبة

قد يستعمل إنسان ما قوته وسطوته ويغلب على السلطة، ويتولى الأمر بلا بيعة، وهذه حالة استثنائية يجب التعامل معها بهدوء حتى لا تحدث فتنة تؤدي إلى فساد لا ينتهي، ومن المعلوم أن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ولا يجوز الخروج على من ولى الأمر بهذه الطريقة إلا إذا قام في الناس بكفر بواح لا تأويل معه .

الطريقة الرابعة
بيعة أهل الحل والعقد

يقوم أهل الحل والعقد باختيار شخص جامع لشروط الخلافة ويرشحونه ويبايعونه بيعة خاصة وبعدها يقوم المسلمون بمبايعته بيعة عامة .

والاعتداد برأي أهل الحل والعقد نابع من اتصافهم بشروط العدالة والضبط فلابد لكل منهم من الاتصاف:

أولاً : العدالة الجامعة لشروطها، والعدالة هي ملكة تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة، والمراد بالتقوى امتثال المأمورات الشرعية، واجتناب المنهيات الشرعية.

---

(١) الفصل جـ٤ صـ١٦٧ .

ثانياً : العلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها.

ثالثاً : الرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح، وبتدبير المصالح أقوم وأعرف [١].

وبالنظر في هذه الشروط نلحظ أن أهل العقد والحل لا يشترط فيهم الاجتهاد ... وهم بمثابة رجال يمثلون الأمة في الاختيار وعددهم غير محدد، واختلاف الفقهاء حول عددهم مصدره ما رآه كل فقيه في العدد الذي يحقق الترشيح السليم .

وبعد ترشيح أهل الحل والعقد لابد من البيعة العامة مراعاة لمبدأ الشورى وحق الاختيار للناس .

يقول الغزالي : في بيعة أبي بكر ﷺ ولو لم يبايعه غير عمر ، وبقي كافة الخلق مخالفين أو انقسموا انقساماً متكافئاً لا يتميز فيه غالب عن مغلوب، لما انعقدت الإمامة[٢].

ويقول الإمام أحمد في تفسير قوله ﷺ **(من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية)** أتدري ما الإمام ؟ الإمام الذي يجمع عليه المسلمون كلهم يقول: هذا إمام، فهذا بمعناه.

ويقول ابن تيميه في مبايعة أبي بكر : لو قدر أن عمر وطائفة معه بايعوه، وامتنع سائر الصحابة عن البيعة، لم يصر إماماً بذلك، وإنما صار إماماً بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة والشوكة [٣].

وقد بين الماوردي ضوابط الاختيار التي يتبعها أهل الحل والعقد، وطريقة اختيار شخص دون غيره فقال: فإذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً وأكملهم شروطاً، ومن يسرع الناس إلى طاعته، ولا يتوقفون عن بيعته، فإذا تعين لهم من بين الجماعة من أداهم الاجتهاد إلى اختياره، عرضوها عليه، فإن أجاب إليها بايعوه عليها، وإن امتنع من الإمامة ولم يجب إليها لم يجبر عليها، لأنها عقد مراضاة واختيار، لا يدخله إكراه ولا إجبار، وعدل عنه إلى سواه من مستحقيها .

---

(١) الأحكام السلطانية صـ٤ .

(٢) الرد على الباطنية صـ٦٤ .

(٣) منهاج السنة جـ١ صـ١٤١ ، ١٤٢ .

ولو تكافأ في شروط الإمامة اثنان قدم لها اختياراً أسنهما، وإن لم تكن زيادة السن من كمال البلوغ شرطاً، فإن بويع أصغرهما سناً جاز.

ولو كان أحدهما أعلم والآخر أشجع روعي في الاختيار ما يوجبه حكم الوقت، فإن كانت الحاجة إلى فضل الشجاعة أدعى لانتشار الثغور وظهور البغاة كان الأشجع أحق، وإن كانت الحاجة إلى فضل العلم أدعى لسكون الدهماء، وظهور أهل البدع، كان الأعلم أحق [1].

وهكذا يتصفح أهل الحل والعقد أحوال الناس، وحاجات العصر، وصفات المؤهلين للخلافة ليختاروا من يرونه الأولى بالخلافة وسط هذه الظروف .

****

الخلاصة :

يلاحظ أن طريقة تعيين الخليفة بالنص ليست مسلمة شرعاً لعدم ثبوت ما استدل به أصحابها عليها .

كما أن طريقة الاستيلاء والغلبة طريقة استثنائية لا يلتفت إليها إلا بعد وقوعها علاجاً للحال، ودرءاً للفساد، ولا يصح أن تكون طريقاً عادياً يقوم به من يقدر عليه.

وطريقة ولاية العهد التي استعملها الخلفاء الراشدون لا ينبغي اللجوء إليها لانعدام وجود مثل هؤلاء الراشدين.

ولذلك فالطريقة الرابعة هي الطريقة الممكنة والأولى بالاتباع .

ومن الضروري تحديد أهل الحل والعقد بشروطهم ليتمكنوا من أداء مهامهم بإتقان حتى تقوم الأمة بعد ذلك بواسطة الخليفة بتطبيق شرع الله وحماية حياة الناس .

---

(١) الأحكام السلطانية صـ٥ .

ـ المبحث الثالث ـ
صفات الخليفة

ذهب علماء السياسة الشرعية إلى ضرورة تمتع من يلي أمر الخلافة بصفات تمكنه من تحمل المسئولية والقيام بما كلف به، وأهم هذه الصفات ما يلي :

١) أن يكون الخليفة جامعاً لشروط التكليف الشرعي وهي الإسلام، والبلوغ والعقل، أما الإسلام فلأنه مسئول عن حماية الدين ولا يقوم بحماية الإسلام من لا يكون مسلماً، وأما البلوغ فلأن الصبي لا يتحمل المسئولية، ولا يستقل بالعمل، وأما العقل فلأن المجنون لا يقدر على الفهم والتصرف السليم ولا يمكنه الفصل في حياة الناس، والإمام محتاج إلى رجحان الرأي، وسداد الفهم وصدق التدين، والقدرة على العمل

٢) أن يجمع الخليفة صفات الولاية العامة وهي الإسلام، والحرية، والذكورة، لأن غير المسلم لا ولاية له على المسلم لقوله تعالى ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾[1] ومن المعلوم أن الناس لا يطيعون ولا يخضعون للأدنى منهم .

والحرية صفة كمال ورفعة فلا يصح لعبد أن يلي أمر الأعلى رتبة منه.

والمرأة لا تتحمل مشاق الولاية وتبعاتها، وهي تعيش في كنف رجل قوام عليها، يقول تعالى ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾[2] فلا يصح أن تلي أمر الرجال .

وهناك من العلماء من فرق بين الولاية العامة والولاية الخاصة فأجاز أن تلي المرأة الولايات الخاصة دون العامة .

٣) أن يكون الخليفة عدلاً، والعدالة تعني صدق التدين، وحسن السلوك، وهي معتبرة في كل ولاية عامة أو خاصة، لأن الوالى بالعدالة يكون صادق الحديث، ظاهر الأمانة ملازماً للعفة والطهارة بعيداً عن الريب والشبه والظنون .

يقول ابن خلدون : وأما العدالة، فلأن الخليفة صاحب منصب ديني، ينظر في سائر

---

(١) سورة النساء الآية ١٤١ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٤ .

المناصب التي تشترط فيها العدالة ، فكان أولى باشتراطها فيه، ولا خلاف في أن انتفاء العدالة فيه يفسق الجوارح ومن ارتكاب المحظورات وأمثالها وعلى هذا إجماع العلماء، أما انتفاؤها بالبدع الاعتقادية فهو محل خلاف بناء على تأثير هذه البدع على هيبة السلطة وطاعة الرعية.

٤) أن يكون مالكاً للكفاية العلمية التي تمكنه من استنباط الأحكام بنفسه أو بمستشاريه بما يتفق وشرع الله تعالى، يقول ابن خلدون : فأما اشتراط العلم فظاهر لأنه إنما يكون منفذاً لأحكام الله تعالى إذا كان عالماً بها، فإذا لم يكن يعلمها لا يصح تقديمه لها، ولا يكفي من العلم عنده إلا أن يكون مجتهداً حتى يمكن من الحكم فيما يجد من أحداث بشرع الله تعالى، ولأن التقليد نقص، والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال وعلى رأسها اتصافه بالعلم الذي هو أساس عمله ودعائم خلافته.

٥) أن يكون الخليفة ثاقب النظر، دقيق الفكر، قادراً على الوصول للأحكام العملية في سياسة الرعية، وتدبير المصالح، وذلك يقتضى الخبرة الكافية بشئون الناس، وحاجات البلاد والعباد، والتعامل مع غير المسلمين ...كل ذلك بطريقة لبقة تمكنه من إرضاء الناس بشرع الله تعالى .

٦) أن يتمتع بقوة الشخصية، وشجاعة الرأي، وعدم التردد، ليتمكن من إقامة الحدود، ومنع الظلم، وتنفيذ الأحكام الإسلامية .

٧) أن يكون الخليفة سليم الحواس، سليم العقل، سليم التصرف، فإن طرأ على ذلك نقص لا يسيء ولا يمنع من التولي، ولا يضر الولاية فهو كعدمه، وإن كان يضر نظر فيه ... لأن المقصود أن يقوم الإمام بالإمامة على وجهها الصحيح[1] ، يقول ابن خلدون : **وأما سلامة الحواس والأعضاء من النقص والغفلة، كالجنون، والعمى، والصمم، والخرس، وما يؤثر فقده من الأعضاء في العمل، كفقد اليدين والرجلين، فتشترط السلامة منها كلها، لتأثير ذلك في تمام عمله، وقيامه بما جعل إليه، وإن كان إنما يشين في المنظر فقط، كفقد أحد هذه الأعضاء، فشرط السلامة منه شرط كمال[2].**

---

(١) نظام الحكم في الإسلام صـ٢٣٠- ٢٣٣ بتصرف

(٢) المقدمة صـ١٦٢ .

٨) اشترط أهل السنة أن يكون الخليفة، قرشياً، وخالفهم الخوارج والمعتزلة .

ويلاحظ أن الفقهاء الذين نظروا إلى شرط النسب واعتبروه في الإمامة، وفى غيرها من الأحكام الخاصة كالكفاءة بين الزوجين في الزواج، لا يتنافى رأيهم هذا مع مبدإ المساواة المقررة في الإسلام بين الناس، لأن المساواة مطلوبة فيما ثبت للأفراد من الحقوق أو كلفوا به من الواجبات.

وقضية الإمامة والكفاءة روعي فيها عرف الناس وعاداتهم وتوفير المصلحة التي لا يعقبها نزاع، وكون الحق فيها قاصراً على من حددهم الشرع لحكمة معينة .

وبما أن قريشاً كانت لها الصدارة بين العرب، وتألف شئون المدينة والاجتماع ويتبعها أكثر الناس، وكلمتها نافذة بين القبائل منذ الجاهلية، فمن المصحلة إناطة أمر العالم والسياسة بها، فإذا تغير الأمر وأصبحت الغلبة لمن ترضى عنه أكثرية الناس بالانتخاب ونحوه، فلا مانع من عقد الإمامة له وإن لم يكن قرشياً .

إن الإسلام لم يقرر فكرة العصبية القرشية كغاية في التشريع، أو كأساس في تكوين المجتمعات، وإنما المعول عليه توفير القوة والطاعة، وبما أن ذلك لم يعد يعتمد على العصبية كما كان في الماضي، بل أصبح مستمداً من نظام الدولة وما تملك من جيوش، فإن هذا الشرط لم يعد ضرورياً، ويكفي أن يختار الخليفة بالطريقة المشروعة وأن يحوز رضا المسلمين

ويمكن أن يستبدل بهذا الشرط أن يكون القائم بأمور المسلمين متصفاً بصفات تجعله متبوعاً من الكثرة الغالبة، ليكون مطاعاً مرضياً عنه، ذا قوة مستمدة من الإرادة العامة، بحيث يترتب على وجوده حصول الوحدة، وانتفاء دواعي الخلاف[1].

---

(١) نظام الإسلام صـ٢٣٠، ٣٣١ .

ـ المبحث الرابع ـ
حقوق الخليفة وواجباته

اهتم علماء السياسة الشرعية بتحديد واجبات الإمام وحقوقه وعلى رأسهم الماوردي في كتابة " الأحكام السلطانية " وهو مرجعنا الرئيسي فيما سنذكره[١] وسنبدأ بالواجبات، ونتبعها بالحقوق، ليعلم القارئ أهمية نصب الخليفة والصورة العملية التي يظهر بها في عمله مع الناس .

– أولاً –
واجبات الخليفة

الخليفة مسئول عن حماية الدين وصيانة الدنيا ومباشرة كافة الأعمال الرئيسية التي تحتاجها الدولة الإسلامية وأهم واجبات الخليفة ما يلي :–

١) المحافظ على الدين وحمايته :–

الدين هو الحياة، وهو المنظم لكافة الشئون وأول واجبات الخليفة هو المحافظة على الدين والدفاع عنه .

وهذه المحافظة تحتاج من الحاكم إلى القيام بأعمال متعددة من أهمها :–

أ– الاهتمام بتعليم أفراد الأمة الإسلامية، ليعرفوا حق الله وحقهم، مع التركيز على تعليم ما يحتاجه كل واحد منهم، بمعنى أن يتعلم التاجر أحكام التجارة، والمزارع أحكام الزراعة، ولا يقدم شاب على الزواج إلا وهو يعلم الأحكام الشرعية للزواج وآدابه وذلك بعد أن يتعلم كل مسلم ومسلمة ما يلزمه من عقيدة وعبادات .

ب– رد الشبه الموجهة للإسلام من أعدائه، وبخاصة في هذا الزمان الذي تتكالب فيه قوى الطغيان على الإسلام، والمسلمين .

جـ– المحافظة على شعائر الإسلام التي تحتاج إلى سلطة الحكم كإنشاء المساجد ورعايتهما، وتعيين من يقوم للعمل بها، ويؤم الناس فيها، ومثلها تحديد شهر الصوم، وتيسير أداء فريضة الحج والإشراف على جمع الزكاة وتوزيعها لمستحقيها .

---

(١) انظر الأحكام السلطانية صـ ١٥ ، ١٦ ط الحلبي .

د- الدعوة الدائمة إلى الفضيلة، من خلال أدوات الاتصال المختلفة لتوجيه الناس نحو طاعة الله، والتأثير في الرأي العام الإسلامي ليسير على الهدى والرشاد .

هـ- منع أي خروج على المنهج الإسلامي داخل المجتمع على اعتبار أن مظاهر الغش، والفجور، وارتكاب المحرمات كشرب الخمر، والمجون السافر تعد أمراضاً خطيرة تضر المجتمع، وتؤدي إلى التخلف والانحطاط .

و- منع كافة العمليات الضارة التي تفسد الآداب، وتضر التربية وعلى رأسها ما ينشره ويذيعه الإعلام المادي المعاصر الذي يعتمد على الخبر المثير، والصور الفاضحة، والحوادث الماجنة مع ما في كل ذلك من ضرر .

ز- محاربة البدع، والقضاء عليها بالإقناع والحسنى كلما أمكن لأن تركها يؤدي إلى تعاظمها، ومضاعفة خطرها سواء كانت هذه البدع في الأصول أو في الفروع .

ز- إقامة حدود الله، وسائر العقوبات الشرعية على من يستحقها لأنها تؤدي إلى زجر المعتدى، وتمنع من العدوان، ويصون هيبة الأمة، ويحمى حق الحياة .

٢) حماية الأمن للناس :

أ- مواجهة من يحاول الإساءة إلى المجتمع بصورة واضحة، وحازمة ليأمن المجتمع من ألاعيب الخبثاء، ومكر المعتدين .

ب- التصدي لأي إنسان يقصد الإسلام بسوء، والتعامل معه بالكيفية التي تناسب قصده، وعمله .

جـ- إعداد العدة اللازمة لمواجهة أعداء الأمة، وذلك بتحصين الثغور والمرابطة على الحدود، وتطهير المجتمع الداخلي من العيون وتجهيز الجيش بالعتاد والسلاح .

د- تقوية الجبهة الداخلية بالوعي، والتدريب لتكون خير عون للحاكم حين يحتاج إليها .

٣) حماية الأموال :

وذلك يكون بما يلي :-

أ- جباية الأموال المستحقة على الناس، في مواعيدها، ومقاديرها كأمـــوال الفيء

والزكاة، والضرائب، والصدقات، والوقف، والشركات والصناعة، والتجارة .. وغيرها

ب- إدارة المشروعات المالية، والمصارف بمنهج الإسلام لتكون مصدر كسب لا خسارة فيه .

جـ- تعيين الموظفين في الإدارات المختلفة للدولة بعيداً عن المحسوبية والعصبية، وأن يعين الرجل المناسب في مكانه المناسب وفق المواصفات التي حددها الإسلام، وسار عليها السلف الصالح .

د- صرف الأموال في مجالاتها الصحيحة بعيداً عن الإسراف والتبذير والمظهرية الخالية من الفائدة والبعد بصرف الأموال عن أي عمل يحرمه الإسلام ولا يرضى به الله تعالى.

هـ- إنشاء المرافق العامة، وصيانتها لما لها من أهمية في نهضة المجتمع وتقدمه ولأنها لا توجد ولا تستمر إلا بواسطة السلطة الحاكمة، وإشرافها عليها .

٤) إقامة العدل والنظام :

وذلك يتم بما يلي :-

أ- وضع مراقبين على النشاط العام لضبطه وفق المصلحة العامة .

ب- تنظيم السكك، وتعيين من يشرف على حركة المرور فيها .

جـ- إقامة القضاء للفصل في المنازعات، والخصومات التي تنشأ بين الناس.

د- إقامة الحدود لتصان المحارم، وينتشر العدل، ويستقيم حال الناس .

هـ- تنظيم كل ما ييسر أمور الحياة للناس كتأسيس المدارس، وتدوين ما يجد من دواوين، والإشراف على إدارة ما يحتاجه الناس .

والخليفة لا يباشر واجباته وحده، وإنما له أن يستعين بالأمناء في إدارات الخلافة ومؤسساتها ويكلفهم بأداء المهام كل فيما يحدده له .

إن الخلافة مسئولية كبرى، ولذلك رفضها عديد من فضلاء الأمة، خوفاً من التقصير ولذلك وجب على الناس مساعدة الإمام والنصح له .

-ثانياً-
حقوق الخليفة

للخليفة على رعيته حقوق لابد منها ليستقيم حال الأمة، ويتحقق الأمن، والاستقرار ومن أهمها :

١) الطاعة :

الطاعة حق مقرر للحاكم لقوله تعالى ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾(١) وأولو الأمر هم العلماء والحكام وإنما عطف أولى الأمر على طاعتهم الرسول دون الأمر بطاعتهم استقلالاً لأنهم ملتزمون بطاعة الله ورسوله .

وقد وردت أحاديث عديدة تدعو إلى طاعة الإمام :

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : **عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثره عليك**)(٢) يقول النووي ومعنى أثره عليك أن الطاعة واجبة للأمراء وإن استأثروا بحقوقكم الدنيوية من دونكم (٣).

عن جنادة بن أمية قال: **دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا حدثنا أصلحك الله بحديث ينفع الله به سمعته من رسول الله ﷺ .**

فقال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع، والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله(٤).

وهذه الطاعة تؤدي إلى وحدة الأمة، وبذلك يتمكن الخليفة من القيام بما وجب عليه، ويجنب البلاد والعباد شر الفتن وما أكثرها في هذا الزمان .

فإن في آخر الزمان تكثر الفتن، ويشتد البلاد، ويصير للطغيان صولة وجولة.

والمسلمون اليوم يعيشون أذلاء، مستضعفين تتحكم فيهم قوى البغي والشـر في

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٢) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب وجوب طاعة الأمير جـ١٢ صـ ٢٢٤ .

(٣) شرح النووي كتاب الإمارة – باب وجوب طاعة الإمام جـ١٢ صـ٢٢٤، صـ ٢٢٥ .

(٤) صحيح مسلم كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الإمام جـ١٢ صـ٢٢٨ .

العالم كله وليس لهم شأن في عند غيرهم لضعفهم وفقرهم وهوانهم، وواجب عليهم أن يتحدوا في أوطانهم، ويكونوا مع ولاتهم على نصر دين الله تعالى، والمحافظة على حقوق المسلمين، والعمل على تقدم العمران وزيادة الإنتاج يقول النبي ﷺ (**إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه، ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله عز وجل وعدل كان له بذلك أجر، وإن أمر بغيره كان عليه منه**)[١].

وعن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول : **كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني .**

فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير شر ؟

قال: نعم .

فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير ؟

قال: نعم، وفيه دخن .

قلت: وما دخنه ؟

قال: قوم يستنون بغير سنتي ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر .

فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر ؟

قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها .

فقلت: يا رسول الله صفهم لنا .

قال: نعم قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا .

قلت: يا رسول الله فما ترى إن أدركني ذلك ؟

قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم .

فقلت : فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟

قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[٢].

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب الإمام جنة جـ١٢ صـ٢٣٠ .

(٢) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب ملازمة الجماعة حين ظهور الفتن جـ١٢ صـ٢٣٦ .

فالطاعة تؤدي إلى تماسك الجماعة، وبذلك تعيش الأمة قوية، متحابة وليكن معلوماً أن طاعة الإمام مشروطة بطاعته لله تعالى لقوله ﷺ **(على المرء المسلم السمع والطاعة، فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)**[1].

٢) النصح :

يجب على المسلمين أن يتعاونوا مع الحاكم في كل ما يحقق التقدم والخير، والازدهار في جميع المجالات الداخلية، والخارجية بالجهاد بالمال والنفس، وزيادة العمران، وتحقيق النهضة الصناعية والزراعية، والأخلاقية والاجتماعية، وإقامة المجتمع الخير، وتنفيذ القوانين، وتطبيق الأحكام الشرعية، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، سواء فيما يمس المصلحة العامة، أو المصلحة الخاصة، وتقديم النصيحة، وبذل الجهد بتقديم الآراء والأفكار الجديدة التي تؤدي إلى النهضة والتقدم، وتوعية الناس والدعوة لها في السلم والحرب .

ومن المعروف أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أصول الإسلام الأساسية المقررة بالتضامن بين الحكومة والأفراد، لأن في ذلك إقامة أمر الله وهدم كل ما يخالف الإسلام، قال الله تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾[3] وقد ورد في شأن اليهود ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾[4].

واعتبرت سمة المؤمنين الاجتماعية هي القيام بهذا الواجب في قوله سبحانه ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(١) انظر الأحكام السلطانية صـ ١٥ ، ١٦ ط الحلبي .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

(٤) سورة المائدة الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[١].

وورد في السنة النبوية أحاديث كثيرة بهذا المعني، من أهمها قوله ﷺ (**ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت بعلها وولده ومسئولة عن رعيتها، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته**)[٢].

وقد قال: النبي ﷺ : **الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله قال ﷺ : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**[٣].

هذه النصوص وغيرها كثير توجب مؤازرة الحاكم بالنصح والمعروف لأن هذا يعود على المجتمع كله بالخير، والنفع .

٣) الراتب :

ومن حقوق الإمام أن يكون له راتب، لأنه انقطع لخدمة الأمة، فلا يتسع وقته للعمل الشخصي، وللعمل العام في آن معاً، وهذه الحقيقة بديهية في هذه الأيام و لم تكن كذلك في سالف العصور، غير أنه مما يدعو إلى الإعجاب أن المسلمين الأولين قد تنبهوا منذ فجر تأسيس الدولة الإسلامية لذلك **فلقد روى أن أبا بكر كان رجلاً تاجراً، وأنه غداة انتخابه للخلافة، حمل أثواباً ونزل إلى السوق يبيعها، فلقيه عمر، فقال له : ما هذا يا أبا بكر؟ لقد وليت أمور المسلمين .**

قال أبو بكر : ومن أين أطعم عيالي ؟

قال عمر : اذهب إلى أبي عبيدة يفرض لك.

فذهب أبو بكر إلى أبي عبيدة ففرض له عطاء واحد من المهاجرين ليس بخيرهم، ولا أوكسهم، وقيل أن راتبه بلغ ألفين وخمسمائة درهم في السنة .

---

(١) سورة التوبة الآية ٧١ .

(٢) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب فضيلة الإمام العادل جـ١٢ صـ٢١٣ .

(٣) صحيح مسلم – باب بيان أن الدين النصيحة جـ٢ صـ٣٧ .

غير أن أبا بكر قد أمر قبل وفاته بأن يرد كل ما أخذه إلى بيت المال، من أمواله الخاصة، فكان في ذلك الخليفة الذي يضع القاعدة، لتكون مجالاً اتبعه من بعده من فقراء الخلفاء، كعمر وعليّ، ثم وضع قاعدة أخرى هي التعفف للقادرين، ولا نعرف أن خليفة آخر قد اتبعها غير عثمان بن عفان ﷺ .

٤) حق التشريع :

من حقوق الإمام أن يشرع للناس، فيما لم يرد عليه نص في الكتاب أو السنة وهذا أمر قد تتعرض له الدولة في اليوم الواحد مرات عدة، يقول ابن القيم، **إن النصوص تنتهي، والحوادث لا تنتهي** .

ومن المفروض أن يلتزم الإمام حين عزمه على تشريع أمر ما، بالقواعد التي نص عليها في الكتاب والسنة، ومن أهمها الشورى، فليس هذا الحق حقاً مطلقاً للإمام[١] يمارسه كيفما شاء وأنى أراد، وإنما عليه أن يستعين بكل ذي علم وخبرة في الموضوع الذي يعالج، وقد رأيت في بحث الشورى مدى التزام الخلفاء الراشدين، أو أكثرهم، بهذه القاعدة .

وقد ألف عمر بن الخطاب مجلساً خاصاً من عشرة من الأنصار، ليقرر ما ينبغي أن يكون في الأرضين المفتوحة، في العراق والشام، وأنه إنما اختار الأنصار لأنهم ذوو خبرة في الشئون الزراعية فكانوا بمثابة مجلس نواب الشورى، ليسنوا التشريعات، ويصدق عليها الإمام .

كذلك لا يحق للإمام أن يصدر تشريعاً يخالف في نصه وروحه ما ورد في القرآن الكريم أو في السنة النبوية وهذا ما يعرف بمشروعية القوانين، ومعناه ضرورة موافقة القانون لشرع الله تعالى [٢].

---

(١) خالف الشيعة في هذا كما رأيت من عصمة الإمام عندهم .

(٢) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي صـ٣٥٦ .

ـ المبحث الخامس ـ
نواب الخليفة ومعاونوه

تدبير شئون العباد لا يقدر عليه رجل واحد، ولابد له من اختيار من يساعده، ويتولى الأمر في الأقاليم البعيدة والقريبة نيابة عنه، وقد حدد الماوردي أهم الوظائف المعاونة للخليفة التي يقوم الخليفة باختيار أشخاص لها وفق شروط معينة .... وأهم هذه الوظائف ما يلي :-

ـ ١ ـ
وزارة التفويض ★

وهي تشبه رئاسة الوزراء في العصر الحديث وهي أخطر الوظائف بعد الخلافة حيث يتولى الوزير المفوض كل ما يتولاه الخليفة نيابة عنه كأنه فوضه في اتخاذ القرارات التي يقوم بها وآيات القرآن الكريم تشير إلى أهمية وزير التفويض ومشروعية اتخاذه يقول الله تعالى ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ والآيات تشير إلى مهام الوزير وهي المشاركة في اتخاذ القرار، والتقوية به، لأنه من مؤيدي الرئيس الإمام، والمعاونة في تنفيذ حكم الله وطاعته، فموسي عليه السلام يطلب من الله وزيراً معه لا معارضاً له لأنه من أهله ويحدده ويختاره فهو أخوه هارون، وعلة الاختيار اشدد به أزرى وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً.

ويسمى السيوطي، وزير التفويض بنائب الخليفة ويقول : الوزير نائب الخليفة، يفوض إليه جميع أمور المملكة، وتولية من رآه من القضاء ونواب البلاد، وتجهيز العساكر والجيوش، وتفرقة الأرزاق، إلى غير ذلك، وأن له البسط والقبض، والرفع والخفض، والإبرام والنقض، والقطع والوصل، والولاية والعزل، والتصرف والصرف، والإمضاء والوقف [1].

★ وردت كلمة وزير في القرآن الكريم والسنة النبوية ففي القرآن جاء في قولـــه تعـــالى ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ وفى السنة يقول النبي ﷺ **(وزيراى من أهل السماء جبرائيل وميكائيل، ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر)** ومعنى كلمة الوزير المعين، والمشارك في تحمل المسئولية

(١) حسن المحاضرة جـ٢ صـ١٢١، ١٢٢ .

وهناك بعض الأعمال لا يقوم بها إلا الخليفة لأنها من اختصاصاته وحده وهي:

أ- اختيار ولاية العهد : فإن للخليفة أن يعهد إلى من يرى ويبايعه خاصة على أن يبايعه الناس بعد ذلك، وليس ذلك للوزير .

ب- للخليفة أن يستعفي الأمة من الخلافة لأن ذلك عمله وهو الذي يقدره، وليس ذلك للوزير .

ج- للخليفة أن يعزل من قلده الوزير لأنه صاحب السلطة العليا، وليس للوزير أن يعزل من قلده الخليفة [1].

وما عدا هذه الأمور الثلاثة تنفذ كل تصرفات وزير التفويض بمقتضى التفويض الذي وكله الخليفة إليه، فإن حدث اختلاف بينهما بأن عارض الخليفة في رد ما أمضاه من أحكام قضائية نفذ قضاء وزير التفويض لضرورة نفاذ الحكم بعد ظهوره والقضاء به

وإن كان تصرفه متصلاً بتوزيع الأموال لم يجز نقض تصرفه ولا استرجاع ما وزعه وإن كان تصرفه في أمر عام كتقليد وال، أو تجهيز جيش وتدبير حرب جاز للإمام معارضته بعزل من ولاه، ورد الجيش إلى ثكناته، وتدبير الحرب بما هو أولى، لأن للخليفة أن يستدرك ذلك من أفعال نفسه، فكان أولى له أن يستدركه من أفعال وزيره[2].

ولو قلد الإمام والياً على عمل، وقلد الوزير غيره على ذاك العمل ينفذ قرار الأسبق في التعيين إن تمسك كل منهم بما عينه، وإن اتفقا على واحد ولي .

ويلاحظ هنا محافظة الإسلام لوزير التفويض بالهيبة والتقدير، فليس هو خادماً للإمام ولا ظلاله ... وإنما هو عامل لله بشرعه، وفي رعيته، وله ذاتيته .

وتنسيق العلاقة بين الإمام ووزير التفويض من المسائل الضرورية ويتم كما يلي :-

أ- على وزير التفويض أن يقوم بمطالعة الإمام لما أمضاه من تدبير وما أنفذه من ولاية وتقليد، لئلا يستبد برأيه، ويترك الشورى .

ب- على الخليفة أن يتضح أفعال الوزير، وتدبيره الأمور، ليقر منها ما وافق الصواب،

---

(١) مقدمة ابن خلدون صـ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي صـ ٢٤ .

ويستدرك ما خالفه، لأن تدبير الأمة موكول إليه، ومحمول على اجتهاده والأمر في النهاية مسئوليته، وكان عمر ﷺ يراجع من ولاه عملاً حتى يطمئن إلى صواب ما ذهب إليه[١].

وبما أن منصب هذه الوزارة له أهميته وخطورته اشترط الفقهاء فيمن يتقلد وزارة التفويض شروط الإمامة نفسها مع زيادة شرط آخر وهو أن يكون وزير التفويض من أهل الكفاية فيما وكل إليه من أمري الحرب والخراج لأهميتهما في ضبط شئون الناس وحماية البلاد والعباد .

كذلك لا يكفي للتكليف بهذه الوزارة مجرد الإذن، بل لابد من عقد معين صادر من الخليفة يكلفه بها بوضوح لأن العقود لا تصح إلا بالقول الصريح يقول الفراء : ويفتقر تقليده الوزير، إلى لفظ الخليفة، لأنها ولاية تفتقر إلى عقد، والعقود لا تصح إلا بالقول، فإن وقع له بالنظر، أو أذن له فيه أو كتب له بذلك فالقياس : أنه يصح التقليد، لأن الكتاب كالخطاب كلاهما يصح العقد به، ولأن من المعلوم أن من عادة الخلفاء الاكتفاء بالقول الموجز، وتؤدي شواهد الحال ما يدل عليه المقال [٢].

ولا يجوز تعيين أكثر من وزير مفوض واحد حتى لا يختلفا ويتعارضا حين التعدد فإن عين الخليفة أكثر من واحد وجب عليه أن ينظم العمل بينهما لتحقيق التعاون، وحتى لا يقع اختلاف يضر الناس، ويسيء إلى الدولة .

-٢-

وزارات التنفيذ

ويتولاها الوزراء الذين يباشرون تنفيذ رأي الخليفة وفق التدبير الذي يعينه لهم، واختصاصات وزير التنفيذ محددة، ويمكن أن تتعدد وزارات التنفيذ بتعدد المهام والأعمال، لأن لكل وزير عمله واختصاصاته يقول الفراء والماوردي : وأما وزارة التنفيذ فحكمها أضعف، وشروطها أقل: لأن النظر فيها مقصور على رأي الإمام وتدبيره، وهذا الوزير وسيط بين الإمام وبين الرعايا والولاة، يؤدى عنه ما أمر، وينفذ عنه ما ذكر، ويمضى ما ورد من مهام، وما تجدد من حدث ليعمل فيه بما يؤمر به .

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي صـ٢٥ .

(٢) الأحكام السلطانية للفراء صـ١٣ .

فهو معين في تنفيذ الأمور، وليس بوال عليها، ولا متقلداً لها، فإن شورك في الرأي كان باسم الوزارة أخص، وإن لم يشارك فيه كان باسم الوساطة، والسفارة أشبه[١].

ويشترط في وزير التنفيذ الشروط التالية:-

١- **الأمانة**: حتى لا يخون فيما قد أؤتمن عليه، ولا يغش فيما استنصح فيه .

٢- **صدق اللهجة**: حتى يوثق بخبره فيما يؤديه، ويعمل على قوله فيما ينهيه .

٣- **قلة الطمع**: حتى لا يرتشي ولا ينخدع .

٤- **أن يكون مسالماً** لا عداوة ولا شحناء بينه وبين الناس، لأن العداوة تصد عن التناصف، وتمنع من التعاطف .

٥- **حاضر البديهة والذاكرة** حتى يؤدي إلى الخليفة ويدافع عنه لأنه شاهد له وعليه.

٦- **الذكاء والفطنة** حتى لا تدلس عليه الأمور فتشتبه ولا تموه عليه فتلتبس .

٧- **ألا يكون من أهل الأهواء**، لأن الهوى يخرجه من الحق إلى الباطل [٢].

فإن كان وزير التنفيذ ممن يشارك بالرأي مع الخليفة احتاج إلى شرط ثامن وهو أن يكون متميزاً بالحنكة والتجربة، التي تصوب الرأي وتحكم التدبير، والتجارب خير مدرسة تعلم عواقب الأمور، ونتائج الأعمال.

والفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ عديدة حصرها الإمام الماوردي في فروق ثمانية وهي كما يلي :-

أولاً : الفروق العائدة للشروط والمؤهلات وهي الشروط التي لابد من تحققها قبل التولية والاختيار وعددها أربعة وهي :

١- **الحرية** مطلوبة في وزارة التفويض، وغير مطلوبة في وزارة التنفيذ .

٢- **الإسلام** مطلوب في وزارة التفويض، دون التنفيذ .

٣- العلم بالأحكام الشرعية (الاجتهاد) مطلوب في وزارة التفويض لا التنفيذ .

٤- المعرفة بشئون الحرب والاقتصاد كالخراج مطلوب في وزارة التفويض لا التنفيذ .

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي صـ٢٥، وللفراء صـ١٥ والكتابان بمسمى واحد، وألفاظهما هنا متطابقة .

(٢) المرجع السابق صـ٢٦، صـ١٥ .

وبهذه الفروق يمكن لغير المسلم أن يتولى وزارة التنفيذ، كما يمكن للمولى والعبد أن يقوم بالتنفيذ وذلك لأن هذا الوزير يعمل برأي مفوض ويستعين به في أغلب أمور الحكم التي يتولاها .

ثانياً : الفروق المتعلقة بالاختصاص والصلاحيات وهي الشروط التي تحدد إطار العمل المسموح به لكل من الوزيرين وهي :

١- يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم، وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٢- ويجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتقليد وتعيين الولاة وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٣- يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب وليس ذلك لوزير التنفيذ .

٤- يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في أموال بيت المال بالجباية والصرف وليس ذلك لوزير التنفيذ [(١)].

وقد أورد الماوردي مجموعة من الوصايا التي يحتاج إليها وزراء التنفيذ وهي:

- وصيته للوزير بالمراقبة لله تعالى في السر، ومراقبة سلطان الله في خلوته .
- وصيته للوزير في أن يكون خبيراً بالرعية، متطلعاً على أحوالهم .
- وصيته له باختبار أحوال من استكفاه وطلب معونته، ليعلم عجزه من كفايته.
- وصيته له باقتصاره على الأعوان بحسب الحاجة إليهم .
- وصيته بتهذيب نفسه وتتريهها عن الطمع .
- وصيته له على مشارفة الأعمال بنفسه .
- وصيته له بخفض جناحه لمن فوقه وتوطئة كنفه لمن هو أدنى منه .
- وصيته له بالشكر على النعمة، والصبر في الشدة، واستدامة مـــودة مواليه بالإحسان إليه وعدوه بالاحتراز منه، وأن لا يعول على التهم والظنون .
- وصيته له بكتمان أسراره، وأن يختار لها من يثق بدينه، وإن كان لابد من الإذاعة

---

(١) الأحكام السلطانية صـــ٢٧ ، ١٦ .

في حدود الضرورة .

- وصيته له باحماد السلطان، وشكر الرعية، والقيام بالإحسان إليهم.

- وصيته له بالحذر من الزمان، والاحتراز من الاعترار به، وأن يكون صلاح عمله ذخره، وجميل سيرته أثره[1].

- ٣ -

الإمـــارة

نظراً لاتساع الدولة الإسلامية تم تقسيمها في عهد أبي بكر الصديق إلى ولايات، وأخذت الولايات تتسع باتساع الدولة وبخاصة في عهد عمر ﷺ وقد استمر الاتساع مع الخلفاء بعد عمر[2].

وقد اقتضى ذلك تعيين أمير لكل أقليم يقوم فيه بما يقوم به الخليفة في الدولة، وتعرف إمارته **بإمارة الاستكفاء** لأنه يقوم في ولاية لكل أعمالها، ووجوده كاف لها، ولذلك فشروط اختياره هي نفس شروط وزير التفويض، والفرق بينهما إقليمي بحت فالوزير المفوض صاحب ولاية في الدولة كلها، وأمير الاستكفاء وال في أقليم ما بحيث يتولى كافة الأعمال في هذا الأقليم .

وقد يحدث في بعض الأقاليم أن يستولى شخص بالقوة على السلطة وتعرف إمارته **بإمارة الاستيلاء** وهي من الأمور الاستثنائية التي تحتاج إلى حسن سياسة حتى يستقر الأمر بالحق .

وهناك الإمارة الخاصة، وهى تعني الأشخاص الذين يعينهم الخليفة لولاية أمر معين كتدبير الجيش، وتأمين الطرق، والإشراف على الزراعة أو التعليم وغير ذلك .

هـذا ...

وقد اهتم الإسلام بكل الأعمال التي تحتاج لرجال يقومون بها كـــالمدير، وصاحب

---

(١) المرجع السابق صـــ٤٦، ٥٨ بتصرف .

(٢) قسم أبو بكر ﷺ الحجاز إلى ثلاث و لايات واليمن إلى ثمان والبحرين وتوابعها واحدة، وكان لكل ولايـــة أمـــير يقودها من قبل الخليفة، وقد استمر الخلفاء على ما تعلموه من رسول الله ﷺ في تعيين عمال في الولايات التي وصلها الإسلام .

الديوان وكل من وظف لعمل فوضع لها من الشروط التي تؤدي إلى تحقيق العمل، والمحافظة على الأداء المطلوب وذلك باختيار من يقومون بالأعمال وفق مواصفات خاصة .. وبذلك سبق الإسلام كل النظم بوضع مواصفات لمن يتولى عملاً يحقق مصلحة للعباد، وهي الأعمال التي تعرف بالمصالح العامة، وهذا المواصفات يجب وجودها في كل من ولى أمراً في الدولة الإسلامية مهما كانت درجته، ومهما كان مستوى عمله ... وأهم هذه المواصفات ما يلي :-

١) الخبرة العلمية والعملية :

يحتاج كل من يتولى عملاً في الدولة الإسلامية أن يكون صاحب علم يبصره بأحكام دينه وكيفية سياسة رعاياه، وأن يجمع مع العلم الخبرة بمناحي ما يوكل إليه، وذلك لا يكون إلا بعد ممارسة طويلة، وتجارب كثيرة .

يروي ابن هشام أن رسول الله ﷺ كان يحتاج إلى صاحب الخبرة، ويوليه العمل، ولو كان صغير السن، فلقد عين ابن أريقط لقيادة رحلة الهجرة، ولما جاءه وفد ثقيف وأسلموا، وكتب الرسول ﷺ كتابهم أمرّ عليهم عثمان بن أبي العاص وكان من أحدثهم سناً، وذلك لما عرف عنه من حرص في تعلم القرآن والفقه في الإسلام[١].

وكان عمر بن الخطاب ﷺ إذا اجتمع إليه جيش من المؤمنين أمرّ عليهم رجلاً من أهل الفقه والعلم، لأن في العلم معرفة بالدين وفى الفقه خبرة بالواقع [٢].

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: دلوني على رجل من أهل مصر، له شرف وصلاح، أوليه صلاتها، فقيل له: بها رجلا، معاوية بن عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج، وأيوب بن شرحبيل، قال: أي الرجلين أقصد؟ أي أعدل

قالوا: أيوب .

قال: فهذا أريد[٣].

وعلى هذا فإن عمر بن عبد العزيز يتوخى أكثر الرجلين مرونة، وتوسطاً في

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ صـ٥٤٠ ط الحلبي .

(٢) تاريخ الطبري جـ٣ صـ١٨٦ .

(٣) الولاة والقضاة للكندى صـ٦٧ .

تصريف الأمور، وقد جرى في ذلك على سنة جده عمر بن الخطاب الذي كان يقول: شدة في غير عنف، ورحمة في غير ضعف.

وكان عمر بن الخطاب يستعمل قوماً، ويدع أفضل منهم لبصرهم بالعمل[١].

والتفضيل هنا إنما يعني أن أولئك الذين تركهم عمر، كانوا أفضل ديناً، وأكثر ورعاً، وأكرم أخلاقاً، ولكن خبرتهم في تصريف الأمور أقل من غيرهم فليس من الضروري أن يجتمع الأمران كلاهما معاً.

وهذه القاعدة التي وضعها عمر متبعة حتى اليوم، ذلك بأن المتدين الورع الخلوق، إذا لم تكن له بصيرة في شئون الحكم، قد يكون عرضه لخديعة أصحاب الأهواء والمضللين، أما المحنك المجرب، فإنه يعرف من النظرة السريعة، معاني الألفاظ، وما رواء معاني الألفاظ .

ولهذا السبب نفسه استبعد عمر بن الخطاب رجلاً لا يعرف الشر، فلقد سأل عن رجل أراد أن يوليه عملاً فقيل له: يا أمير المؤمنين! إنه لا يعرف الشر .

فقال عمر لمخاطبة: ويحك ! ذلك أدنى أن يقع فيه [٢].

وكان عمر ينظر، حين تعيين أحد عماله، إلى بعض الخصائص والطباع والعادات والأعراف، فلقد عرف أنه كان ينهي عن استعمال رجل من أهل الوبر على أهل المدر، وأهل الوبر هم ساكنوا الخيام، وأهل المدر هم سكانوا المدن [٣].

وهذه نظرة اجتماعية سلوكية في آن معاً، في اختيار الموظفين، فلكل من أهل الوبر والمدبر طبائع وخصائص وأخلاق وعادات وأعراف مختلفة، ومن الطبيعي أن يكون العامل عارفاً بنفسية الرعية، وليس من العدل أن تولى رجلاً جاهلاً بها، فقد يرى العرف نكراً، وقد يرى الطبيعي غريباً، فيؤدي ذلك إلى غير ما يتوخاه المجتمع من أهداف يسعى إلى تحقيقها [٤].

وقد رأينا في العصر الحديث اهتمام الدول بإمداد عمـــالها بهذه الخبرة عن طريق الدورات التدريبية، أو التوجيهات المستمرة والتفتيش والملاحظة، واشتراط مؤهلات معينة .. وهكذا

---

(١) مناقب عمر صـــ ٤٤ .

(٢) تذكرة ابن حمدون صـــ ٢٦ .

(٣) تاريخ الطبري جـــ٣ صـــ ٥٩٥ .

(٤) نظام الحكم في الإسلام صـــ ٤٨٠ .

٢) القوة والأمانة :

العمل خدمة للناس والعامل أجير لخدمة الجمهور، ومن الضروري اختيار العمال الأقوياء الأمناء والأصل في ذلك قوله تعالى حكاية عن قوة بنت شعيب ﴿ **قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ** ﴾[١] وتشمل القوة كافة جوانبها فهناك قوة البدن، وقوة العقل، وقوة العزيمة، وقوة الشخصية، وكل هذه النواحي مطلوبة للعامل ليرى بعقله ما يستحق عمله، ويحزم بشخصية ما لابد منه، وينفذ ببدنه العمل الذي يحتاج إلى قوة جسدية .

وجاءت السنة النبوية مؤكدة للآية الكريمة، فقد ورد في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: **قلت يا رسول الله، ألا تستعملني ؟**

قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: يا أبا ذر! إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها [٢].

ولا ريب عندي في أن الرسول ﷺ إنما عنى ضعف شخصية أبي ذر، وعدم قدرته على تدبر الأمور على الوجه الذي تقتضيه المصلحة، و لم يكن المراد ضعفه البدني .

وقد طبق الفاروق عمر ﷺ هذه القاعدة، ورجح الأقوى من الرجال على القوى فقد ورد في تاريخ الطبري .

استعمل عمر عبد الله بن قيس على السواحل، وعزل شرحبيل فقال له شرحبيل: أعن سخطه عزلتني يا أمير المؤمنين ؟

قال: لا إنك لكما أحب، ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل.

قال: نعم، فاعذرني في الناس لا تدركني هجنة، فقام عمر في الناس فقال: أيها الناس، إنيَ والله ما عزلت شرحبيل عن سخطة، ولكني أردت رجلاً أقوى من رجل .
ومن أحلى ما أثر عن عمر في هذا المعنى قوله:أشكو إلى الله ضعف الأمين،وخيانة القوى[٣]

---

(١) سورة القصص الآية ٢٦ .

(٢) صحيح الترغيب والترهيب جـ٢ .

(٣) محاسن التأويل جـ٣ صـ٤٧٠٣ .

والوالي مسئول عن اختيار عماله ومعاونيه وعليه أن يدقق في اختياراته ليكون العمال عونا له على تنفيذ ما وكل إليه من مصالح الدين والناس .

٣) اختيار الكفء للعمل :

يحتاج كل عمل إلى شخص يقوم به ويجب أن يكون هذا الشخص كفؤا لأداء هذا العمل ... يقول الله تعالى ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا** ﴾[١]

جاء في سبب نزول هذه الآية : إن الرسول لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت، فطاف به سبعاً على راحلته، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له.

ثم قام على بن أبي طالب، ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله! اجمع لنا الحجابة مع السقاية .

فقال الرسول ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟

فدعى به فقال له ﷺ : هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء .

ويقول ابن تيمية : هذه الرسالة مبنية على آية الأمراء في كتاب الله تعالى، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ قال العلماء : نزلت في ولاة الأمور، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل .

وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة، والولاية الصـــالحة ... فيجب على ولي الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل.

يقول النبي ﷺ (**من ولى من أمور المسلمين شيئاً، لم ينظر الله في حاجته حتى ينظر في حوائجهم**)[٢] وفى هذا الحديث توجيه واضح لكل من ولى أمراً للناس لينظر في حوائج رعيته حتى يكون الله في عونه.

---

(١) سورة النساء الآية ٥٨ .

(٢) فيض القدير جـــ٦ صـــ٢٣٨ .

وعلى ولاة الأمر أن يهتموا بتولية الأكفاء وذلك بالبحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار ومن الأمراء الذين هم نواب ذي السلطان والقضاة، ومن أمراء الأجناد، ومقدمي العساكر، والصغار وولاة الأموال من الوزراء والكتاب وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين.

وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده، وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمراء الحاج والبرد وخزان الأموال ونقباء العساكر الكبار والصغار، وعرفاء القبائل والأسواق[١].

ويقول أيضاً : الخلق عباد الله، والولاة نواب الله على عبادة، وهم وكلاء العباد على نفوسهم، بمنزلة أحد الشريكين مع الآخر، ففيهم معني الولاية والوكالة، ثم الولي والوكيل، متى استناب في أموره رجلاً، وترك من هو أصلح للتجارة أو العقار منه، وباع السلعة بثمن، وهو يجد من يشتريها بخير من ذلك الثمن، فقد خان صاحبه، لا سيماً إن كان بين من حاباه وبينه مودة أو قرابة، فإن صاحبة يبغضه ويذمه، ويرى أنه قد خانه وداهن قريبة .

إذا عرف هذا، فليس عليه أن يستعمل إلا أصلح الموجود، وقد لا يكون في الموجودين من هو صالح لتلك الولاية، فيختار الأمثل فالأمثل، في كل منصب بحسبه، وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام، وأخذ للولاية بحقها، فقد أدى الأمانة، وقام بالواجب في هذا، وصار في هذا الموضوع من أئمة العدل والمقسطين عند الله، وإن اختل بعض الأمور بسبب من غيره إذا لم يمكن إلا ذلك، فإن الله يقول ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ ويقول تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب بما يناسبه، لأن الأعمال تختلف في حاجاتها، وشروطها وطاقات من يقوم بها ... فهناك أعمال تحتاج للقوى العضلية، والقوى البدنية كالعسكرية ، والأعمال الزراعية والصناعية .... وهناك أمور تحتاج إلى الفكر والتعقل كالإدارة والقضـــاء ... وهنـــاك

---

(١) السياسة الشرعية صــ٤ .

أعمال تحتاج إلى مهارات فنية بجانب الدقة العلمية مثل الدعوة، والتوجيه والتربية [١] ... وهكذا .

ومع أنه يجوز تولية غير الأصلح للضرورة، إذا كان هو أصلح الموجودين، فيجب مع ذلك السعي في إصلاح الأحوال، حتى يكمل في الناس ما لابد لهم منه، من أمور الولايات والإمارات، فإن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب[٢] .

وإذا وجد خلال أدائه العمل من هو أصلح فعليه أن يستبدل بالمتولى من هو أصلح منه، لأن مصلحة الناس أولى، والحرص على ما يفيدهم من مهام الراعي الرئيسية .

---

(١) المرجع السابق صـ٥ بتصرف .

(٢) نظام الحكم في الإسلام صـ٤٩٤ .

ـ المبحث السادس ـ
المسلمون المعاصرون والخلافة

تعيش الأمة الإسلامية اليوم في شعوبية قاتلة، وعنصرية متجدرة في العقول والقلوب، فلقد أدى الاستعمار الغربي إلى تقسيم العالم الإسلامي إلى دويلات عديدة وغرس في عقول أبناء كل دولة التعصب لوطنهم، حتى أصبح أبناء كل وطن يعتزون **بوطنيتهم، ولا يرون لسائر أوطان** المسلمين إلا الأماني العاطفية التي لا أثر لها في واقع الحياة ووصل الأمر المسلمين إلى وقوع حروب عديدة فيما بينهم .

وخطط الاستعمار العالمي لاستمرارية انقسام الأمة المسلمة فابعدهم عن شريعتهم، وزرع في قلوبهم حب الدنيا، وعودهم التنافس على الشهوات المادية والجري وراء المغريات .

لقد أصبح كل وطن يعيش وحده، وقد يقاتل غيره، وصار الجميع تحت حكم غير شرعي يعمل لنفسه، **ويخشى** توحد الأمة، وعودتها إلى نبعها الأصيل .

ومن الغريب **أن البعض** يدعي أنه الخليفة، وأنه الإمام، وأنه الأمير ... وهو في الحقيقة بعيد عن روح الخلافة، وشروطها، وضروراتها .

لهذا :

صعب الطريق، ووجب الإقرار بالواقع السيئ إلى أن يأذن الله تعالى مرة أخرى بعودة صادقة إليه سبحانه وتعالى وتوحد الجميع في إطار دين الله تعالى .

وقد درس الفقهاء الأمر، وتأملوا الحال وبحثوا عن حكم الخلافة إذا كثرت أوطان المسلمين، وتعددت بلادهم ووجدوا أنفسهم أمام سؤال لابد من الإجابة عنه وهو :

هل يبقى المسلمون منتظرين الخليفة الواحد، أم يقبلون تعدد الخلفاء حتى يستقر الأمر ويعود المسلمون إلى سابق عهدهم الجميل ؟

ومن المعلوم أن الحديث عن تعدد الخلفاء بدأ منذ اجتماع المسلمين في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة رسول الله ﷺ حينما قال الأنصار لأبي بكر : **(منا أمير ومنكم أمير)** وقد رد أبو بكر هذه الفكرة، وأجمع الناس على خلافته .

وأخذ التعدد صورة واقعية في أيام الخليفة الرابع (على بن أبي طالب) الذي تمت بيعته بطريقة شرعية في المدينة، ومع ذلك وجدت حكومة فعلية بقيادة (معاوية بن أبي سفيان) في دمشق الذي رفض مبايعة على ﷺ و لم يعلن نفسه خليفة في بادئ الأمر إلا أن أصحابه سلموا عليه بالخلافة بعد عودتهم من (دومة الجندل)[1] .

وكان معاوية قبلها يباشر كافة مهام الخليفة ومسئولياته فعين الولاة، وجيش الجيوش، وكلف القضاة، وكانت صلته بعلي منقطعة إلا في الجدل والحوار والقتال، وبذلك وجدت خلافتان للمسلمين في وقت واحد، لم يعترف أحدهما بالآخر، وعد على معاوية خارجاً، وعد معاوية علياً مقصراً في واجبات الخلافة .

و لم ينقطع الراغبون في الخلافة بعد ذلك، ففي العصر الأموى، والعباسي كثرت الثورات ، وتعدد الخروج على الخلفاء من الخوارج والشيعة، وغيرهم، وقد أقام بعضهم دولاً خاصة بهم، ومن أشهر ما وقع في هذا الشأن ظهور الخلافة الأموية في الأندلس بجوار الخلافة العباسية في المشرق .

وهكذا اتسعت الخلافات، وتعددت الدول، وكثر أدعياء الخلافة، وفرضت القضية نفسها، وأخذ الفقهاء يبحثون جواز **تعدد الخلافة والخلفاء في وقت واحد** .

ومع الواقع الدولي المعاصر الذي انقسمت فيه الأمة الإسلامية إلى عشرات الدول، اهتم العلماء في بحث جواز تعدد الخلافة في وقت واحد أكثر من أي وقت مضى، وظهر أكثر من رأي في هذا الموضوع .

فلقد استمر الجمهور على عدم جواز التعدد[2] وعدوا التعدد الموجود خروجاً على المشروعية وبعداً عن دين الله تعالى .

ورأى البعض أن الأخذ برأي الخوارج في جواز تعدد الخلفاء أمر ضروري للتعامل مع الواقع بما يناسبه مع إلزام كل خليفة بشرع الله تعالى .

---

(١) نظام الحكم في الإسلام صـ٤٧٧، ٤٧٨ .

(٢) انظر : رأي الباقلاني، وعبد القاهر البغدادي، والماوردي، وابن حزم، وأبي يعلى الفراء، وإمام الحرمين الجويني في كتاب (نصوص الفكر السياسي) لـ "يوسف إيبنش " ط بيروت .

وقد ذهب الأستاذ عبد الرازق السنهوري في هذه القضية اتجاهاً يتفق مع تعدد الدول الإسلامية في العصر الحديث، حيث يرى أن تعدد الولاة، والحكام من الضرورات التي لابد منها، ضماناً للمصلحة، وصيانة لحقوق المسلمين .

ويرى الأستاذ عبد الرازق السنهوري أن نظام الحكم في السياسة الإسلامية يحتم توافر ثلاثة عناصر لابد منها في الحاكم والنظام وهي :-

١) أن يجمع الحاكم بين الاختصاصات الدينية والسياسية لتيقنه أن الإسلام دين ودولة .

٢) أن يطبق مبادئ الشرع مقتدياً برسول الله ﷺ لأنه خليفته .

٣) أن تشمل ولايته جميع بلاد المسلمين .

إن هذه العناصر الثلاثة تجعل الحكم رشيداً، **وتجعل الخلافة خلافة رشيدة، وإذا فقدت واحدة منها فهي خلافة غير رشيدة .**

ولذلك يرى الأستاذ السنهوري أن الضرورة هي التي تؤدي إلى تعدد الخلافة والخلفاء، والضرورية موجودة في الواقع الأمر الذي يحتم تعدد الخلافة على أن تكون خلافة غير رشيدة .

ومن هنا يجوز تعدد الخلافة استثناءاً من الأصل، ومعالجة لواقع موجود[١] فرض نفسه، حتى يتمكن كل إقليم من القيام بواجبه الديني، لحماية البلاد والعباد .

ويمكن للمسلمين في إطار تعدد الولايات والسلاطين أن يعيدوا تنظيم أنفسهم، ويعيدوا وحدتهم بصورة مما استحدثه العصر، فهناك الولايات المتحدة، وهناك الوحدة الأروبية، وهناك المنظمات الإقليمية وهناك الاتحادات الفيدرالية وهكذا حتى يأذن الله للمسلمين بالخير، ويعودوا لما شرع لهم من خلافة رشيدة واحدة تحكم أمة واحدة .

والله الناصر والمعين،،،

---

(١) الخليفة توليته، وعزله صـــ ٨٥ ، ٨٦ .

الخاتمة

الحمد لله على أن أعانني ووفقني في إتمام هذه الدراسة الموجزة عن النظام السياسي في الإسلام، والذي أرجو من ورائه تحقيق الغايات التالية :

أولاً: تأكيداً الحقيقة الثابتة في أن الإسلام دين ودولة وهي الحقيقة التي يحاول أعداء الإسلام طمسها وإهمالها، تمهيداً لعزل الإسلام عن حركة الحياة .

ثانياً : تعريف القارئ بالسبق الإسلامي في تحقيق الأسس الدستورية في عالم الواقع منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، يوم أن كانت الدنيا ظلاماً دامساً، لا تعرف ولا تسمع شيئاً عن الشورى وحقوق الإنسان .

ثالثاً : بيان تمسك المسلمين في عصر السلف بالإسلام، والتزامهم بتطبيقات نظمه جميعاً، وعلى رأسها النظام السياسى كما فعل الخلفاء الراشدون .

رابعاً : إحياء روح الإعزاز بالإسلام، لاشتماله على كل ما يحتاجه الإنسان، وكل ما يحقق له سعادة الدنيا والآخرة .

خامساً: وضع صورة صادقة للمجتمع الإسلامي الأول ليعلم المعاصرون مدى بعدهم عن دولة الإسلام ... عسى أن تأخذهم الحمية الدينية ليعودوا لدينهم مرة أخرى

سادساً : إظهار روح التعامل والتجاوب بين الراعي والرعية في إطار المسئولية الدينية التي كلفهم الله بها .

هذا ما تمنيته من هذه الدراسة، وأسأل الله أن يفتح لها القلوب والعقول ليروها حسنة، طيبة، وأعتذر عن أي تقصير وقعت فيه، وأسأل الله أن يغفر لي، ويسدد خطاى، فما أردت إلا الخير، فإن وصلت إلى بعض منه فالله يؤجرني، وإن عجزت فالله يغفر لي، وهو حسبي ونعم الوكيل .

المؤلف

فهرس الموضوعات

الفصل الرابع
فقـــه الخلافـــــة

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،